

النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى
والوحيدة باللغة العربية



اغاثا كريستي

www.titlas.com



Chandry

لقاء في بغداد



الأجيال
للترجمة والنشر

Agatha Christie



They Came
to Baghdad

لقاء في بغداد

بغداد هي الموقع الذي وقع عليه الاختيار لعقد اجتماع سري يضم قادة الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية، غير أن هذه المعلومة سرّبت -لسوء الحظ- فوصلت إلى منظمة سرية تسمى إلى إفساد هذه القمة.

تجد فكتوريا جونز نفسها في وسط هذه الأجواء المتوترة. إنها فتاة جريئة تحب المغامرة، ولكنها تحصل على تسدر من المغامرة يتوق كل ثورقائها حين يخط عميل سري جريح أنفاسه الأخيرة في غرفتها بالفندق!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي «بلا جدال» أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طبع منها ألفي مليون نسخة!



WWW.LIILAS.COM

الناشر وصاحبه الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال
للترجمة والنشر
C.I.P.A.

Chassey

الفصل الأول

خرج الكابتن كرومبي من المصرف بفرح امرئ صرفه شبكاً واكتشف أن لديه في حسابه مبلغاً أكبر قليلاً مما كان يظن.

وغالباً ما يبدو الكابتن كرومبي مسروراً بنفسه، فقد كان من ذلك النوع من الرجال. أما بالنسبة لجسمه فقد كان قصيراً قوي البنية، ذا وجه أحمر قليلاً وشاربه عسكري متصبب الشعيرات. كان يختال قليلاً في سيره عندما يعشي، وربما كان في ملايبه شيء قليل جداً من الزينة والألوان النافرة، وكان مغرماً بالفصص المستعة، ويحظى بشعبية بين الرجال الآخرين. وجل مرح، عادي ولكنه لطيف، وغير متزوج. ليس فيه ما يهر أو يثير الانتباه، وهناك في الشرق أكوام من أمثاله.

كان الشارع الذي خرج إليه الكابتن كرومبي يسمى شارع البنوك، لسبب وجهه جداً هو أن معظم مصارف المدينة توجد فيه. كان الجو داخل المصرف بارداً مظلماً فيه شيء من رائحة الهواء الراكد، والصوت المسيطر فيه هو صوت العدد الهائل من الطابعات التي تطلق في خلفية المشهد.

أما في شارع البنوك في الخارج فقد كان الجو مشحناً تملؤه زوايا الخبار، ويغطي فيه الضجيج الرهيب المترواح. فقد كان هناك الزرع الممتد لأبواق السيارات، وصباحات الباعة من كل جنس ولون. وثمة مشاجرات صغيرة بين مجموعات قليلة ممن يُخيل للمرء أنهم مستعدون لقتل بعضهم بعضاً، ولكن سرعان ما تراهم أصدقاء في الواقع. رجال وفتيان وأطفال كانوا يبيحون كل شيء من الأشجار إلى الحلويات والبرقوق والموز ومناشف الحمام والأمشاط والشفرات، وغير هذا من البضائع التي تُحمل بسرعة في الشوارع على الصواني. وفوق كل ذلك كان يُسمع صوت العويل الرفيع الكتيب لرجال يقرءون الحميم والخيول بين مجرى السيارات.

كانت الساعة العادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

أوقف الكابتن كروسي صياً يركض بسرعة حاملاً ملء يده من الصحف واشترى واحدة منها، ثم انعطفت عند زاوية شارع البنوك وخرج إلى شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيس في بغداد ويمتد نحواً من أربعة أميال متوازيًا مع نهر دجلة.

ألقي الكابتن كروسي نظرة سريعة على عناوين الصحيفة، ثم دسها تحت إبطه ومشى نحواً من مئتي متر، ثم انعطفت ليدخل زقاقاً صغيراً قاده إلى خان ضخم، وعند النهاية البعيدة للخان فتح باباً عليه لوحة نحاسية ليجد نفسه في مكتب هناك.

ترك موظف عراقي شاب مرتب الشكل آتته الطباعة وتقدم منه بانسامة ترحيب قائلاً: صباح الخير يا كابتن كروسي. بدلاً من أنني أن أخدمك؟

- هل السيد داكين موجود؟ حسناً، سأصعد إليه.

عبر أحد الأبواب، ثم صعد درجاً ذا انحدار حاد جداً، ثم قطع مسراً، وعند نهايته قرع باباً فجاءه صوت يقول: ادخل.

كانت الغرفة عالية السقف شبه فارغة، وكانت فيها مدفأة نفطية عليها إناء ماء، بالإضافة إلى مقعد طويل أمامه طاولة قهوة صغيرة ومكتب ضخم يال إلى حد ما. كان المصباح الكهربائي مضاء، وقد تم استبعاد ضوء النهار بحرص. وخلف المكتب البالي جلس رجل ذو وجه متعب ينقصه الحزم... وجه امرئ لم يفلح في هذه الحياة وهو يعرف ذلك ولم يعد يهتم له.

تبادل الرجلان النظرات؛ كروسي المرح الواثق بنفسه، وداكين الكتيب المرمق، وأخيراً قال داكين: مرحباً يا كروسي. هل عدت لتوك من كركوك؟

أوماً الآخر يرأسه بالإيجاب، ثم أغلق الباب خلفه بحذر. كان الباب يبدو بالياً بدور، لم يُحسن طلاءه، ولكن به صفة واحدة غير متوقعة، وهي أنه محكم الإغلاق دون فتحات أو شقوق أو فراغ في أسفله... كان -في الحقيقة- باباً كأنما للصوت.

ومع إغلاق الباب تغيرت قليلاً شخصية كل من الرجلين؛ فقد أصبح الكابتن كروسي أقل جرأة وثقة، فيما ارتخى كندا داكين أكثر من ذي قبل وأصبح سلوكه أقل ترددًا. ولو فُقد لأحد أن يكون في الغرفة مستمعاً لحديثهما لدهش وهو يكتشف أن داكين هو الذي كان في موقع السلطة.

سأل كروسي: هل توجد أية أخبار يا سيدي؟

قال داكين: "نعم"، ثم نهذه. كانت أمامه ورقة كان -لثمة- منشغلاً في فك رموزها. وقام بتفطيق حرفين آخرين ثم قال: سيتم انعقاده في بغداد.

ثم أشعل هود ثقاب وأشعل الورقة ورانها وهي تحترق. وعندما أصبحت رماداً نفخ برقي قطار الرماد وتحتتر، ثم قال: نعم، لقد استقر رأيهم على بغداد، في العشرين من الشهر القادم. وعلينا أن "نحافظ على السرية التامة".

قال كروسي بهدوء: لقد كانوا يتحدثون عن الأمر في السوق... وثلاثة أيام.

ابتسم الرجل الطويل ابتسامته الشئمة وقال: سري للغاية! لا يوجد شيء سري للغاية في الشرق، أليس كذلك يا كروسي؟

- بلى يا سيدي، ولو أردت رأيي لقلت إنها لا توجد أسرار في أي مكان. كثيراً ما لاحظت خلال الحرب أن حلفاء في لندن يعرف أكثر من القائد العام.

- ولكن الأمر لا يهم كثيراً في هذه الحالة، فإن تم ترتيب الاجتماع ليكون في بغداد فسرهم ما سيصبح الأمر معروفاً بالضرورة، وعندما تبدأ المتعة... أهني متعتنا الخاصة.

سأل كروسي بارتياح: أظن أن هذا الاجتماع يمكن أن يتم أساساً يا سيدي؟ هل ينوي الصم جو القدوم حقاً؟

بهذا القدر من قلة الاحترام كان كروسي يشير إلى رئيس قوة أوروبية عظمى! ورة داكين وهو يتأمل: ألهه ينوي الحضور هذه المرة يا كروسي. نعم، أظن ذلك. وإذا ما نجح الاجتماع... (أهني إن نجح دون عوائق)... فمئذها يمكن أن يعني ذلك إنقاذ كل شيء. لو أمكن فقط الوصول إلى تفاهم ما...

ثم توقف. ولكن كان كروسي ما يزال يبدو مشككاً قليلاً، فقد قال: وهل... أعدوني يا سيدي، هل الوصول إلى تفاهم من أي نوع مسألة ممكنة؟

- بالمعنى الذي تقصده أنت -يا كروسي- قد لا تكون مسألة ممكنة. إن كان الأمر مجرد جمع رجلين يمثلان مذهبين فكريين مختلفين جداً فربما انتهى الأمر كله كما ينتهي عادة... بزيادة في الشكوك وسوء الفهم. ولكن لدينا الآن العنصر الثالث، إن كانت قصة كارمايكل الخيالية تلك صحيحة...

ثم سكت فقال زميله: ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة يا سيدي؛ فهي شديدة الخيالية!

بقي الآخر صامتاً بضع دقائق. كان يتخيل -بكل وضوح- وجهاً جدياً قلماً، ويسمع صوتاً هادئاً يصعب تصنيفه وهو يقول أشياء خيالية لا تصدق. كان يقول لنفسه كما قال وقتها: "إما أن يكون أفضل رجائي وأكثرهم مصداقية قد فقد عقله، أو أن يكون هذا الأمر صحيحاً".

قال بتس بصوته الرفيع الكتيب: إن كارمايكل يؤمن بأن الأمر صحيح. كل ما استطاع العثور عليه أكد فرضيته، وقد أراد الذهاب إلى هناك ليكشف المزيد... ليحصل على دليل. لا أدري إن كنت قد

تبن فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني. لاحظ أنهم جميعاً متقاربون في الصفات العامة الطول والوزن والشعر والنية... كلها قريبة من صفات كارمايكل. إنهم لا يريدون أي مجازفات. لقد خرجوا للفضاء عنه، وبمجرد أن يصبح في العراق سيكون الخطر عليه أشد أهدأ. يستاني في السفارة... خادم في القنصلية... موظف في المطار... في الجمارك... في محطات القطارات... كل الفنادق مراقبة... طرق أمني مشدود بكل إحكام.

رفع كروسي حاجبيه وقال: أنظن أن أمرهم اتسع إلى هذا الحد يا سيدي؟

- ليس عندي أي شك في ذلك. حتى في مصكروا توجد محطات تسريب المعلومات، وهذا أسوأ ما في الأمر. كيف لي أن أتأكد من أن الإجراءات التي نضعها من أجل إيصال كارمايكل سالماً إلى بغداد ليست معروفة أصلاً من قبل الجانب الآخر؟ إن إحدى القواعد الأساسية لهذه اللعبة - كما تعلم - هي أن تشتري كل جهة شخصاً محسوباً على الجهة الأخرى وتدفع له المال.

- هل يوجد أحد... تشبه فيه؟

هز دكين رأسه ببطء نافية، فتهند كروسي وقال: وهل نواصل عملنا في هذه الأثناء؟

- نعم.

- ماذا عن كروغن لي؟

- تمت الموافقة على حضوره إلى بغداد.

تصرفت بحكمة أو غير ذلك عندما تركته يذهب. فإذا لم يعد، فإن يوجد ما يمكن الاستناد عليه إلا روايتي أنا عما قاله لي كارمايكل، وهي - بدورها - قصة قالها أحدهم له. هل يكفي هذا؟ لا أنظر ذلك. إنها - كما قلت - قصة خيالية جداً، ولكن إن جاء الرجل نفسه إلى هنا، إلى بغداد، في العشرين من الشهر القادم... ليحكى قصته الخاصة، قصة شاهد عيان، ولكي يقدم دليلاً...

قال كروسي بعدة: دليلاً؟!

أوماً الآخر برأسه وقال: نعم، لديه دليل.

كيف؟ فت؟

- الصيغة المتفق عليها. جاءت الرسالة من صلاح حسن.

ثم انقطع من الرسالة بحدو ما يلي: «جمل أبيض محمل بالشوفان مائي عبر البحر الجبلي». وتوقف قليلاً ثم مضى قائلاً: وهكذا فقد حصل كارمايكل على ما ذهب من أجله، ولكنه لم ينتج دون أن تحيط به الشكوك. إنهم يسعون في أعقابهم، وأي طريق يسلكه سيكون مراقباً، والأخطر من ذلك بكثير أنهم سيكونون بانتظاره... هنا في البداية على الحدود، وإن نجح في عبور الحدود فسوف يُضرب طرق حول السفارات والقنصليات. انظر إلى هذه.

بحث بين أوراقه، ثم أخرج ورقة وقرأ بصوت عالٍ: «إنكليزي مسافر سيارته من إيران إلى العراق أطلقت عليه النار وقتل، ويُتعرض أن ذلك من عمل قطاع الطرق... تاجر كردي نزل من الجبال مسافراً جنوباً يُسب له كمين وقتل... كردي آخر اسمه عيد الحسن يُسب بأنه مهرب دخان قتل الشرطة... العثور في طريق راوندوز على جثة رجل

- الجميع قادمون إلى بغداد. حتى العم جو قادم كما تقول
يا سيدتي، ولكن إن حدث أي شيء للرئيس أثناء وجوده هنا فستشمل
حرائق الانتقام.

- ينبغي أن لا يحدث شيء. هذا هو دورنا... أن نمنع حدوث
أي شيء.

عندما ذهب كروسيبي اتحنى دافين فوق مكتبه، وتضمن بين
أسنانه: لقد جاؤوا إلى بغداد...

وعلى رزمة ورق المسودات أمامه رسم دائرة وكتب تحتها:
«بغداد»، ثم أخذ ينقط تحتها ليرسم جبالاً، وطائرة، وباخرة،
وقطاراً صغيراً ينفخ دخانه... وكل ذلك ينتجه نحو اللقطة. ثم رسم
في زاوية الورقة شبكة عنكبوت، وفي وسط شبكة العنكبوت كتب
اسماً: «آنا شيل»، وتحت ذلك وضع علامة استفهام كبرى.

بعد ذلك أخذ قيمته وغادر المكتب. وفيما هو يمشي في شارع
الرشيد سأل رجل ما صاحبه: مَنْ هو هذا الرجل؟

- ذاك؟ آه، إنه دافين. إنه يعمل في إحدى شركات النفط،
وهو رجل لطيف ولكنه لم ينجح أبداً، فهو خامل جداً، ويقولون إنه
يشرب الخمر. لن ينجح أبداً. لا بد أن تكون متحمساً طموحاً حتى
تنجح في هذه المنطقة من العالم.

• • •

- هل حصلت على التقارير الخاصة بعقارات كروشنهورف
يا آنسة شيل؟

- نعم يا سيد مورغانثال.

وضعت الآنسة شيل الهداة القديرة الورقة أمام رئيسها، مهمم
وهو يقرأ ثم قال: هذا مقنع كما أظن.

- أظنه كذلك بالتأكيد يا سيد مورغانثال.

- هل سوارتز هنا؟

- إنه ينتظر في المكتب الخارجي.

- أرسله لي على الفور.

ضغطت الآنسة شيل على جرس... كان واحداً من ستة
أجراس، ثم قالت: هل ستحتاجني يا سيد مورغانثال؟

- لا، لا أظن ذلك يا آنسة شيل.

انسلت أنا شيل من الغرفة بهدوء. كانت شقراء ذات شعر
بلاطيني، ولكنها لم تكن شقراء ساحرة الجمال. كان شعرها الكتاني
الباهت مُسرحاً مباشرة من جبينها إلى الخلف ليجتمع في لفافة مرتبة
عند عنقها، وكانت عيناها الزرقاوان الفاتحتان الذكيان تنظرون إلى
العالم من خلف نظارة سمكة. أما وجهها فكان ذا قسماث دقيقة
متناسقة، ولكنه يفترق لأي تعبير. لم تعتمد في شئ طريقها في هذا
العالم على فتتها. بل على كفاءتها المحددة؛ فبمقدورها أن تحفظ
شيئاً أي شيء مهما كان معقداً، وتستذكر الأسماء والتواريخ دون

العودة إلى دفتر ملاحظات، وكان بوسمها تنظيم ممالك مكتب كبير بطريقة تجعله يحمل كالة أحسن نزييتها، وهي رمز لتكنم والمحافظة على الأسرار. ورغم أن طاقتها كانت منظمة منضبطة، إلا أنها طاعة لم تفت أبداً.

وقد كان أوتو مورغانثال، رئيس شركة مورغانثال ويراون وشبيرك (وهي شركة مراقبة عالمية)، يدرك تماماً أن ما يدين به لأنا شيل كان أكبر مما يستطيع المال تسديده. فقد وثق بها كل الثقة، وكانت ذاكرتها، وخبرتها، وأحكامها، وعقلها البارد المتزن... كل ذلك كان لا يُقدَّر بشئ. وقد دفع لها راتباً ضخماً، وكان من شأنه أن يزيده ضخامة لو طلبت ذلك.

ولم تقتصر معرفتها على عمله، بل تعدت ذلك إلى تفاصيل حياته الخاصة. وعندما استشارها بخصوص قضية زوجته الثانية نصحته بالطلاق، واقرحت عليه المبلغ الدقيق للنفقة التي يدفعها لزوجته. لم تُظهر شفقة أو فضولاً، فما كان ليصفها بأنها من ذلك النوع. لم يكن ليظن أن لها أية مشاعر، ولم يخطر له أبداً أن يتساءل عما تفكر به، بل إن كان سيدهش لو قيل له إن لها أي أفكار أخرى غير تلك المتعلقة بالشركة وبمشكلات أوتو مورغانثال.

ولذلك كله فقد دهش تماماً عندما سمعها تقول وهي تنهيا لمغادرة مكتبه: أودع بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع إن كان ذلك ممكناً يا سيد مورغانثال، بدءاً من الثلاثاء المقبل.

قال وهو يحدف إليها: سيكون ذلك مريباً... مريباً جداً.

- لا أظن أن ذلك سيكون صعباً جداً يا سيد مورغانثال؟

فالآنسة وابتغيت قادرة تماماً على التعامل مع الأمور. سأترك لها دفتر ملاحظاتي مع تعليمات كاملة، ووسع السيد كورنول أن يعنى بصليته اندماج شركة آرثر.

سأل وهو ما زال متململاً: أرجو أن لا يكون ذلك لمرض أو عارض ما؟

إنه لا يستطيع تخيل الآنسة شيل مريضة. حتى الجراثيم تحترم أنا شيل وتباعد عن طريقها.

- آه، لا يا سيد مورغانثال، أريد الذهاب إلى لندن لرؤية أختي هناك.

- أختك؟

لم يكن يعرف إن لها أختاً. لم يكن قد تخيل أن للآنسة شيل أية عائلة أو أصدقاء، فهي لم تذكر شيئاً من ذلك. وما هي الآن تنبهر إلى أخت لها في لندن! لقد كانت معه في لندن في الخريف الماضي، ولكنها لم تُشر أبداً - وقتها - إلى أن لها أختاً.

قال ينهي من المشاعر المجروعة: لم أعرف أبداً أن لك أختاً في إنكلترا؟

ابتسمت الآنسة شيل ابتسامة ياهنت جداً وقالت: آه، بلى يا سيد مورغانثال. وهي متزوجة برجل إنكليزي ذي صلة بالمتحف البريطاني. من الضروري لها أن تخضع لعملية جراحية شديدة الخطورة، وهي تريدني أن أكون معها، وأنا أودع بالذهاب.

رأى أوتو مورغانثال أن خلاصة القول هي أنها قد حازت أسرها على الذهاب، فقال متذمراً: حسناً، حسناً، ولكن عودي في أقرب وقت ممكن. إنني لم أر السوق متذبذباً أبداً بهذا الشكل من قبل. هذه الشيوعية القدرة! يمكن أن تندلع الحرب في أية لحظة، وأكاد أحس - أحياناً - بأنها الحل الوحيد. البلد كله مشغول بها... مشغول بها تماماً، والرئيس مصمم الآن على الذهاب إلى هذا المؤتمر التيسري في بغداد. إنه شرك خادع برأيي؛ فهم يسعون جاهدين للتبليغ منه. بغداد... من بين كل الأماكن الغريبة المستهجنة!

قالت الأنسة شيل على سبيل التهدة: آه، أنا واثقة أنه سيحظى بحماية ممتازة.

قال السيد مورغانثال: "ألم يقتلوا شاه إيران في العام الماضي؟ كما قتلوا برنادوت في فلسطين. إنه جنون... هذه هي حقيقة الأمر؛ جنون". ثم أضاف بحزن: ولكن لا غرابة؛ فالعالم كله مجنون!

• • •

الفصل الثاني

جلست فيكتوريا جوتز معكوة المزاج على مقعد في حدائق فيترجيمس. كانت غارقة تماماً في التأمل... بل يكاد المرء يقول إنها غارقة في المحاكمات الأخلاقية المتعلقة بالمساوي الكاسية في استخدام المرء لمواهبه الخاصة في الوقت غير المناسب.

كانت فيكتوريا مثل الكثيرين من فئة ذات محاسن ومساوي. فأما في جانب المحاسن فقد كانت كريمة ودودة شجاعة، وربما أمكن اعتبار ميلها الطبيعي للمناصرة ميزة يمكن تصنيفها في أي من جانبي المحاسن أو المساوي في هذا الزمن الذي يضع اعتباراً عالياً للأمن. أما عيوبها الأساسية فكان ميلها للكذب في اللحظات المناسبة وغير المناسبة على حد سواء، وكان ولعها الدائم الهائل بالخيال على حساب الحقيقة ولما لا يمكنها مقاومة. كانت تكذب بطلاقة وبسهولة وبعباسية، ولئن تأخرت فيكتوريا عن موعد (وهو ما كان يحدث غالباً) فلن تكنتي بأن تستم بدور عن توقف ساعتي (الذي كان فعلاً كثير الحدوث) أو بعذر عن حافلة تأخرت على غير عادتها، بل كانت تفضل تقديم التفسير الكاذب القائل إن ما أخرها كان فيلاً هارباً من حديقة الحيوان تمدد في الطريق الذي تسلكه الحافلة، أو حادثة سطو

خاطفة لعبت هي فيها دوراً في مساعدة الشرطة .. فالتألم المضول بالنسبة لفكتوريا سيكون ذلك التألم الذي تكمن فيه النور في ساحة ستراند ويملاً فيه رجال المصائب المظفرون شوارع المدينة!

وكانت فكتوريا فتاة نحيلة ذات جسم مقبول، ولكن كان يمكن -مبلياً- وصف ملامحها بأنها فيعبة، فقد كانت ملامح صغيرة ومرتبنة، ولكن كان فيها شيء من الحدة اللاسعة، إذ كان «وجهها المطاطي» -كما وصفه أحد المحبين بها- قادراً على نوي تلك الملامح الساكنة في تقليد ساخر لا يكاد أحد ينحرم منه.

وقد كانت موهبتها الأخيرة هذه هي التي قادتها إلى موقفها الحالي الصعب؛ فقد كانت فكتوريا طابعة عند السيد غرينهولتز، مدير شركة غرينهولتز وسامئز في شارع غريزهولم غربي لندن. وقد كانت تحاول «قتل وقت» صباح ممل، وذلك بالترفيه عن زميلاتها الطابعات الثلاث وصبي المكتب، عن طريق تقديم عرضي حي تؤدي فيه فكتوريا دور زوجة السيد غرينهولتز وقد جاءت لزيارة زوجها في مكتبه. وقد أطلقت فكتوريا العنان لنفسها بعد أن اطمانت إلى أن السيد غرينهولتز قد ذهب إلى محاميه. صاحبت بصوت عالٍ متعجب: لماذا تقول إننا لن نشري تلك الأريكة القمصة يا دادي؟ لقد اشترت السيدة ديفنكس واحدة منجدة بالسنان الأزرق. تقول إن المال بفضحك؟ فلماذا -إذن- اصطبحت تلك الفتاة الشفراء إلى العشاء والرفص؟ إيه! أظن أنني لا أعلم؟ فإذا أخذت أنت تلك الفتاة، فلأني -بالمقابل- اشتريت أريكة منجدة على أجمل طراز ومعهما الطنافس والوسائد الذهبية. وعندما تقول إنه لم يكن إلا عشاء عمل فإنك تكون مغفلاً جداً... نعم، وأنا نبي وأحمر الشفاء على فضحك!

ولذلك اشترت الأريكة، وطلبت معطف فراء جميلاً جداً يشبه فروه فرو المئك، ولكنه ليس فرو المئك فعلاً، وقد اشترته بشئ رخيص، وكان صفقة جيدة...

كان مستعموها -في البداية- مسحورين بتقليدها الساخر، ولكنهم انخرطوا الآن فجأة بالعمل، مما جعل فكتوريا تتوقف وتنتف إلى حيث كان السيد غرينهولتز واقفاً عند مدخل الباب براقبها. وعندما لم تجد شيئاً مناسباً تقوله اكتفت بالقول: آه!

ودمد السيد غرينهولتز، ثم نزع معطفه بقوة وتقدم إلى مكتبه الداخلي حيث صفق الباب بقوة خلفه، وعلى القور -تقريباً- رث جرسه رنين قصيرتين ورنه طويلة، وكان ذلك استدعاء لفكتوريا.

قالت إحدى صاحباتها بشكل لا داعي له: «هذا الجرس لك يا فكتوريا»، ثم التمت عيناها بالفرح الذي يأتي من مصائب الآخرين. وقد ساهمت بقية الطابعات في هذا الشعور بأن علنن قائلات: «لقد وقعت يا فكتوريا» و«لقد نلت حقاً ساخناً!...» أما صبي المكتب، وهو طفل كره، فقد اكتفى بأن مرور سباته أمام حنجرتة موحياً بالذبح ومطلقاً صوتاً منذراً بشر مستطير.

أخذت فكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلم الرصاص وضمت إلى مكتب السيد غرينهولتز بكل ما يمكنها استجماعه من لغة، وعندما دخلت عليه تسمت وهي تركز عليه نظرة صافية شفافة: لقد طلبتي يا سيدي؟

كان السيد غرينهولتز بختش بثلاث ورقات من فة الجنبه ويبحث في جيوبه عن قطع نقد معدنية أخرى، وقد قال لها: ها أنت

قال السيد غرينهولتز: ولكن دون كثير من القناعة: يمكنني إرسال باقي المخطيع إليك لاحقاً.

- لا تزعج نفسك. ولكن ماذا من تزويدي بكتاب تركية؟

عاد الغضب إلى السيد غرينهولتز وسأل بحق: ولماذا يتعين علي إعطائك كتاب تركية؟

- هذا هو الإجراء المعتاد.

سحب السيد غرينهولتز ورقة وكتب عليها بضعة أسطر على حدة ثم منها: إليها وقال: هل يكفيك هذا؟

لقد عملت الآتية جونز معي لمدة شهرين كطابعة اختزال، ولتحتالها مني بالأخطاء، وهي لا تحسن التهجئة. وقد تم إنهاء خدمتها بسبب تضييعها للوقت أثناء ساعات العمل.

كشرت فكتوريا وقالت: لا تكاد هذه تكون تركية!

- ثم يكن المقصود أن تكون كذلك.

- أظن أن عليك القول: على الأقل - إنني نزيهة ومترنة ومعترفة! فأنا كذلك بالنسبة، وربما أمكنك أن تصيب أنني كتومة.

صاح السيد غرينهولتز: كتومة؟

قابلت فكتوريا نظراته بنظرة بريئة وقالت بهدوء: كتومة.

تذكر السيد غرينهولتز العديد من الرسائل التي أملاها على

ذي إذن. لقد تحملت منك ما يكفي أيها الشدية. هل ترين أي سبب خاص يمنعني من أن أدفع لك أجر أسرع يدل الإلتعاز وأطردك في هذه اللحظة؟

كانت فكتوريا (التيمة الأيون) قد فتحت فيها لثرتها لتشرح كيف أن محنة أمها التي نامي - في هذه اللحظة - من حيلة جراحية كبرى قد أثرت على معنوياتها إلى الحد الذي جعلها خفيفة العقل تماماً، وكيف أن راتبها هو كل ما تعتمد عليه الأم المذكورة، ولكنها عادت وأغلقت فيها وغيرت رأيها بعد أن نظرت نظرة أولية إلى وجه السيد غرينهولتز السقيم.

وبدلاً من ذلك قالت بكل انطلاقة وعذوبة: إنني أنفق معك كل الاتفاق. أعتقد أنك حق تماماً، إن كنت تفهم ما أعنيه.

بدا وكأن السيد غرينهولتز قد فوجئ قليلاً؛ إذ لم يكن معتاداً على تعامل الناس مع حالات الطرد يمثل هذه الروحانية الراضية المبهتة، ولكني يخفي مسحة عدم الارتياح قام بترتيب مجموعة من الأفراد المعدنية على المكتب أمامه. ثم أخذ يبحث مجدداً في جيوبه وتمتم بنكد: بنفس المبلغ تسعة بنات.

قالت فكتوريا بملطف: لا تهتم لذلك. اذهب بها إلى السينما أو اشتر لنفسك بها بعض الحلويات.

- كما لا يبدو أن لدي أية طوابع أيضاً.

- لا يهم! إنني لا أكتب رسائل أبداً.

فكتوريا وطبعتها، فقرر أن الرائي قبل شجعة الشجعان. سحب الورقة
بمزق ومزقها وكتب رسالة جديدة:

لقد عملت الأسنة جونز معي لمدة شهرين كطابعة اختزال،
وهي نفاذ العمل نتيجة الفالض في بلاك المكسب.

- كيف تجدني هذه؟

- كان بالإمكان أن تكون أفضل، ولكنها تفي بالغرض.

• • •

كان ذلك - إذن - هو موضوع تأملات فكتوريا حين جلست
وفي حقيبتها راتب أسبوع (لأ تسعة بنسات) على مقعد في حديقة
فيتزجيمس التي كانت قطعة مستطيلة من الخضرة تحيط بها الأشجار
ويطل عليها مخزن عالي البناء.

كان من عادة فكتوريا في كل يوم لا مطر فيه أن تشتري شطيرة
جبن بالخض والبندورة من أحد الأكشاك، وأن تأكل ذلك الغداء
البسيط في هذا الجو شبه الريفي. واليوم، وهي تقضم وجبتها متأمة،
كانت تقول لنفسها - مرة أخرى - إن لديها وقتاً ومكاناً لكل أمر...
وإن المكتب لم يكن المكان المناسب لتقليد زوجة رب العمل. إن
عليها في المستقبل أن تكبح تلك الحيرة الطبيعية التي قادتها إلى
محاولة إضفاء الحياة والهجة على وظيفة مملة، وفي هذه الأثناء
ستكون متحررة من تلك المؤسسة التي كانت تعمل بها، وقد ملاحا
توقع الحصول على عمل في مكان آخر بإحساس لذيذ من الترقب.

لقد كانت فكتوريا غرح دائماً عندما تكون على وشك تولي وظيفة
جديدة. وكانت تشعر دوماً بأن المرأة لا بدري أبداً ما الذي يمكن
أن يحدث من أمور.

وذهت آخر ما تبقي لديها من ثبات البخير على ثلاثة من مصافير
الدوري البقطة التي راحت تتصارع فوراً بجمعية على ذلك الفئات،
وما أن أكملت توزيع الفئات حتى انتهت لوجود شاب يجلس على
الطرف الآخر من المقعد. كانت فكتوريا قد انتهت لوجوده بشكل
مبهم أصلاً، ولكنها لم تكن قد لاحظته عن كتب حتى الآن، فقد
كان عقلها مثقلاً بالحلل المستقبلية الجديدة. وقد أعجبها ما لاحظته
الآن من الشباب (وكن يزاوية عينها فقط)، فقد كان شاباً وسماً أشقر
ذا ذقن يوحى بالحزم وعينين شديتتي الزرقة تحلل إليها أنهما كانتا
تراقبانه منذ بعض الوقت بإعجاب غطي.

لم يكن لدى فكتوريا كوابح تمنعها من مصادقة شباب غرباء في
أماكن عامة. فقد كانت تعتبر نفسها خجماً متنازلاً على الشخصيات
وقادرة تماماً على كبح أي تعبير غزلي وقع من جانب الرجال.

انتمست له بشكل مكشوف، فاستجاب الشاب (مثل دمية
متحركة جذب المرأة عبرطها) قائلاً: مرحباً، هذا مكان رائع. هل
تأتين دوماً إلى هنا؟

- كل يوم تقريباً.

- لم يسمعتني حظي في المجيء إلى هنا أبداً من قبل. أكان
ذلك الذي أكتبه هو غداك؟

- نعم.

قال إدوارد باهتمام يوحى بالناطقة: يمكنك إلحاق اسم آخر

مع اسم جونز.

- مثل يدفورد جونز.

- أو كريسبروك جونز.

- أو سينت كلير جونز.

- أو لونسديل جونز.

لم يقطع هذه اللزمة السلبية إلا نظر إدوارد إلى ساعته، حيث
هتف فجأة برص: ينبغي أن أخرج عائداً إلى مديري النكد. هم...
وماذا عك أنت؟

- لقد تركت عملي؛ طردت هذا العيب.

قال إدوارد باهتمام حقيقي: آه، إنني أسف لذلك.

- لا تتدد عواطفك، فأنا غير أسفة أبداً على ذلك. وهذا السبب
واحد؛ وهو أنني سأحصل على عمل آخر بسهولة، وفوق ذلك فقد
كان الأمر ممتازاً حقاً.

ثم فغمت بتأخير إدوارد أكثر بأن سردت له وصفاً جلياً للشهد
الضبابي الذي جرى معها، معيدة تمثيل شخصية السيدة هرينهولتر
وإدوارد يصغي وهو بخافة الاستماع. وأخيراً قال: أنت رائعة حقاً
يا فكتوريا. ينبغي أن تكوني مثلة.

تقبلت فكتوريا هذا الإطراء بابتسامة سعيدة وقالت إن من

- لا أحسبك أكث ما يُسبك. كنت سأقفور جوعاً لو لم أكل
شيئاً سوى ما أكلت. ما رايت بالذهاب لتناول السجق في مطعم في
شارع توتنهام كورت؟

- لا، شكراً. لقد أكلت، ولا أستطيع تناول المزيد الآن.

توقعت منه أن يقول: "هل نذهب في يوم آخر؟"، ولكنه لم يقل
ذلك، بل اكتفى بأن نهذه ثم قال: اسمي إدوارد، ما هو اسمك؟

- فكتوريا.

- ولماذا أسمائك أهلك على اسم محطة القطارات؟

- ليست فكتوريا محطة قطارات فحسب؛ إذ توجد الملكة
فكتوريا أيضاً.

- ممم، نعم. ما هو اسم عائلتك؟

- جونز.

قال إدوارد محاولاً تجربة الاسم على لسانه: فكتوريا جونز...
الاسمان غير متناسبين.

أجابته فكتوريا بصراحة: أنت محق تماماً. لو كان اسمي جيني
لكان ذلك رائعاً... جيني جونز. ولكن اسم فكتوريا يحتاج إلى اسم
آخر يوحى بالطبقات العليا. فكتوريا ساكفيل وست مثلاً... هذا
ما يحتاجه المرء؛ شيء يملأ نطقه الفم.

الأفضل لإدوارد أن يركض إلى عمله إن كان لا يرغب بأن يُعزّذ هو الآخر.

قال: "نعم... ولن أكون قادراً على الحصول على وظيفة جديدة بنفس السهولة التي ذكرتها". ثم قال وفي صوته شيء من الحسد: لا يد أن من الرائع أن يكون المرء طابع اعتزال جيداً.

اعترفت فكتوريا بصراحة قائلة: أنا لست طابعاً اعتزال جيدة في الواقع، ولكن من حسن الحظ أن أسوأ طابعات الاعتزال يمكنهن الحصول على عمل في هذه الأيام. إنهن يحصلن - على الأقل - على عمل في التعليم أو في المؤسسات الخيرية؛ فهذهان المجالان لا يسمحهما دفع رواتب عالية، ولذلك فهما يأخذان موطقات من أمثالي. إنني أفضل تلك الوظائف التي تكون مع المؤسسات عالية الثقافة، فتلك الأسماء والمعارف العلمية عظيمة إلى الحد الذي لا يشعر المرء معه بالهيجل حقاً من عدم معرفته بتعجتها... لأن أحداً لا يعرف تعجتها أصلاً! ما هو عملك؟ أحسب أنك تخرج من الخدمة العسكرية، هل كنت في القوة الحربية البلجيكية؟

- نخمين جيد.

- أكنت طياراً مقاتلاً؟

- صحيح مرة أخرى. لقد كانوا منصفين جداً معنا هناك، ولكن المشكلة أننا لسا على تلك الدرجة من الذكاء... أعني أن المرء لم يكن بحاجة لأن يكون ذكياً في القوة الجوية. لقد وضعوني في مكتب فيه الكثير من الملفات والأرقام، ويتطلب الكثير من التفكير، فما

كان متي إلا أن انهزت. وقد بدا وكأن كل شيء كان دون أي هدف على أية حال. ولكن هذا هو الموجود. إن مما يشيط المعنويات قليلاً إن يدرك المرء أنه لا يُحسن شيئاً أبداً.

أومأت فكتوريا برأسها متعاطفة، ونابح إدوارد يقول بمرارة: لم نعد على علاقة بالواقع ولا اطلاع لنا على ما يحدث من أمور أبداً. كان الأمر على ما يرام أثناء الحرب، حيث كان بوسع المرء أن يقوم بواجبه رغم كل الصعوبات. لقد حصلت على وسام الطيران مثلاً... أما الآن فربما كان بوسعي اعتبار نفسي شخصاً لا يقدم ولا يؤخر.

- ولكن لا بد أن يوجد...

لم توقفت في وسط جمعتها وقد شعرت بأنها غير قادرة على أن تصوغ - في كلمات - فتاعتها بأن تلك الخصائص التي جلبت لأصحابها أوسمة الشجاعة وتتميز لا بد أن يكون لها موقعها في مكان ما من عالم سنة ١٩٥٠.

قال إدوارد: لقد شط متي - بعض الشيء - أن لا أكون نافعاً مفيداً في أي مجال. الأفضل أن أسرع بالذهاب. أقول... هل تصابرين... أعني هل سيكون من الواقعة الشديدة أن... أن أطلب منك...

وغياً فتحت فكتوريا عينين دهشيتين وهي تدمدم وتحمر عجباً أخرج إدوارد آلة تصوير صغيرة وقال: أحب كثيراً أن أخذك صورة؛ فأت مسافر غداً إلى بتداد.

هفت فكتوريا بخیه أمل محبة: إلى بغداد؟؟

- نعم، وأنا أتمنى لو لم أكن ذاهباً... الآن. مع أنني كنت متحسباً تماماً لهذه السفرة صباح اليوم؛ وهذا هو السبب في قبولي بهذه الوظيفة في الواقع... لكي أخرج من هذا البلد.

- ما نوع هذه الوظيفة؟

- وظيفة فظيعة تماماً. ثقافت، وشعر، وما إلى ذلك. رئيسي اسمه الدكتور رايتون. تمتد قائمة من الألقاب خلف اسمه، وهو ينظر إليك بعاطفة مفرطة من خلال نظارته. إنه حريص جداً على السمعة ورفضه الأخلاق وعلى نشر ذلك جهد استطاعته، ولذلك فهو يفتح مكتبات في أماكن بعيدة... ويريد افتتاح مكتبة في بغداد الآن. لقد أشرف على ترجمة أعمال شكسبير وملتون إلى العربية والكردية والفارسية والأرمنية، وهو ما أراه أمراً سخيفاً؛ لأن المجلس الثقافي البريطاني يقوم بنفس المهام تقريباً في كل تلك المناطق. ومع ذلك، فهذا هو الواقع. هذا يوفر لي وظيفة، ولذلك عليّ أن لا أذمر.

- ما هي طبيعة العمل الفعلية؟

- إنه لا يبدو أن يكون بمثابة خدام مطوّاح للرجل في نهاية المطاف. أشترى البطاقات، وأجري الحجوزات، وأملأ استمارات جوازات السفر، وأتأكد من حزم كل تلك الكتب الشعرية الفظيعة وأرخص من هنا إلى هناك. وبمدها، عندما تصل إلى هناك يفتخر بي أن أقيم صداقات... شيء أشبه بتشجيع الحركات الثبائية المجيدة والثناء للأمم كلها في نوجه واحد من أجل الرقعة والسمو.

كانت نبرة إدوارد تزداد كآبة باهطاراً، ثم قال: إنه عمل كرهه جداً بصراحة. أليس كذلك؟

لم تكن فكتوريا فادرة على تقديم الكثير من العزاء. ومضى إدوارد قائلاً: ولذلك إن لم يكن لديك مانع من تصويري لك؟ صورة جانبية وصورة وأنت تنظرين مباشرة إليّ. نعم، هذا رائع.

طفقت آلة التصوير مرّتين وأظهرت فكتوريا ذلك الرضا الذي نظره شبة أدركت أنها نالت إصجاب رجل.

قال إدوارد: ولكن من المؤسف حقاً أن أضطر إلى المفارقة بعد ما قابلتك. إنني نصف عاجز على التخلي عن هذه الرحلة. ولكن أحسب من غير الممكن أن أفعل ذلك في اللحظة الأخيرة... ليس بعد كل ثلث الاستمارات الكريهة والتأشيرات وغير ذلك. لن يكون ذلك تصرفاً لائقاً، أليس كذلك؟

قالت فكتوريا معذرة: قد لا يكون الأمر على تلك الدرجة التي نقتضا من سوء.

أجبتها إدوارد بارتباب: نه. نعم. الأمر الغريب هو أنني أحس بأن في هذه المسألة شيئاً مريباً في مكان ما.

- شيئاً مريباً؟

- نعم؛ شيء زائف ما. لا نسألني لماذا، فليس لدي أي سبب. إنه من تلك المشاعر التي تناب المرء أحياناً. انتابني مرة نفس الشعور إزاء زيت المحرك الأيسر في طائرتي، فبدأت أبحث

وفت ساعة الكسبة القريبة فغضب إدوارد: أه، يا إلهي! يجب أن أغير كاتريش.

ثم هو ليخص في قلب لندن أما فكتوريا - التي تخلفت وراءه على المنعد غارقة في تأملاتها - فقد شعرت أنها وإدوارد قد - إلى حد ما - في موقف يشبه موقف روميو وجولييت. لقد، فالحذاب موزي صحران وإحباط! قلبان متجان يفرق بينهما.

نهضت فكتوريا أخيراً وهي تنفض ذات الحيز عن جملها، ثم مشيت سريعاً خارجة من حديقة فيترحيس باتجاه شارع غاور. كانت قد توجهت إلى فرانكس: أولهما هو أنها (ملكها موقع ليهوليت) قد أحببت هذا الشاب وتريد الفوز به. أما القرار الثاني الذي أخذه فكتوريا فكان يقول: بما أن إدوارد سيكون قريباً في بغداد، فليس آمنها إلا أن تذهب إلى بغداد أيضاً. وكان الأمر الذي يشغل بالها الآن هو كيفية تحقيق ذلك. ولم يراودها شك في إمكانية تحقيق ذلك بشكل أو بآخر. فقد كانت شابة متفائلة قوية الشخصية.

قالت لنفسها: لا بد لي من السفر إلى بغداد بطريقة ما!

• • •

وأنتش. وبالفعل كانت هناك حلقة معينة عاتقة في المغير الاحباطي لساعة المنفعة.

كانت اللغة الفنية التي تحدث بها غير مفهومة أبداً بالنسبة لفكتوريا، ولكنها فهمت الفكرة العامة. قالت: أنتظمت متجلاً وانفأ. أقصد السيد رايتون؟

"لا أرى كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني أنه محترق جداً ومتفقد، وينتمي إلى تلك الجماعات الفكرية. وتربطه علاقة وثيقة بكبار رجال العلم وعمداء الكليات. لا، إنه مجرد شعور حسن، حين الزمن ذلك، ولكن حتى ذلك الحين، نطقت أسمى لو كنت كلمة معنا أيضاً."

- وكذلك أنا.

- ما الذي ستفعله؟

أجابت فكتوريا بتجهج: سأذهب إلى وكالة غيلديوك في شارع غاور وأبحث عن وظيفة أخرى.

- وداعاً يا فكتوريا.

• وداعاً يا إدوارد، أتمنى لك حظاً موفقاً.

- لا أحسب أنك ستفكرين بي أبداً مرة أخرى.

- بلى، سأفكر.

- إنك تختلفين كل الاختلاف عن أبة فناء مرخصاً من قبل كنت أتمنى فقط.

على مرمى النظر. وعندما توقفت السيارة أمام الإشارات الضوئية
 عند متحف ساحة ترافلفار نظر الرجل الذي استقل السيارة الثانية
 من النافذة اليسرى وأشار يده إشارة خفيفة، فاستغل محرك سيارة
 حاصه كانت تقف في الشارع الجاني عند فوس الأدميرالية وانطلقت
 إلى الشارع خلف سيارة الأجرة الثانية.

الفصل الثالث

استوقف السير من جديد، وفيما سلكت سيارة الأجرة التي
 تسبقها أنا شيل الطريق المتجه يساراً إلى شارع بول مول، انعطفت
 السيارة الأخرى التي نقل الرجل الأسمر يساراً، مستمرة في الانعطاف
 حول ساحة ترافلفار. كانت السيارة الخاصة (وهي رمادية من نوع
 ستاندر) قد أصبحت الآن قريبة من سيارة أنا شيل، وكان فيها
 شخصان، شاب فيض البشرة جامد النظرة خلف عجلة القيادة،
 وشبه أليفة الشباب إلى جانبه. تبعت سيارة ستاندر سيارة أنا
 شيل في ميكانديلي، ثم في شارع بوند، وهناك توقفت لحظة قرب
 الرصيف حيث خرجت منها الشابة وقالت بمرح وبصورة تقليدية:
 شكر، جزيلاً لك.

مضت السيارة، ومشت الشابة في الشارع نظراً - بين حين
 وآخر - إلى واجهات المحلات. توقف سير السيارات عند أحد
 الحواجز، وتجاوزت الشابة سيارة ستاندر التي كانت تلتها وسيارة
 أنا شيل معاً، حتى وصلت إلى محل كارتيه ودخلته.

دعمت أنا شيل الأجرة للسائق ودخلت محل المحلي بدورها،
 وهناك قضت بعض الوقت وهي تنظر إلى قطع مختلفة من المحلي،
 وفي النهاية اختارت خاتماً من اليافوت الأزرق والألماس، ثم كتبت

وحب فندق الساغوي بالآنة أنا شيل بكل العناية التي يبديها
 الفندق بزيون قديم بالغ الأهمية، فقد سأل الفاتمون على الفندق
 عن صحة السيد مورغانثال وأكدوا أن ما عليها سوى أن تخبرهم
 إذا لم يعجبها الجناح الذي خصصوه لها... ذلك أن أنا شيل كانت
 تمثل الدولار.

بدلت الأنسة شيل ملابسها وأجرت اتصالاً هاتفياً مع رقم في
 منطقة كينسينغتن، ثم استقلت المصعد إلى الطابق السفلي لتخرج
 من خلال الباب الدوار وتطلب سيارة أجرة. أتت السيارة فاستقلتها
 وأمرتها بالتوجه إلى محل كارتيه المحلي في شارع بوند.

وفيما خرجت سيارة الأجرة من مدخل الساغوي إلى شارع
 ستراند نظر إلى ساعته - فجاء - رجل أسمر شيل الجسم كان يقف
 ناظراً إلى واجهات المحلات. ثم لزم سيارة أجرة كانت تمر قريباً
 منه لحسن الحظ بعد أن غفلت تماماً قبل لحظات قليلة من سبده
 كانت تحمل أكياساً وتلوح لها بانفعال.

انطلقت سيارة الأجرة في شارع ستراند تتركه السيارة الأولى

شيكاً بضمه. وعندما رأى مدير المحل الاسم على الشيك اتسم أسنويه بعزيم من العناية وقال: بسمدي أن أراك ثانية في لندن يا آنسة شيل. هل السيد مورغانثال هنا؟

- لا.

- كنت أتساءل عن ذلك، لأن لدينا هنا قطعة رائعة جداً من الياقوت النجمي الأزرق، وأنا أعرف اهتمامه بهذا النوع من الياقوت. هل تمانين في رؤيتها؟

أعربت الآنسة شيل عن عدم عمانتها، ثم أبدت ما يتطلبه الموقف من إعجاب بالياقوتة ووعدت بذكرها أمام السيد مورغانثال. ثم خرجت ثانية إلى شارع بوند، فيما أعربت الشابة اثني كانت تنظر إلى فرط من العلي عن عدم قدرتها على اختيار ما تريد ثم خرجت هي الأخرى.

كانت السيارة الرمادية قد انعطفت شمالاً إلى شارع كرافتن وذهبت إلى ميدان بيكاديلي. وكانت الآن تدخل لثراها شارع بوند من جديد. ولكن الشابة لم تظهر ما يفيد تعرفها على السيارة.

انعطفت أنا شيل إلى شارع أركيد، ثم دخلت محلاً تبيع الأزهار، وهناك طلبت عشرات من الزهور طويلة الساق، وآنية من زهور البنفسج الفرزية الضخمة، وعدداً من أزهار الليمك، وآنية من أزهار الميموزا، ثم أعطت البائع عنواناً ليسلها إليه. غاب البائع. سيكلف ذلك اثني عشر جنيهًا وثمانية عشر شلنًا يا مبدتي.

دفعت له المبلغ وخرجت. وسألت الشابة التي كانت قد دخلت محل الأزهار لثوها عن ثمن باقة من الورد، ولكنها لم تشرها.

عبرت أنا شيل شارع بوند ومضت في شارع بيرنغتن، ثم انعطفت إلى شارع ساويل راو. وهناك دخلت محلاً للمخاطة كان متخصصاً بأزياء الرجال، ولكن القائمين عليه كانوا يوافقون على تفصيل بدلة نسائية لزيائن خاصين في بعض الأحيان.

استقبل السيد بولفورد الآنسة شيل بكل ما يستحقه الزبون من خاص القيم. وتم استعراض الأقمشة المناسبة للبدلة. قال السيد بولفورد: يمكنك - لحسن الحظ - أن أعطيك النوعية الجيدة التي تتميز بها صادراتنا الخاصة. متى ستعودين إلى نيويورك يا آنسة شيل؟

- في الثالث والعشرين من هذا الشهر.

- يمكنك - إذن - تدبير الأمر بشكل جيد. أحب أنك ستعودين بالياقوتة، أليس كذلك؟

- بلى.

وكيف هي الأمور في أمريكا؟ إن الأمور محزنة جداً هنا... محزنة جداً بالفعل.

هو السيد بولفورد وأسه أسفاً كطبيب يصف حالة مريض ثم قال: لم يعد للأمور طعم... إن كنت تفهميني، ولا بأيتنا أحد ممن يفقدون جودة العمل حق قدرها. أتردين من سيفضل لك بدلئك

يا أنسة شيل؟ إنه السيد لاتريك؛ عمره اثنان وسبعون عاماً، وهو الوحيد الذي أستطيع حقاً أن أتق بتفصيله لثياب زياتنا المتميزين.
كل الباقين...

ثم نحي السيد بولفورد الباقيين بإشارة من يده السمينة وقال:
الجودة... هذا ما كانت هذه البلاد مشهورة به، الجودة! ما من شيء رخيص... ما من شيء مهرج. وعندما انخرطنا في الإنتاج الجماهيري الكبير لم نحسنه. هذه حقيقة. هذا من اختصاص بلدك أنت يا أنسة شيل. وإني أقول -ثانية- إن ما ينبغي أن تركز عليه هو الجودة. أن تأخذ وقتنا في صنع السلعة ونعني بها ونُخرجها بحيث لا يمكن لأحد في العالم التفوق عليها. والآن، في أي يوم نجرى القياس الأول للبدلة، في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم؟ في الحادية عشرة والنصف؟ شكراً جزيلاً.

شقت الأنسة شيل طريقها عبر قلائف القماش القديمة للكعبة وخرجت ثانية إلى غصوه النهار. لوحّت لسيارة أجرة وعادت إلى فندق السافوي، وافترت سيارة أجرة أخرى من الجانب الآخر من الشارع وهي تقل رجلاً أسمر غزيل الجسم، ثم أخذت نفس طريق السيارة السابقة، ولكنها لم تنعطف إلى فندق سافوي، بل انعطفت خلفه، وهناك صعدت إلى السيارة امرأة قصيرة مكتنزة الجسم كانت قد خرجت -لنوها- من المدخل الخاص بالخدمات في الفندق.

- ماذا حصل معك يا لويزا؟ هل خشيت غرفتها؟

- نعم. لا يوجد شيء.

تداولت أنا شيل غذاءها في المطعم، حيث تم حجز مائدة لها قرب النافذة. وقد استفسر رئيس التدلاء في المطعم بمسحة عن صحة السيد أرونو مورغانتال.

بعد الغذاء أخذت أنا شيل مفتاح غرفتها وصعدت إلى جناحها. كان السرير قد رُتب، وقد وُضعت مناشف جديدة في الحمام، وكان كل شيء مرتباً نظيفاً. ذهبت أنا إلى الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان أمتعتها، وكانت إحداهما مغلقة والأخرى غير مغلقة. ألقت نظرة على محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم أخرجت مفاتيحها من حقيبته يدها وفتحت الحقيبة الأخرى. كان كل شيء مرتباً ومطوياً كما طوته هي، ولم يتم -ظاهرياً- لمس شيء أو إنساده. كانت حقيبته جلدية صغيرة موضوعة في أعلى محتويات الحقيبة، كما كان هناك آلة تصوير صغيرة وقلمان في زاوية الحقيبة. أما القلمان فكانا ما يزالان مختوشين مغلفين. مروت أنا ظفراًها على غطاء الحقيبة ثم قلبته للأعلى، وابتسمت بكل هدوء. فالثمرة الشفراء الوحيدة التي كانت موضوعة هناك لم تعد موجودة. قامت برش شيء من البودرة على الجند اللامع للحقيبة الصغيرة ثم نفضتها فوجدت أن الحقيبة ظلت نظيفة لامة. لم تكن عليها بصمات. ولكنها كانت قد أمسكت بتلك الحقيبة في ذلك الصباح بعد أن وضعت على شعرها قليلاً من الكريم تسمده وتطريه به، ولذلك ينبغي أن تكون على الحقيبة بصمات.. بصماتها هي.

ابتسمت ثانية وقالت لنفسها: عمل متقن، ولكنه ليس متقناً

بما فيه الكفاية!

وبسرعة وضعت بعض الملابس في حفية صغيرة ونزلت ثنية إلى الطابق السفلي حيث تم استدعاء سيارة أجرة لها. وقد طُلب من السائق التوجه إلى المبنى رقم ١٧ في ساحة إيلمزلي غاردنز.

كانت منطقة إيلمزلي غاردنز ساحة هادئة منسقة قليلاً في كينسينغتون. دفعت أنا أجرة السيارة وأسرت صاعدة الدرج وصولاً إلى الباب الأمامي للمبنى المقصود. فرحت الجرس ففتحت لها الباب -بعد دقائق- امرأة كهلة ذات وجه ينم عن الارتباك. ولكن سرعان ما انفجرت أساريرها لتبس مرحية: كم سطرخ الأنسة إليسي برونك! إنها في المكب في مؤخرة المنزل. إن فكرة قدومك هي وحدها التي كانت تبقى على منوياتها جيدة.

مضيت أنا بسرعة عبر الممر المظلم وفتحت باباً عند نهايته. كانت غرفة صغيرة قديمة ولكنها مريحة، وفيها مقاعد بالية ضخمة متجدة بالجلود. ففرت المرأة التي كانت تجلس على أحد تلك المقاعد وقالت: آنا، حبيبي.

- إليسي.

تبادلت السرانان القبلات بكل حب، ثم قالت إليسي: لقد تم ترتيب كل شيء. سأدخل هذه الليلة إنني أرجو...

قاطعتها أنا قائلة: هيا انتهي، سيكون كل شيء على ما يرام تماماً.



دخل الرجل الأسمر الضئيل بمعطفه المطري إلى أحد أكشاك الهاتف في محطة كينسينغتون وأدار قرص الهاتف على رقم معين.

- أتعده شركة غرامفون فإلها؟

- نعم.

- ملك ساندروز يتكلم.

- ساندروز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. أقدم تقريراً عن أ. ش. ٩: لقد وصلت هذا الصباح من نيويورك. ذهبت إلى محلات كارتيه حيث اشترت خاتم ياغوت والماس كلف مئة وخمسين جنيهًا. ثم ذهبت إلى محل للأزهار واشترت ما قيمته اثنا عشر جنيهًا وثمانية عشر شلنًا من الأزهار لترسل إلى مصحة في منطقة بورتلاند. ثم طُلبت خياطة ممطف وثنورة في محلات بولغورد وأفوري. إن أياً من هذه الشركات والمحال لم تُعرفت هذه الاتصالات مشبوهة، ولكن سيتم فحصها بعناية مستقبلاً. تم تفشيش غرفة أ. ش. في الفندق، فلم يُعثر على شيء يشير إلى الريبة. توجد حفية جنلدية صغيرة داخل حفية سفر تحتوي على أوراق تتعلق باندماج شركة بيبير مع شركة دولفنشاين، وليس في ذلك ما يشير إلى الريبة. هناك آلة تصوير وقلمين لم يُستخدما بعد كما يبدو، وبسبب احتمال وجود سجلات وثائقية على القلمين قسماً باستبدالهما، ولكن تبين أن القلمين الأصليين كانا هاديين ولم يُستخدما بعد. أخذت أ. ش. حفية صغيرة وذهبت إلى أختها في ١٧ إيلمزلي غاردنز. وقد دخلت أختها هذا المساء مصحة في منطقة بورتلاند لإجراء عملية داخلية،

الفصل الرابع

يمكن الإسهاب كثيراً في وصف ما تتجلى به فكتوريا من بهجة وانطلاق، بحيث لا تخطر لها اللحظة واحدة إمكانية الفشل في الحصول على ما يريده، إنها امرأة لا تعرف اليأس، ولقد كان من المؤسف بالتأكيد أن يتبين لها في اللحظة التي وقعت فيها في حب ذلك الشاب الوميم أنه على عكس المغادرة إلى مكان يبعد نحواً من ثلاثة آلاف ميل، ولو كان ذاهباً إلى بيرمنجهام أو بروكسل لكان الأمر.

لما أن تكون وجهته بغداد فقد رأت فكتوريا أن ذلك عائد لحظتها النصرا ومع ذلك، ورغم صعوبة الأمر فقد نوت الذهب إلى بغداد بشكل أو بآخر. مثل في شارع ثونينهم كورت وهي تجبل في ذهنها الطرق والوسائل الممكنة. بغداد... ما هو العمل الممكن في بغداد؟ يقول إدوارد إنه «الثقافة». أيمكنها - يا ترى - أن تلعب لعبة الثقافة بشكل ما؟ اليونسكو مثلاً؟ كانت اليونسكو ترسل الناس دوماً إلى كل مكان في هذه الدنيا، وأحياناً ترسلهم إلى أجمل الأماكن. ولكن فكتوريا فكرت بأن عن ترسلهم اليونسكو هم - في

وتم التأكد من ذلك من المصححة نفسها ومن دفتر مواعيد الجراح أيضاً. وتبدو زيارة أ. ش. برتة تماماً وليس فيها ما يشير الشكوك. ولم يبدُ عليها أي ارتباك أو انتباه لملاحظتنا لها. وقد فهمت أنها ستقضي هذه الليلة في المصححة، وقد ألفت على غرفتها في فندق سانفوي. ستكون هودنها إلى نيويورك بواسطة الباخرة التي حجزت فيها مقعداً في الثالث والعشرين من الشهر.

توقف الرجل الذي أسى نفسه «سندرز صاحب النهر»، ثم أضاف ملاحظة استدراكية بدا وكأنه لا يريد تسجيلها رسمياً: ولئن سألتني عن رأيي لقلت إن الأمر كله خدعة وتضليل! إن كل ما تضله هو إلقاء الأموال ذات اليمين وذات الشمال. اثنا عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً على الأزهار فقط؟ أمر عجيب!

www.lilas.com

العادة- نماء متفوقات ذوات شهادات جامعية التحقن بهذا المجال في وقت مبكر.

قررت فكتوريا أخيراً أن الأهم يأتي قبل المهم. فوجهت خطواتها نحو إحدى وكالات السفر. وهناك قامت بطرح أمتعتها وقد بدا أن السفر إلى بغداد لا ينطوي على أية مصاهب؛ إذ يمكن للمرء أن يسافر جواً، أو بالطريق البحري الطويل إلى البصرة، أو بالقطار إلى حرسلياً ثم بالباخرة إلى بيروت ثم عبر الصحراء بالسيارة. يمكن للمرء الذهاب عبر مصر، كما يمكن له الذهاب بالقطار طوال الطريق إذا ما عزم على ذلك، ولكن التأثيرات كانت صعبة وغير مؤكدة في الوقت الحاضر، وتكاد مدة صلاحيتها تنقضي - عملياً - عندما يستلمها المرء. خلاصة القول أن الوصول إلى بغداد لا يشكل أية صعوبة أبداً طالما أن لدى المرء مبلغاً يتراوح بين ستين جنيهاً وحقه جنيه في جيبه.

وبما أن فكتوريا لا تملك الآن إلا ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (إلا تسعة بنسات)، بالإضافة إلى خمسة جنيهات وأثنى عشر شلناً في صندوق توفير الجريد، فإن سفرها بالطريقة البسيطة المستقيمة كان أمراً مستحيلاً.

قامت بشعيرات حول إمكانية حصولها على وظيفة مضيغة جوية، ولكنها فهمت أن هذه الوظائف بكثر حولها التنافس ولها قوائم انتظار طويلة. بعد ذلك قامت فكتوريا بزيارة وكالة غيندرليك حيث حيتها الأنسة سبينسر وهي تجلس بثقة خلف مكتبها، حيثها

كمن يحيي شخصاً كتب عليه طول التردد إلى هذه الوكالة بين الحين والآخر

- يا إلهي! الأنسة جونز... لا تقولي إنك تركت عملك من جديد لقد كنت آمل - حقاً - أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة...

قاطعتها فكتوريا بحزم قائلة: وظيفة مستحيلة تماماً، لا يمكنني أن أشرح لك ما اضطررت إلى معايشته فيها.

احمزت وجتا الأنسة سبينسر الشاحبتان على نحو جميل وقالت: أمل أن لا يكون... أرجو فعلاً أن لا يكون... إنه لم يبدُ لي حقاً من ذلك النوع من الرجال، ولكنه رجل فقط بعض الشيء بالطبع. أرجو أن لا يكون...

قالت فكتوريا: "لأ، الأمر على ما يرام"، ثم احتالت لإخراج لبسنة باهتة شجاعة وأضافت: "استطيع الاعتناء بنفسى جيداً". ثم انقسمت نائية إبتسامتها الجريئة.

راجعت الأنسة سبينسر مجلاتها ثم قالت: جمعية سينت ليونارد لمساعدة الأمهات تربي طابئة، ولكنهم لا يدفعون الكثير بالطبع

سألت فكتوريا بسرعة: أتوجد أية فرصة في الحصول على عمل في بغداد؟

قالت الأنسة سبينسر بعفوية محبة: في بغداد؟!

رأت فكتوريا أن رد فعل الأنسة سبينسر يوحي بأنها

طلبت وظيفة في القطب الجنوبي. قالت: إنني أود كثيراً الذهاب إلى بغداد.

- لا أكاد أرى... أنقصدين الذهاب بوظيفة سكرتيرة؟

- بأية وظيفة كانت، ممرضة أو طباعة أو للمناظرة بمجنون... بأي شكل كان.

هزت الأنسة سينر رأسها نفياً وقالت: أخشى أن لا يكون لدي الكثير من الأمل في ذلك. كانت هنا سيدة بالأمر لديها إيتان صغيرتان وطلبت اصطحاب أحد معها إلى أستراليا.

نحس فكتوريا أستراليا بإشارة من يدها ونهضت فثلة: إذا سمعت بأي شيء. مقابل أجرة الطريق فقط... هذا كل ما أحاجه.

ثم أجابت على الفضول في عيني سينر بأن قالت شلوحة: إن لدي... قرية هناك. وقد سمعت عن وجود وظائف ذمت داخل مرتفع، ولكن المرء طبعاً أن ينهب إلى هناك أولاً.

وعندما خرجت فكتوريا من وكالة هيلدريك كررت فائلة لنفسها: نعم، لا بد للمرء أن يذهب إلى هناك.

وقد ظهر عامل إزعاج جديد لفكتوريا، فكما هو معتاد عندما يركز المرء انتباهه فجأة على اسم أو موضوع معين، بدا لها أن كل شيء قد نواطاً فجأة ليفرض فكرة بغداد على ذهنها. ففي صحيفة المساء التي اشتريتها رأيت مقرة قصيرة تقول إن الدكتور باونسفوت جونز، عالم الآثار الشهير، قد بدأ التحقيق عن مدينة موريك الأثرية

التي تقع على بعد مئة وعشرين ميلاً من بغداد. وأنى إعلان في الصحيفة على ذكر خطوط الشحن البحري إلى البصرة (ومن هناك بالنظر إلى بغداد والموصل وغيرها من المدن)... وفي الصحيفة التي قرئت بها لرضية درج الجوارب استرعت انتباهها بضعة أسطر تتحدث عن الطلبة في بغداد... وكان فلم «نص بغداد» يمرض في دار حسنا القريبة... وفي المكتبة المرافقة التي يتردد عليها كبار المنقذين (وكانت فكتوريا غلباً ما تتحدث إلى واجهتها) كانت تُعرض سيرة حياة جديدة لهالوون الرشيد، خليفة بغداد.

وبدا لها أن بغداد قد أصبحت -فجأة- في بؤرة اهتمام العالم كله. ومع ذلك، فحتى الساعة الثانية لآ رباعاً من بعد ظهر ذلك اليوم لم تكن قد سمعت ببغداد. ولم تكن قد فكرت فيها أبداً بالتأكيد.

كانت احتمالات الوصول إلى هناك ضعيفة، ولكن لم تكن لدى فكتوريا فكرة بالاستسلام. كان لها عقل خصب ونظرة متفائلة تؤمن بأنك إذا ما أردت عمل شيء فسجد دوماً طريقة ما للعمل.

وقد استغلت ليلتها في وضع قائمة بالطرق التي يمكن اتباعها. وقد جاء في القائمة:

المحاولة مع وزارة الخارجية؟

وضع إعلان؟

المحاولة مع الهيئة الدبلوماسية العراقية؟

مافدا عن شركات التمرور؟

أو شركات شحن التمرور؟

المجلس البرلماني؟

مكتب سيلفريدج للاستعلامات؟

مكتب تقديم المشورة للمواطنين؟

ولكنها اضطرت للاعتراف بأن آيا من هذه الحلول لم يكن واعدًا، وعندما أضافت إلى القائمة:

وضع اليد بطريقة أو بأخرى على منته جب؟

تأخرت فكتوريا في النوم بسبب جهود التركيز الذهني الكثيف الذي بذلته في الليلة السابقة، وربما بسبب قناعتها اللاشعورية بأنها لم تعد مضطرة للحضور إلى المكتب في تمام التاسعة صباحًا.

استيقظت في الساعة العاشرة وخمس دقائق، فقفزت مبشرة من سريرها وبدأت بإرتداء ملابس الخروج، وقد كانت تجري آخر عملية تمسيط لشعرها الأسود المتمرد عندما رن جرس الهاتف. ذهبت إليه لتجد على الجانب الآخر الأخت سيسر وهي في حالة انفعال: أنا في غاية السرور لأنني وجدتك يا عزيزتي، إنها -حقًا- واحدة من أغرب المصادفات.

صاحبت فكتوريا: نعم؟

- إنها مصادفة مخيفة كما قلت. لقد كسرت امرأة تُدعى السيدة كليب ذراعها. وهي تنوي السفر إلى بغداد بعد ثلاثة أيام. وهي تحتاج إلى من يساعد في رحلتها... لقد اتصلت بك على الفور.

إنني لا أعلم -طبعًا- إن كانت قد لجأت إلى وكالات أخرى...

- أنا في طريقني إليها. أين هي؟

- في فندق السافوي.

- وما هو اسمها السخيف الذي قلته؟ تريب؟

- لا، بل كليب يا عزيزتي.

ثم اختتمت الأخت سيسر حديثها بالقول (وكان من شأن ذلك أن يضمر كل شيء): وهي أمريكية.

- غلبدة كليب في السافوي؟

- بلى السيد والسيدة كليب. لقد كان الزوج هو الذي انصل بي عمليًا.

قالت فكتوريا لمحدثتها: أنت رائعة... وداعًا. ثم نظفت بدلتها بسرعة باستخدام فرشاة وهي تتمنى لو أنها لم تكن على هذا القدر من البلى، ثم منعت شعرها ثانية بحيث يبدو أقل شذوًا وأكثر ملاممة لدور ملاك الرحمة ودور المسافر الخبير، ثم أخرجت التوضعية التي كتبها لها السيد غرينهولتز وهزت رأسها أسفًا وهي تنظر إليها وقالت لنفسها: ينبغي أن أكون أفضل من ذلك.

نزلت فكتوريا من الحافلة رقم ١٩ في غرين بارك ودخلت فندق رينز. كانت فكتوريا قد استفادت من نظرة سريعة ألقتها من فوق كتف امرأة تقرأ صحيفة في الحافلة، ولذلك فقد دخلت غرفة الكتابة في الفندق وكتبت لنفسها بعض أسطر المديح السخيفة يزعم أنها جاءت

من الليدي ميثا برادييري التي كتبت الصحيفة تقول إنها قد غادرت إنكلترا لترها في طريقها إلى شرقي أفريقيا. كتبت فكتوريا: "... وهي رائعة في التمريض، وبالعلة الكفامة في كل شيء".

غادرت فندق رينز ولطمت الشارع ثم مشت قليلاً في شارع أليمارول حتى وصلت إلى فندق بالدوتن، المعروف بأنه مأوى لكبار رجال الدين وأرامل الطبقة الريفية العليا. وهناك كتبت توصية من أسقف لانغور كانت أقل من التوصية السابقة فخامة ومظهرية. ثم استطلعت المحاكمة رقم ٩ متسلحة بتلك التوصيات ومضت إلى فندق سافوي.

وفي قسم الاستقبال سألت فكتوريا عن زوجة هاملتون كليب، وأعطت اسمها باعتبارها قادمة من وكالة غيلندريك. وقيماً كان الموظف على وشك رفع سماعة الهاتف توقف فجأة ونظر أمامه قائلاً: ها هو السيد هاملتون كليب.

كان السيد كليب أمريكياً بالغ الطول شديد التحول رمادي الشعر، وكان أسلوبه يتسم بالتهذيب والانقياد المتمهل للكلمات.

أخبرته فكتوريا باسمها وأشارت إلى وكالة التوظيف فقال: آه، نعم يا آنسة جونز. الأفضل أن تصعدي مباشرة وترى السيدة كليب. إنها ما تزال في جناحتنا في الأعلى، وأعطينا تجري مقابلة مع شابة أخرى، ولكن ربما كانت الشابة قد ذهبت الآن.

اعتصر ذهنٌ شديد قلب فكتوريا. أَقْدَرُ لأحبتي أن تكون على هذه الدرجة من القرب، وعلى هذه الدرجة من البعد أيضاً؟

صعد الاثنان بالمصعد إلى الطابق الثالث، وفيما هما يسيران في الممر المفروش بالسجاد السميك خرجت فتاة من أحد الأبواب عند نهاية الممر وحاجت بانجاهما. وقد اتاب فكتوريا نوع من الهوس التي رأت معها أنها هي تلك الفتاة التي تقرب، وفكرت في أن ذلك ربما كان بسبب بدلة الفتاة المفضلة يدوياً والتي كانت ناعماً ما تنسى فكتوريا أن ترتديه شخصياً. وقالت لنفسها فيما يشبه العودة إلى الوحشية الأنثوية الفريزية: كما أن من شأن البدلة أن تناسب جميعي تماماً، إننا من نفس الحجم. لَكُنْ أتمنى أن أزعجها عنها بالقوة.

عبرت الشابة أمامهما. كانت تضع قبعة مخملية صغيرة مائلة قليلاً على شعرها الأشقر بحيث تغطي وجهها جزئياً، ولكن السيد هاملتون كليب التفت لينظر إليها بشيء من الدهشة، ثم ما لبث أن قال هامساً: ما هذا... من كان يستخيل هذا؟ أنا شيل.

ثم قال كمن يشرح تصرفه: اعذرني يا آنسة جونز. لقد دهشت إذ ميزت شابة كنت قد رأيتها في نيويورك منذ أسبوع فقط، وهي سكرتيرة لواحد من أكبر المصارف العالمية هناك.

نوقب من الكلام عند باب في الممر. كان المفتاح ميثاً في القفل. وبعد طرفة صغيرة على الباب فتحه السيد هاملتون ووقف جانباً ليمسح بدخول فكتوريا إلى الغرفة.

كانت السيدة كليب تجلس على كرسي مرتفع المستد قرب النافذة. وقد جملت عند دخولهما. كانت امرأة قصيرة في خفة الطير

يحتاج أية أعمال سكرتارية أو مراسلات، فإني عملت سكرتيرة من لعدة أشهر.

ثم أضافت بوضوح: إن عمي هو أسقف لانغو.
- عمك أسقف إذن. كم هو منع.

ورأت فكتوريا أن كلا الزوجين قد أعجبا بها بالتأكيد (وهو ما كان ينبغي أن يحصل بعد كل ما بذل من جهته).

أعطت السيدة كليب التوصيتين لزوجها وقالت بتأثر: "يدو ذلك رائعاً حقاً. نعمة من السماء. إن حضورك كان استجابة لكثير من الدعاء". وفكرت فكتوريا أن ذلك كان فعلاً استجابة لدعاء كثير من الكنائس.

سألت السيدة كليب: أأنت ذاعبة لتولي وظيفة ما هناك، أم تتنحني بفريق لك؟

لقد نسيت فكتوريا -في حماسة حماسها لتزوير التوضيحات- أنها قد تضطر لتضيق أسباب سفرها إلى بغداد. أما وقد أخذتها السيدة كليب على حين غرة فقد كان عليها أن تمثل ارتجافاً وبسرعة. تذكرت الفقرة التي قرأتها بالأمس لفات: سوف التحق بعمي هناك... الدكتور بارنستون جونز

- حقاً؟ عالم الآثار؟

- نعم.

تساءلت فكتوريا -للحظة- إن كانت قد بالقت في إحاطة نفسها

ذات عيّن صغيرين حادثين، وكانت فروعها اليمنى ملقوفة بجيرة من الجص.

عزلها زوجها على فكتوريا لهفت بحماسة: آه. لقد كان الحادث كله مرسفاً. لقد كنا هنا نستمتع برؤية لندن، وكانت كل خططنا مكتملة. ولذا كنا محجوزة. إني مسافرة لزيارة ابنتي المقروحة في العراق يا آنسة جونز. فأننا لم أرها منذ قرابة العامين، وفجأة قدّر لي أن ألق. كان ذلك في كنية ومستشفى... وقعت وأنا أنزل درجاً حجرياً، وها أنا ذا كما ترى. هرعوا بي إلى المستشفى وجثروا الكسر. صحيح أن الأمر ليس مزعجاً جداً، ولكنني عاجزة صغير الشيء. كما ترى ولا أدري كيف سأتدبر أمر السفر وزوجي جورج مرتبط بعمله تماماً ولا يستطيع تركه قبل مضي ثلاثة أسابيع على الأقل، ولذلك اقترح عليّ أخذ ممرضة معي إلى هناك. وقد -في الحقيقة- لن أحتاج إلى ممرضة بمجرد وصولي هناك، فابنتي ساندي بوسعها القيام بكل ما هو ضروري، بالإضافة إلى أن اصطحاب ممرضة سيبني دفع أجور عودتها أيضاً. ولذلك فقد فكرت في الاتصال بوكالات التوظيف لأرى إن كان بوسي العثور على مرافقة تأتي معي مقابل أجور سفرها فقط.

قالت فكتوريا: أنا لست ممرضة بالظبط.

قالت ذلك بلهجة استطاعت فيها أن توحي بأنها ممرضة في الواقع. ثم أضافت: ولكن لدي الكثير من الخبرة في التمريض.

أخرجت التوضيح الأولى وقالت: وقد جاءت تلك التجربة من العمل مع الليدي سيبا برايديري لأكثر من عام. وإن كنت ترغبين

بالعديد من الأعلام المتميزين المشهورين، ولكنها مضت فائقة:
إنني شديدة الاهتمام بصفه، ولكنني لا أملك -بالطبع- أية مؤهلات
خاصة، ولذلك كان من المستحيل أن ندفع بمئة الأثر أجور سفري،
فهي ليست في وضع مالي جيد. ولكن إن استطعت السفر على
حسابي الخاص أمكنتي الالتحاق بهم والقيام بدور مفيد معهم.

قالت السيدة كليب: لا بد أنه عمل متعب جداً، ولا شك أن
بلاد الرافدين حفل هائل للأنشطة الأثرية.

انضمت فكتوريا إلى السيد هاملتون وقالت: أخشى أن يصي
الأصف مسافر إلى مكنولاند في الوقت الحاضر، ولكنني أستطيع
إعطائك هاتف سكرتيرته، فهي في لندن حالياً، ورقمها هو ٨٧٦٩٣.
ستجدها هناك ما بين الساعة... (اختلست فكتوريا نظرة إلى الساعة
على رفه الموقد) ١١،٣٠ فما فوق، إن كنت تريد الاتصال بها
وسؤالها عني.

قالت السيدة كليب: آه، إنني واقفة...

ولكن زوجها قاطعها قائلاً: الوقت قصير جداً، فلتك الطائفة
تغادر بعد غد. هل لديك جواز سفر بأنة جوزر؟
" نعم.

حدثت فكتوريا الله على أن جواز سفرها كان مجدداً بسبب
إجازة قصيرة قضتها في فرنسا في العام الماضي. أخضعت تقول: لقد
أخضرت معي خشية الحاجة إليه.

قالت السيدة كليب باستحسان: هذا ما أسميه النصف
لعملي.

ولو كانت توجد أية مرشحة أخرى لهذه الوظيفة لثم استبعادها
لأنه فقد بدء واضحاً أن فكتوريا -بما تملكه من توهجات جيدة
وأعلام وجواز سفر جاهز- قد حققت المراد.

قالت السيدة كليب وهي تأخذ الجواز: ستحتاجين للتأشيرات
المطلوبة. سوف ألبأ إلى صديقنا، السيد بيرجن، في شركة أميركان
بكريرس، وسوف يتولى هو تأمين كل شيء. ربما كان من الأفضل أن
تأتي عصر اليوم بحيث يمكنك أن تؤقي كل ما يحتاج إلى توقيع.
وهذا ما وافقت فكتوريا على القيام به.

وعندما أغلقت باب الغرفة خلفها سمعت السيدة كليب تقول
لزوجها: يا لها من فتاة لطيفة مستقيمة! إننا محظوظون حقاً.

تلقت فكتوريا وتركت وجهها يعمز خجلاً. ثم عادت إلى
شقتها وزرعت نفسها قرب الهاتف مستعدة لتبني اللهجة الجبلية
المهذبة لسكرتيرة الأسقف المفتوحة في حال سعى السيد كليب
لحصول على تأكيد لفدائها، ولكن بدء واضحاً أن السيدة كليب
قد أصبحت بشخصية فكتوريا المستقيمة إلى الحد الذي لا تريد معه
إزعاج نفسها بتلك الصغار الفنية فلم تكن الوظيفة لتعدو -في نهاية
الأمر- بضعة أيام من رفقة السفر.

بعد ذلك تم ملء الأوراق وتوقيعها والحصول على التأشيرات
الضرورية، وطلب من فكتوريا أن تقضي الليلة الأخيرة في فندق

سافري بحيث تكون قريبة جاهزة لمساعدة السيدة كليب في النهوض
عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي والذهاب إلى مركز خطوط
الطيران ومن ثم إلى مطار هيثرو.



الفصل الخامس

نهضى على شط العرب المركب الذي غادر الأهوار قبل
يومين. كان التيار سريعاً، ولم يكن الرجل الذي يدفع المركب
بحاجة إلى انقيام بمهد يذكر. كانت حركاته هادئة إيقاعية، وعيناه
مصف مغمضتين، ومن بين أسنانه كان يغني بكل رقة موالاً عربياً
حزيناً لا ينتهي:

لمري بلبل يا جفني،

هذي إلك يا بن علي.

وهكذا كان عبد السليمان (وهو من عرب الأهوار) قد قطع
النهر في مناسبات سابقة لا يحصر لها نزولاً إلى البصرة. وكان في
المركب رجل آخر، رجل ذو هيئة غالباً ما تُرى في هذه الأيام وقد
خلطت الشرق والغرب في ثيابه بشكل يدعو إلى الشفقة، فقد
ارتدى فوق رداءه الطويل من القطن المخطط سترة خاكية متروكة
قداسة ممزقة، وحشر تحت المنة البالية وشاحاً أحمر بهت لونه،
وعلى رأسه بدت من جديذ عزة اللباس العربي، الكوفية التي لا بد
منها بلونيهما الأبيض والأسود التي يثتها العقال المحبري الأسود.

كان يسرح بعينيه الشاردتين دون تركيز على ما حول النهر، وسرعان ما بدأ هو الآخر يمدد بنفس اللحن. كان رجلاً كالآلاف الرجال الذين يصادفهم المرء في بلاد الرافدين. لم يكن فيه ما يوحي بأنه إنكليزي وبأنه يعمل معه سراً يسمى أصحاب نفوذ في كل بلد في العالم تقريباً إلى الجبلولة بينه وبين إصلا، وإلى كشمه وكشم أنفاس من يحميه.

عاد يذعنه ليسترعى الأسابيع الغليظة الماضية بشكل عشوائي: الكمين في الجبال... برودة الثلج وهو يهوي فوق الوادي... قافلة الجبال... الأيام الأربعة التي قضاهائماً على قدميه في الصحراء الجرداء ويصحبته رجلان يحملان «سينما» محمولة... الأيام التي قضاهي في الخيمة السوداء... ونرحاله مع قبيلة غزاة التي يرتبط معها بصداقة قديمة. كانت كلها أياماً صعبة، أياماً محفوفة بالخطر... وهو يتخلص مرة بعد مرة من الطوق الأمني الذي تم نشره للبحث عنه واعتراض سبيله.

«هنري كارمايكل. عميل إنكليزي، عمره في نحو الثلاثين، شمعه بني، عيناه موداوان، طوله ١٧٦ سم. يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندوستانية والتركية، بالإضافة إلى العديد من اللهجات الجبلية. له صداقات مع زعماء القبائل «خطير».

ولد كارمايكل في كاشغار حيث كان أبوه موظفاً حكومياً، وكان لسانه قد درج وهو طفل على العديد من اللهجات وأساليب الكلام المحلية. كانت مربيته (وخدمه فيما بعد) من قويعات مختلفة، وله صداقات في كل مجاهل الشرق الأوسط تقريباً.

لم تكن صلاته وعلاقاته تتخفله إلا في المدن الكبيرة، وقد عرف الآن -وهو يقترب من البصرة- أن اللحظة الحرجة لمهتة قد أرغت. لا بد له -عاجلاً أو آجلاً- من الدخول ثانية إلى مناطق الحضر، ومع أن بغداد كانت وجهته النهائية، فقد قدّر أن من الحكمة أن لا يأتي إليها مباشرة في كل بلد في العراق كانت تنتظره بيروت وأماكن تحت دراستها وإعدادها قبل أشهر هديدة، وقد تم الاتفاق على أن يترك لتقديره الخاص أن يحدد أين سيحط رحاله، إذا صح التعبير. لم يكن قد أرسل أي خبر لرؤسائه، حتى من خلال القنوات غير المباشرة التي كان يوسمه استخدامها لذلك، فقد كان ذلك آمن له. كانت الخطة السهلة (التي تقضي بأن تنتظره الطائرة في الموعد المحدد) قد فشلت كما توقع لها، فقد عرف أعداؤه بذلك الموعد. التهرب... العلة دوماً في ذلك الأمر القاتل غير المفهوم... في التهرب.

وقد بلغ الأمر به حداً جعل مخاوفه من الخطر تتفاقم الآن. فهنا في البصرة، حيث المنظر الذي يوحى بالأمان، أحس بشقة غريزية بأن الخطر سيكون أكبر مما تعرض له خلال مجازفات رحلته الخطيرة. وأن يأتي لينشل في المرحلة الأخيرة أمر لا يكاد يستطيع التفكير فيه.

وفيما كان العربي المعجوز يجذّف بشكل إيقاعي، قال دون أن يلتفت: لقد اخترت اللحظة يا بني... الله يحفظك.

تسنى -للحظة- لو أنه كان ذا دماء شرقية لا غربية، كيلا يقلق على فرص النجاة والقتل، وكيلا يحسب المخاطر مرات عديدة

وهو يسأل نفسه إن كان تخطيطه سليماً بنسب يبعد الرؤية، وحتى يقول لنفسه بثقة أهل الشرق: إن شاء الله سأنجح!

بمجرد ترويد الكلمات مع نفسه غمرته سكونة البلد وتسللها بالقدور، وقد رحب بهذا الشعور. إن عليه أن ينزل من القارب بعد لحظات، وأن يمضي في شوارع المدينة تحفّ به نظرات الأعيان الناقية. لن يكون يومه أن ينجح إلا إذا شعر بشعور العربي. ولم يكتب فقط بالظهور بمظهر العربي.

انعطف القارب يهدوء إلى يمين النهر. وهناك كانت جميع أنواع القوارب والمراكب مربوطة على الشاطئ، وكانت قولوب أخرى قد دخل قبل مركبها وبعده. كان منظرٌ جميلاً يكاد يمثل مناظر البندقية، حيث المراكب بمقدماتها المتصبية المزركشة والألوان الهادئة الباهتة لدهانها. كانت هناك مئات من المراكب مربوطة بعضها قرب بعض.

سأل العجوزُ بسرعة: لقد حانت اللحظة، هل توجد ترتيبات مهيئة لك؟

- نعم، الحقيقة أن خططي قد وضعت. لقد جاءت ساعة مغادرتي.

- فليسهل الله لك طريقك، ولتفضل في صمرك.

جمع كل ما بكل حوله أنوابه المقلّصة وصعد الدراجات الحجرية الزلقة إلى الرصيف الذي كان ينتشر حوله الناس الذين يجدهم المرء عادة في الموانئ؛ صبية صفار، وباعة يرتقال يجلسون قرب صواني

بضاعتهم، ومئات عازقون في تأملاتهم يسرون على غير هدى ويسفون بصوت عالٍ من وقت لآخر، وهم يتجولون ومسابيحهم تطفلق في أيديهم. وفي الجانب الآخر من الشارع، حيث المحلات والمصروف، يمضي بسرعة شباب «أفندية» يرتدون بدلات أوروبية نيل ثلوثها قليلاً إلى الحصرة. كما كان هناك أوروبيون أبشأ، من الإنكليز والأجانب. ولم يد أي اهتمام واضح أو فضول لمجرد أن عربياً من حسن خمسين غيره قد صعد لثرو من القارب إلى الشاطئ.

مشى كارمبكل يكتفي هدوء في الشارع كمن لا هدف له، وعيناه تشوبان المشهد بالقدر المناسب تماماً من القرح الطفولي بما يراه حوله، وبين فية وأخرى كان يسعل دون إصدار صوت مبالغ به، بل لمجرد وضع نفسه في إطار المشهد حوله.

وهكذا اقترب الغريب من المدينة، ووصل الجسر في أعلى القنطرة فصره ودخل السوق. وهنا كان الجو كله حركة وضوضاء. كان رجال القبائل النشيطون يشنون ويذفون الآخرين عن طريقهم، والحمير المحملة تنشق طريقها وأصحابها يصيحون بصوت عالٍ: "بالك... بالك..."، والأطفال يشاجرون ويصرخون ويركضون خلف الأورويين وهم يتنادون بأمل: "بخشيش مدام، بخشيش... مسكين، مسكين..."

هنا كانت متجبات الغرب والشرق تُعرض للبيع جنباً إلى جنب: قراي من الألبانوم، وصحون وفنجانين وأباريق شاي، وأوان من النحاس المطروق، وتحت فضة، وساعات رخيصة، وأكواب

وقف كارمايكل هناك يتنفس الفروء، ثم سأل: بيش هذا؟

- سبعة دنانير.

- هذا كثير.

قال الحاج: سترسل لي السجادات إلى غاني؟

أجابته التاجر: بالتأكيد. هل مشارك لهداً؟

- نعم؛ فهداً إلى كربلاء.

قال كارمايكل: كربلاء مديني. لقد مرت خمس عشرة سنة منذ
أن رأيت قبر الحسين آخر مرة.

قال الحاج: إنها مدينة مقدسة.

قال التاجر وهو يلتفت إلى كارمايكل: توجد فروات أرخص
في الغرفة الداخلية.

- إني أحتاج فروء بيضاء من فروات الشمال.

قال التاجر وهو يشير إلى باب في الجدار الداخلي: عندي
واحدة منها في الغرفة الأخيرة.

لقد مضت العملية بالطريقة المتفق عليها... حديث كأي حديث
يمكن أن يُسمع في أي سوق. ولكن التسلسل كان مضبوطاً تماماً...
كل الكلمات الأساسية كانت موجودة: كربلاء... الفروء البيضاء...

لأن كارمايكل - وهو يهرع داخل إلى الغرفة الداخلية - رفع
بصره إلى وجه التاجر، وعرف فوراً أن الوجه ليس هو الوجه الذي

مطلبة بالعباءة وسجاد ذو نقشات بهيجة من إيران، وصناديق أمتعة
من الكويت، ومعاطف وسراويل وملابس أطفال مستعملة، ولُحُفٌ
مجانبة الصنع، ومصاييح زجاجية ملونة، وكوم من الأباريق والجرار
الفخارية... كل ما تنتجه الحضارة من البضاعة المخصصة جنباً إلى
جنب مع السلع المحلية.

كل شيء طبعي جداً واعتيادي. لقد بدا هذا القدر من النشاط
والفوضى غريباً لكارمايكل بعد الفترة الطويلة التي قضاها في الضفار
غير الساحلة، ولكن ذلك كله كان كما ينبغي له أن يكون. ولم يستطع
أن يميز أي أمر غير طبعي أو أي أثر للاهتمام بوجوده، ومع ذلك
لقد كانت غريزته غريزة امرئ حرف لسنوات طويلة معنى أن يكون
مُتَلاوذاً، وقد أشعرته غريزته الآلة بعدم الارتياح متزايداً... بإحساس
غامض بالخطر. لم يستطع العثور على أي شيء خارج عن المألوف.
لم ينظر إليه أحد، كما كان وثقاً أن أحداً لا يتبعه ولا يصحبه تحت
المرقبة، ومع ذلك كان يتابع ذلك اليقين الذي يصعب تعريقه بوجود
الخطر.

التفت ودخل في زقاق مخيم إلى يساره، ثم استدار إلى زقاق
آخر شمالاً، وهنا وصل إلى مدخل خان يتصعب بين الأكتاك. دخل
من الباب إلى باحة المخازن الداخلية التي كانت محاطة بالمحلات من
كل جانب، ثم ذهب إلى محل منها كان يعلق قطعاً من الفرو شبه
بالمعاطف المصنوعة من جلد خراف الشمال. وقبـه هناك يتنصـص
الفرواة بدقة. كان صاحب المحل يقدم القهوة لأحد زمائته، وكان
الزبون رجلاً طويلاً ملتحمياً ذا حضور رائع يلفت قاصداً أنصهر حول
طربوشه مما يدل على أنه كان حاجباً عاد لتوه من مكة.

نوقع رؤيته. ورغم أنه لم يَر ذلك الرجل تحديداً إلا مرة واحدة من قبل، إلا أن ذاكرته الحادة لم تكن مخطئة. يوجد شبه بين الاثنين. بل شبه كبير جداً، ولكنه لم يكن نفس الرجل.

توقف ثم قال بشيء من الدهشة المخفية: أين صلاح حسن إذن؟

- لقد كان أمي، وقد مات منذ أيام، وأنا أتولى شؤونه الآن.

نعم، ربما كان هذا أخاً، قال شبه قريب جداً. ومن الممكن أن يكون الأخ - أيضاً - مُتعلماً من قبل القسم؛ فالأجوبة كانت صحيحة دون شك. ومع ذلك فقد دخل كارمايكل الغرفة العائلية بانتباه إضافي، وهنا أيضاً كانت البضاعة مكبسة على الرفوف؛ دلال قهوة، ومطاحن سكر نحاسية، وأوان إيرانية قديمة من النقطة. وأكوام من المطرقات والمباعدات الملفوفة وأطقم شاي دمشقية مقطعة بالمينا.

كانت هناك قهوة بيضاء ملفوفة بعناية بمفردها على طاولة شاي صغيرة. ذهب كارمايكل إليها وأخذها، وكانت تحتها بدلة أوروبية فاقعة اللون قليلاً كاد البني يلحمها، وكانت المحفظة التي تحتوي على المال والأوراق الثبوتية موصوعة في جيب صدر البدلة. لقد دخل إلى المحل عربياً مجهولاً، ولئن يليت أن يخرج منه سيداً اسمه ولتر ويليامز من شركة كروس للاستيراد والتصدير لينتقم ببعض المواهب التي أعطت له مسبقاً. لقد كان يوجد رجل حقيقي باسم ولتر ويليامز بالطبع. إلى هنا يبلغ الحرص، وكان ذلك الرجل ذا ماضي

تجاري محترم ومعروف. كل شيء يسير - إذن - وفق الخطة. وبدأ كارمايكل يفلك أزرار سترته العسكرية متهدداً بارتياح، فكل شيء على ما يرام.

ولو كان الاختيار قد وقع على السدس كسلاح لكانت مهمة كارمايكل قد انتهت هنا وفي هذه اللحظة، ولكن للسكين فوائدها... وأهمها عدم إصدار أصوات.

على الرف - أمام كارمايكل - وضعت دلة كبيرة للفهوة، وكانت ثلث الدلة قد نُشمت حديثاً بناء على طلب زيون أمريكي كان مباني لأخذها، وهكذا انعكست انشاعة السكين على ذلك السطح اللامع المكنوز. انعكست على دلة الفهوة صورة كامئة، مشوهة ولكنها واضحة. الرجل الذي استل من بين الثياب المعلقة خلف كارمايكل والسكين الطويلة المنحنية التي استلها لنوه من بين ملبسه... وكان من شأن تلك السكين أن تنفوس بعد لحظة في ظهر كارمايكل.

استدار كارمايكل يلمح البصر - ويصرع صامت قصير استطاع أن يصرح الرجل أوضاً، وضارت السكين عبر الغرفة. خلس كارمايكل نفسه بسرعة وفقر من فوق الرجل الممدد، ثم اندفع خارجاً عبر الغرفة الخارجية حيث لمس الوجه الحادق المصحوق للتاجر والدهشة انهدة لدجاج المسمم. ثم خرج عابراً الخان ليدخل من جديد إلى السوق المزدهج، ثم استدار في اتجاه معين، ثم في اتجاه آخر، وهذا الآن ليس في ذهن إيداء أية علامة للمفجعة في بلد تندر فيه العجلة أسرع غير عادي.

وهكذا متى على غير هدى تقريباً، متوقفاً بين حين وآخر

ليخصص بضاعة معينة أو ثياباً، بينما كان دُعته يعمل بشكل محصور. لقد انهارت الخطة! وما هو مرة أخرى بمفرده في أرض عدوة. وقد كان مدركاً للمغزى السيء لما حدث قبل قليل.

إن ما يشناه لم يكن أعداءه الذين يلاحقونه، ولا أولئك الأعداء الذين يسدون عليه سبل الوصول إلى المحصر، ولكن كان ثمة أعداء عليه أن يشاهم داخل المؤسسة نفسها؛ لأن كلمات السر قد عُرفت وجاءت الإجابات جاهزة صحيحة، وقد جاء توقيت الهجوم دقيقاً في نفس اللحظة التي يكون فيها قد استُدِرج للشعور بالاطمئنان. ربما لم يكن من المدهش وجود خيانة من الداخل. لا بد أن هدف الأعداء كان -دوماً- محاولة إدخال أحد عناصرهم إلى داخل المؤسسة أو ربما شراء الشخص الذي يحتاجونه. إن شراء رجل مسألة أسهل مما قد يخيل للمرء... ويمكن للمرء أن يشتري بأشياء أخرى غير المال.

حسناً، لقد حدث ذلك، بغض النظر عن طريقة حصوله. ها قد عاد للهروب والتفكك... لا معنى له إلا إمكانياته الذاتية، دون مال، ودون مساعدة من شخصية أخرى، وبمظهره الذي غدا محروفاً. بل وربما كان أحد ينهه في هذه اللحظة نفسها.

لم يلتفت، لما فائدة الالتفات؟ إن من يتحونه لم يكونوا مبتدئين في هذه اللعبة. استمر في المشي بهدوء ودون هدف، ولكنه -خلف سلوكه الكسول الظاهر- كان يدرس احتمالات مختلفة وأخيراً خرج من السوق وعبر الجسر الصغير فوق القناة، وظل يمشي إلى أن رأى تلك اللوحة الكبيرة المكتوبة فوق المدخل: «القنصلية البريطانية».

نظر يمته وسيرة إلى الشارع. لم يبد أن أحداً يعبره أي أنباء. وبدأ له أن من السهل جداً أن يسلك إلى القنصلية البريطانية. ففكر للحظة، ففكر بمصيدة فتران... مصيدة فتران منصوبة وقبها قطعة الخبز المغرية. تلك المصيدة أيضاً تراها القارة سهلة ميسرة!

ولكن لا بد من الإقدام على المجازفة. لم يزل شيئاً آخر بوسعه أن يفعله، فدخل البوابة.



ذهب إلى فندق المطار وسأل من كيفية الذهاب إلى الكويت
فقبل له إن طائرة تغادر في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي،
وزن بوسعه العودة في اليوم التالي، وهكذا كان كل شيء واضحا
ميسورا، باستثناء الإجراءات الشكلية التي لا بد منها، كالتأشيرة
الخروج وتأشيرة الدخول إلى الكويت، ومن أجل تجاوز ذلك كان
عليه أن يلجأ إلى الفصيلة البريطانية وقد سبق لرينشارد أن التقى
في إيران -قبل بضع سنوات- بالتفصيل العام الحالي للبصرة السيد
كلابتون، ورأى أنه سيكون من المفرجح أن يراه الآن مرة أخرى.

الفصل السادس

جلس رينشارد بيكر في المكتب الخارجي للفصيلة البريطانية
منتظراً فراغ القنصل من عمله.

كان قد نزل البر من المركب المسمى «إنديان كوين» في ذلك
الصباح وأشرف على إخراج أمتعته من الجمارك. وكان جل تلك
الأمثلة من الكتب، كما تم حشر بعض ثياب النوم والقمصان بين
الكتب وكأنما كان ذلك استدراكاً منه.

كان المركب قد وصل في وقته المحدد، وربما أن رينشارد كان
قد سبق موعد عودته بيومين (نحسباً من التأخير الذي كان عدة في
المركب الصغيرة من طراز إنديان كوين) لذلك فقد وجد أمامه يومين
قبل أن يضطر لاستكمال طريقه -عبر بغداد- إلى وجهته النهائية،
وهي تل أبيب، موقع مدينة موريك الأثرية.

وكان قد وضع خطته أصلاً لنشاطه خلال هذين اليومين؛
فقد أثار فضوله دوماً نزل أشهر عنه احتواؤه آثاراً قديمة قرب شاطئ
الكويت، وقد جاءت هذه الفرصة من السماء للبحث في ذلك التل.

كانت للفصيلة مدخل عدة: بوابة كبيرة لدخول السيارات،
وبوابة صغيرة أخرى يمر الطريق إليها بحديقة القنصلية خروجاً إلى
الطريق الممتد على طول شط العرب. أما المدخل الرسمي (لأغراض
العمل) فكان على الشارع العام.

دخل رينشارد، وأعطى بطاقته إلى الموظف المناوب فقبل
له إن القنصل العام مشغول حالياً ولكنه سيفرج قريباً، ثم تم إدخاله
إلى غرفة انتظار صغيرة إلى يسار الممر الذي يخترق الفصيلة من
مدخلها وصولاً إلى الحديقة في الطرف الآخر. وكان في غرفة
الانتظار -أصلاً- عدة أشخاص لم يكد رينشارد يميزهم التفاتاً،
إذ نادوا بما كان يهتم بأفراد الجنس البشري، ولعل قطعة من الفخار
الأثري القديم كانت تثير فيه من الحماسة أكثر مما يثيره شخصٌ وُلد
في مكان ما في القرن العشرين بعد الميلاد.

سرح بأفكاره سميحاً يفكر في بعض ملامح أبجدية ماري
وفي تحركات القبائل المحلية عام ١٧٥٠ قبل الميلاد. ولعل من

الصعب التحديد الدقيق للشيء الذي صمّمه على إحساس حي قوي بالحاضر وإخواته من بني البشر. كان الأمر -في البداية- شعوراً بسيطاً بالتململ وبشيء من التوتر. ورأى أن هذا الإحساس قد جاءه عبر أنفه، رغم أنه لم يكن واثقاً من ذلك. لم يكن شعوراً يمكن وصفه بكلمات محددة... ولكنه كان موجوداً بالتأكيد. وقد أعاده ذلك الشعور إلى أيام قضاهما في الحرب الأخيرة. أعاده إلى مناسبة معينة بالتحديد هيّط فيها -هو وثنان من أصحابه- من الطائرة بالمظلات، وانتظر هو وأصحابه في ساعات الفجر الباردة حتى يحين موعد مهمتهم. كانت لحظة انخفضت فيها الصوتيات وتمثلت لهم بكل وضوح المخاطر الكاملة لما هم مقدمون عليه، لحظة رعب خشية أن لا يكون المرء على مستوى مهمته، لحظة يقلص فيها الجسد. إن في الجو الآن نفس ذلك الإحساس الاتحاد الحرير الذي لا يكاد يبين... واقعة خوف!

ليضع لحظات لم يتم تسجيل هذا الانطباع إلا في اللاشعور. كان نصف عقله يسعى -بتناد- لإيقاظ تركيزه على ما قبل الميلاد، ولكن إلحاح الحاضر كان أعظم من أن يجاهل.

إن أحد الموجودين في هذه الترفة الصغيرة يحس برعب قاتل!

نظر حوله، لم رأى رجلاً عربياً في سترته الخاكية البالية وأصابعه نعت بكسل بجبات سيحة الكهرمان التي يحملها، ورجلاً إنكليزياً ذا شارب رمادي يميل إلى البهانة، كان من نمط التجار المتجولين وكان يسجل بعض الأرقام في دفتر ملاحظات وقد بدا غارقاً في ذلك

وموحياً بالأهمية، ورجلاً نحيلاً متعب الهيئة شديد السمرة يتكن في كرسيه إلى الخلف في جلسة عذبة ووجهه هادئ القسمات لا يوحى بأي اهتمام، ورجلاً بدا وكأنه موظف عراقي، وآخر إيرانياً كهلاً يرتدي ثياباً فضفاضة بيضاء كاللج. جميعهم يبدوون غير مهتمين.

انظمت طفقات كهرومان السبعة في إقاع محدد، وبدأ ذلك مألوفاً بطريقة غريبة. حرك ريشارد نفسه ليشهد انتباهه، فقد كان نصف ناظم. مترهبة... نقطة... مترهبة... نقطة... إنها شيفرة مورس، الشيفرة البرقية التي ابتدعها مورس بالتأكيد. كان ذا خبرة بشيفرة مورس؛ فقد تعامل معها كجزء من واجبه أثناء الحرب، ويمكن له أن يفك رموزها بسهولة. ب.و.م... ب.و.م... ب.و.م... إي.ت.ون... إيتون... بومة إيتون! يا له من أمر قريب! نعم، هذا هو معناها! وقد تكررت... «بومة إيتون». كان ذلك هو الاسم الذي أطلق عليه عندما اتحق بكلية إيتون وهو يضع نظارة ضخمة جداً ذات زجاج سميك، وها هو الاسم الآن يرسله (أو بالأحرى يطفقه) أعزائي جلف رث انتباه! ما هذا؟

نظر عبر الترفة إلى العربي متأملاً كل صغيرة وكبيرة في هيئته: الثوب المخطط... والسفرة الخاكية القديمة... والوشاح الأحمر المنسوج باليد نجاً مبنياً مليئاً بالثغرات. لا يبدو ذلك أن يكون رجلاً مثقناً يرى المرء مئات منهم قرب الموانئ. والثقت عيناً الرجل بعينه بفراخ لا يدل على أي تمييز له، ولكن جبات السبعة استمرت تطفق: «القطر هنا. ساعدني. مشكلاً».

فخير؟ فقير؟ نعم، بالطبع! الفقير كارماكل! تلك هي الصفة

بفراخ الرجل البدني. أما الآخرون الذين كانوا في الغرفة فقد وقف أحدهم متعللاً يرتعد، وظل الرجل الأسمر والإيراني الكهل يحدقان دون تحريك ساكن.

قال ريتشارد: ماذا تفعل يا رجل، ملوّحاً بـسـدس على هذا الشكل؟

سادت لحظة صمت قصيرة، ثم قال الرجل السمين بلهجة لندنية شاكية: آسف يا صاحبي. كان ذلك مجرد حادث عرضي! - سوف تصرف مني.

- هراء. كنت تريد إطلاق النار على ذلك الرجل العربي الذي

- لا، لا يا صاحبي، لم أرد إطلاق النار عليه. أردت تخويفه فقط لقد ميزته - فجأة - بأنه الرجل الذي خدعتني في تحفة ابتعتها منه. كانت مجرد تسلية.

كان ريتشارد يكرر رجلاً شديد التحرز يكره كل أنواع الفضائح، وقد دفعت غريزته إلى تقبل ذلك التفسير على ظاهره وعلاقته. إذ ما الذي يمكنه إثباته في نهاية الأمر؟ وهل من شأن كارمايكل الفيلسوف أن يشكره على إثارة ضجة كبرى حول هذه القضية؟ الأرجح أن لا يشكره إن كان في مهمة سرية تتطلب الكتمان.

أرغمى ريتشارد فبضته عن ذراع الرجل ملاحظاً أنه أصبح يسبح في عرقه. أما الخادم فتكلم بانتعاش قائلاً إن إحضار أسلحة نارية إلى

التي ألحقوها باسم كارمايكل، لأنه وُلد في مكان نام ما من هذا العالم... تركستان أو أفغانستان؟

أخرج ريتشارد غليونه وسحب ذيله ثم نظر إلى تجويفه وأخذ ينقره في منطقة سحاجر قريبة وكأنه يريد تفرقة. وكانت بقرات الغليون تقول: «استلمت الرسالة».

بعد ذلك حدثت الأمور بسرعة كبرى، وقد نهب ريتشارد لاحقاً في محاولة تربيها: فقد نهض العربي ذو السرة الخاكية البالية وعبث الفرقة باتجاه الباب، وترنح وهو يمر بالقرب من ريتشارد، فامتدت يده وامسكت بريتشارد لكي يوازن نفسه. ثم اعتدل واعتذر ومشى باتجاه الباب.

قال ما حدثت عندها مذهشاً وسريعاً بحيث بدأ الأمر لريتشارد أشبه بمشهد سينمائي منه بمشهد من الحجة الواقعية! فقد قذف التاجر المتجول السمين دفتر ملاحظاته وبحث عن شيء في جيب معطفه، ولكن بدائته وخبط معطفه عليه آخره بضع ثوانٍ عن إخراج ذلك الشيء. وفي هذه الثواني القليلة تصرف ريتشارد، فما أن أخرج الرجل السمين حتى هاجمه ريتشارد فأوقع السمين من يده، وانطلق السمين لستمر طليقة في أرض الغرفة.

كان العربي قد خرج من الغرفة واستدار باتجاه غرفة القنصل، ولكنه توقف فجأة ثم عاد وركض بسرعة في الاتجاه المعاكس لخرج من الباب الذي دخل منه إلى الشوارع المزدحم.

خرج غادم القنصل إلى جانب ريتشارد الذي كان يقف ممكناً

القنصلية البريطانية أمر خاطئ جداً وغير مسموح به، وإن القنصل سينضب كثيراً لذلك.

قال الرجل البدوي: "إنني اعتذر. مجرد حادث صغير... تم دس بعض النقود في يد الخادم الذي أحادها إليه بسخطه فعاد الرجل ليقول: الأفضل أن أخرج من هنا... لن أنظر رؤية القنصل.

ثم دفع فجأة ببطافة إلى ريتشارد وقال: هذه بطاقتي، وأنا موجود في فندق المطار إن حدثت أية تطورات، ولكن الأمر كان مجرد حادث في الواقع... مجرد مزحة إن كنت تفهم ما أعنيه.

وتردد راقبه ريتشارد وهو يخرج من الغرفة بشيء من عدم الارتياح ويمضي إلى الشارع. أمل أن يكون قد تصرف بالشكل الصحيح، ولكن كان من الصعب على المرأة أن يعرف التصرف الصحيح وهو يجهل كل شيء كما كان شأنه.

قال الخادم: "لقد فرغ السيد كلايتون الآن"، تبعه ريتشارد في الممر، وكان ضوء الشمس يزداد كلما اقتربا من غرفة القنصل التي كانت آخر غرفة على الجهة اليمنى من الممر.

كان السيد كلايتون جالساً خلف مكتبه، وكان رجلاً هادئاً أنشأ الشعر ذا وجه دائم التفكير. قال له ريتشارد: لا أدري إن كنت تتذكرني؟ لقد قابلتك في طهران قبل عامين.

- طبعاً أنذكر. كنت مع الدكتور بانوسفوت، اليس كذلك؟ هل سننضم إليه مرة أخرى هذا العام؟

- نعم، أنا ذاهب إليه الآن، ولكن لدي يومين لا عمل لي فيها، وقد أردت السفر إلى الكويت. أنظن أن في ذلك صعوبة؟

- آه، لا، ستطلع طائرة صباح غد، ولا يستغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف. سأبقى لأركب غوت... إنه الموظف المقيم لنا هناك، وسوف يستضيفك هناك، وستستضيفك نحن هنا الليلة.

قال ريتشارد بشيء من الاحججاج: آه، لا أريد إزعاجكما أنت والسيدة كلايتون؟ يومسي الذهاب إلى الفندق.

- إن فندق المطار مثلي عن آخره، وسوف يسعدنا أن نستضيفك هنا. أننا واثق أن زوجتي ستسعد بلقائك مرة أخرى. إننا نستضيف حفيداً السيد كروسي من شركة النفط وشاباً مساعداً للدكتور راليون جاء إلى هنا للتخليص على بعض صناديق الكتب في لجمارك. هيا إلى الطابق العلوي نرى روزا.

ثم نهض ورافق ريتشارد خروجاً من الباب إلى الحديقة المشمسة، ثم صعد الاثنين درجاً يقضي إلى جناح المعيشة في القنصلية. دفع جيرالد كلايتون باباً من السلك المشبك عند أعلى المدرج وقاد ضيفه إلى مدخل طويل معتم قليلاً على أرضيته سجاد جميل وعلى جانبيه اثنتان بدل على الذوق، وقد ارتاح ريتشارد لدخوله هذه العتمة الباردة بعد وهج الشمس في الخارج.

نادى كلايتون زوجته التي كان ريتشارد يتذكرها كشخصية مرححة ذات حيوية طائفة، وسرهان ما خرجت السيدة كلايتون من غرفة في نهاية الممر.

- هل تذكرين السيد ريتشارد يكر يا عزيزتي؟ لقد سبق له أن زارنا برفقة الدكتور باونسفوت جونز في طهران.

قالت السيدة كلايتون وهي ترحب بضيفها: بالطبع. وقد ذهبتا معاً إلى السوق واشتريت أنت بعض السجاد الرائع.

كانت السيدة كلايتون -عندما لا يتاح لها الشراء شخصية- تجد لذة في حث أصدقائها ومعارفها على الشراء من الأسواق المحلية، وكانت لها خبرة عائلية في قيمة الأشياء، بالإضافة إلى كونها مفاوضة بارعة في الشراء.

قال لها ريتشارد: لقد كانت تلك أفضل عملية شراء أبرمتها في حياتي. والفعل كله يعود إلى تطفلك علي بخدمة رائعة.

قال السيد كلايتون: يريد ريتشارد السفر جواً إلى الكويت غداً، وقد قلّت له إن بوسنا استضافته هنا هذه الليلة.

قال ريتشارد معتذراً: ولكن إن كان في ذلك أي إزعاج -

فاطلعت السيدة كلايتون قائلة: لا يوجد أي إزعاج بالطبع. صحيح أننا لا نستطيع أن نوفر لك أفضل غرفة من غرف الضيوف (لأن الكابتن كروسي يشغلها)، ولكن بوسنا أن نريحك تماماً. هل تنوي شراء واحد من تلك الصناديق الكويتية الرائعة لحفظ الثياب؟ إن جبرالد لا بدعني أشتري صندوقاً آخر لبينا هنا، رغم أنه سيكون مفيداً تماماً لحفظ البطانيات الزائدة فيه.

علق زوجها قائلاً بلطف: لديك ثلاثة منها يا عزيزتي؟ حسناً،

بنتي أعترف الآن يا يكر. علمت العودة إلى المكتب؛ إذ يبدو أن مشكلة قد حدثت هناك. فهمت أن أحدهم أطلق النار من مسدسه.

قالت السيدة كلايتون: أحسبه أحد الشيوخ المحليين. إنهم سرهمو الاطفال كثيراً ويحبون الأسلحة النارية بشدة.

صاح ريتشارد قائلاً: "على العكس. كان من أطلق النار إنكليزياً، ويبدو أن هدفه كان إطلاق النار على رجل عربي". ثم أضاف بهدوء: وقد خرجت ذراعه.

قال السيد كلايتون: "لقد كنت في المصمعة إذن. لم أعرف ذلك". ثم أخرج من جيبه بطاقة وقراها فيها: يبدو أن اسمه روبرت هور. من شركة أكيل للخدمات. لا أدري لماذا أراد رؤيتي. هل كان لملأ؟

أجاب ريتشارد ببرود: لقد قال إنها كانت مجرد مزحة. وإن الممسس انطلق بالصدفة.

رفع كلايتون حاجبيه وقال: إن التجار المتجولين لا يحملون عادة مسدسات محشوة في جيوبهم!

وأي ريتشارد أن كلايتون لم يكن بالرجل المقتل. قال له: ربما كان عليّ أن أوقفه وأمنعه من الانصراف.

من الصعب معرفة ما على العره فعله في مثل هذه الحالات. هل أصيب الرجل الذي أطلقت عليه النار؟

- لا.

- ربما كان من الأفضل ترك المسألة عند ذلك الحد إذن.

- إنني أتأمل مما وراء ذلك.

- نعم، نعم... أنا أتأمل أيضاً.

بدأ كلايتون شارداً قليلاً، ثم قال وهو يسرع بالذهاب: حسناً، ينبغي أن أعود لمكتبتي.

اصطحبت السيدة كلايتون ريتشارد إلى غرفة الجلوس (وهي غرفة داخلية كبيرة ذات طناقي وستائر خضراء)، ثم سأله إن كان يفضل مشروباً حاراً أو بارداً فاختار الأخير، وسرعان ما جاءه كوب من العصير المثلج.

سأله عن سبب ذهابه إلى الكويت فآخبرها، وسأله عن سبب عدم زواجه فقال لها إنه لا يرى نفسه من النوع الذي يمكن أن يوفر ما يحتاجه الزواج من الاستقرار، وجواباً على ذلك سأرت السيدة كلايتون إلى القول إن ذلك هراء وإن الآخرين يصبون - عادة - أزواجاً راقعين. ثم سأله إن كانت أي شابة ستأتي للفصل في موقع المحفريات في هذه السنة، فأجابها بأن واحدة ستأتي أو اثنتين، بالإضافة إلى زوجة الدكتور بانسفورت طبعاً.

بعد ذلك دخل الغرفة رجل قصير قوي البنية خدمته السيدة كلايتون على أنه الكاشن كروسبي، وقالت له إن السيد ريتشارد يكره عالم آثار ينقب ويمتخرج تحفاً ثمينة جداً عبرها آلاف السنين.

قال الكاشن كروسبي: أنا لم أستطع أن أفهم - أبداً - كيف

يستطيع علماء الآثار أن يحددوا عمر هذه الآثار بدقة، ولقد رأيت دائماً أن علماء الآثار هؤلاء هم - دون شك - أكثر خلق الله كذباً، ها... ها... ها.

نظر إليه ريتشارد نظرة فيها شيء من السأم، فقال الكاشن كروسبي: حقاً، ولكن كيف يستطيعون معرفة عمر كل أثر؟

أجاب ريتشارد بأن شرح ذلك يتطلب وقتاً طويلاً، وسارعت السيدة كلايتون إلى أخذ ريتشارد لرقعة غرفته، وهناك قالت: إنه لطيف، ولكن له عيوباً. ليست لديه أية فكرة عن الثقافة.

وجد ريتشارد غرفته - وقد انفرد بها بنفسه - مريحة جداً، ويزداد إعجابه بالسيدة كلايتون كمضيفة ممتازة. ثم نحس جيب مسطحة فوجد فيه شيئاً، أخرجه فوجد - ورقة مسطحة مطوية. ونظر إليها مذهوئاً، فقد كان متأكداً أنها لم تكن في جيبه عند الصباح.

تذكر كيف أسلم العربي به عندما ترونج. إن من شأن رجل خفيف اليد أن يمس هذه الورقة في جيبه دون أن يحس هو بذلك. بعد ذلك فتح الورقة. كانت مسطحة، وبدا أنها طويبت ثم فُتحت مراراً عديدة من قبل.

كان فيها ستة أسطر ذات خط سي، وموضوعها تركيبة من البهر جون ويلر فورس لشخص يدعى أحمد محمد، يصفه فيها بأنه عامل مجيد ونشيط وفادر على قيادة شاحنة والقيام بتصلب حاجب ثانوية، وأنه نزيه جداً... وكانت مؤرخة قبل ثمانية عشر شهراً، وهو أمر لا يعتبر مستهجناً، إذ يحتفظ أصحاب تلك التزكيات بها بكل حرص ولفترة طويلة.

قطب ريتشارد جيه وأخذ يستعرض أحداث الصباح بطريقته الدقيقة المنظمة. لقد أصبح الآن متأكدًا تمامًا من أن لفيف كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان مطاردًا فاندفع إلى الفصيلة لماذا؟ ليجد الأمن؟ ولكنه وجد - بدلاً من ذلك - خطراً أشد وأقرب. فقد كان العدو (أو ممثل عن العدو) بانتظاره. لا بد أن هذا الناجر الجوال كانت لديه أوامر محددة تماماً حتى يُقدم على المحاربة ب إطلاق النار على كارمايكل في الفصيلة وبحضور شهود. لا شك أن الأمر كان عاجلاً ومُلحاً جداً إذن، وقد التمس كارمايكل مساعدة صديق دراسة قديم، واستطاع أن يمرر إليه هذه الورقة التي تبدو بريئة في ظاهرها. لا بد أن هذه الورقة شديدة الأهمية إذن، وإن استطاع أعداء كارمايكل أن يمسكوا به ويجدوا أنه لم يعد يمتلك هذه الوثيقة فلا شك أنهم سيجرون حساباتهم ثم يبحثون عن أي شخص أو أشخاص كان بوسع كارمايكل تحرير الوثيقة إليهم.

ماذا يفعل ريتشارد بيكر بهذه الورقة إذن؟ بوسعها أن يدفعها إلى السيد كلاتون باعتباره ممثلاً للحكومة جلالة الملكة. أم تراه يحضض بها في حوزته حتى يأتي الوقت الذي يطلبها كارمايكل؟

بعد لحظات من التفكير قرر ريتشارد اعتماد الخيار الأخير. ولكنه اتخذ - بدايةً - بعض الاحتياطات. مرق نصف ورقة بيضاء من رسالة قديمة، وجلس لكتيب تركية لاساق شاحنة بنفس الصفات التي ذُكرت في الورقة الأصلية، ولكن بصياغة مختلفة... فإن كانت تلك الرسالة شفرة معينة أمكن لهذه الجديدة أن تفسل من بقروها... مع أنه كان ممكناً - بالطبع - أن تكون رسالة مكتوبة بحبر سري ما.

ثم قام بتطخير الرسالة التي كتبها بالتراب من باطن حذائه وفركها بين يديه. ثم طواها وأعاد فتحها عدة مرات حتى بدت في حال معقولة من التقدم والانساخ، ثم كورها ووضعها في جيبه. أما الأصلية فقد نظر إليها لحظات وهو يفكر ويفرض العديد من التغيرات. وأخيراً ابتسم وراح بطوي الورقة حتى أصبحت مستطيلةً ضيقةً، ثم أخرج من حقيبته إصبعاً من المعجون (الذي لا يسافر دونه لحاجته إليه في عمله) وبدأ بأن أحاط الرسالة المطوية بقطعة من النايلون الذي لا ينفذ منه الماء اقتطعها من باطن حقيبته، ثم أحاطها بالمعجون تماماً. بعدها قام بدلك المعجون بشكل دائري، ثم سطحه حتى غداً ذا سطح أملس. وعندما مرّو على سطح المعجون ختماً دائرياً محفوراً بحيث أخذ شكل الختم.

نظر إلى ما فعله باستحسان. كان الشكل تصميمياً معقولاً بشكل جميل لإلهة الشمس. فاندعرو شمس التسلع بسيف العدالة. وقال لنفسه: لنأمل أن يكون هذا فالاً حياً.

في تلك الليلة، عندما بحث في جيب المعطف الذي كان يرتديه صباحاً، وجد أن الورقة الملفوفة التي كتبها قد اختفت.

• • •

مستخدمتها التي صنفها فكتوريا ثورارة لا نصفت. كانت السيدة كليب تختتم سلسلة ملاحظاتها قائلة: ... وليس هنالك شيء نظيف حقاً، إن كنت تفهمين قصدي، وأنا دائماً حذرة جداً جداً فيما أكله...

كانت فكتوريا تصفي إلى تلك الملاحظات المُحِطة من باب التواجب، ولكن شعورها الخاص بأنّ الشرق ظل متوحشاً، فالقفارة والجرار لم تكن لتعني لها شيئاً في عمرها الشاب، وصلنا إلى مطار هيثرو وقامت فكتوريا بمساعدة السيدة كليب على النزول من الحافلة. وكانت قد تولت أصلاً مسائل الجوازات والبطاقات والفود وغير ذلك. فالت لها السيدة كليب: إنه لمن المريح - بالتأكيد - اصطحابي إليك يا آنسة جونز. لا أدري ما الذي كنت سأفعله لو فُدر لي أن أسافر بمفردي.

رأت فكتوريا أن السفر جوة عملية تشبه الذهاب إلى وليمة مدرسية، فهناك يجد المرء الأساتذة (الطفاء رغم حزمهم) فريين منه جاهزين للمساعدة في كل أمر، وهنا أيضاً تعوم المضيقات بزيهن الموحدة ومن ينصرفن بسُلطة أشبه بسُلطة مربية تتعامل مع طفل قاصر عفياً، فيسرحن بلطف ودقة ما يتعين على المرء فعله. ولقد لو شئت فكتوريا أن تتوقع منهن استهلال كلامهن بعبارة: "والآن يا أطفال..."

وفي المطار جلس شباب يبدو عليهم التعب من موظفي الجوازات خلف مكابيحهم، يتأكدون من الجوازات باسم، ويسألون بصوت خافت عما يحمله كل مسافر من مال أو حلي. وقد أغلحوا في

الفصل السابع

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: ها هي الحيلة تفتح أمامي أخيراً! كانت تجلس في مقعدها في قاعة المطار، وما لبثت أن جاءت تلك اللحظة السحرية التي أطلق فيها النداء: "يرجى من المسافرين إلى القاهرة وبغداد وطهران أخذ أماكنهم في الحافلة".

أسماء سحرية، ورغم أنها كلمات تقتصد بريقها بالنسبة إلى السيدة كليب؛ فقد استنتجت فكتوريا أن السيدة كليب قد قضت جزءاً كبيراً من حياتها وهي تقفز من السفن إلى الطائرات، ومن الطائرات إلى القطارات، مع استراحات قصيرة بين الرحلة والرحلة. كانت تقضيها في أعلى الفنادق. أما بالنسبة لفكتوريا فقد كانت تلك العبارات تُغيّر راسماً عما اعتادت سماعه باستمرار: "ساملي عليك رسالة يا آنسة جونز... هذه الرسالة ملبنة بالأعطاء وعليك كتابتها من جديد... الإبرين ينهي أيتها الليت، من سعد الشاي؟... سأدلك على أحسن محل يصفغ الشعر...". أحداث يومية تافهة ملحة! لما الآن ببغداد والقاهرة وطهران... كل رومانسية الشرق العظيم (وفوق ذلك كله إدوارد)!

عادت فكتوريا من شرودها إلى أرض الواقع نسمع حديث

بث شعور بالذنب لدى من وُجِعت لهم تلك الأسئلة. ولقد شعرت فكتوريا - وهي التي تأثر بالإبهاء بطبيعتها - بشوق مفاجئ إلى وصف ذلك الدبوس الرخيص الذي تملكه بأنه تحفة المناسبة تستوي عشرة آلاف جنيه، وذلك لمجرد رؤية التعبير الذي سيظهر على وجه الشاب الضمير... ولكن تفكيرها يؤادوارد منها من ذلك.

وبعد اجتياز العديد من الحواجز جلس المسافرون في قاعة كبيرة تطل مباشرة على مدرج المطار، وفي الخارج كان هدير طائرة وهي تزيد نواحر محركاتها يكمل رسم الجو العام للمكان. أما السيدة كليب فقد كانت منشغلة الآن - بسماعة - في إطلاق تعليقات سريعة على بقية المسافرين: ألا يبدو هذان الطفلان هناك في حاية الذكاء؟ ولكن سفر المرأة بمفرده مع طفلين محنة لا توصف. أظنهما بريطانيين، ولكن البذلة التي تلبسها أمهما جيدة التفصيل، مع أنها تبدو متعبة بعض الشيء. ذلك الرجل وسيء، يبدو كالإسبان أو الإيطاليين. ما تلك الريمبات ذات اللون الفصاح التي يرتديها ذلك الرجل؟ أحسب ذلك ذوقاً سيئاً جداً. أظن رجل أعمال! أما ذلك الرجل هناك فهو ألماني؛ كان يقف أمامنا تماماً عند بوابة التفتيش. تلك العائلة هناك إما تركية أو إيرانية كما أظن. لا يبدو أن هناك أي أمريكيين. أحسبهم مسافرون على متن خطوط بان أميركان على الأغلب. رأي أن أولئك الرجال الذين يتحدثون هناك من العاملين في شركات النفط، ماذا يقولون؟ إنني أحب النظر إلى الناس والتساؤل عن أمورهم. يقول السيد كليب لي إن لدي ولماً بطابع النفس البشرية. يبدو لي أن من الطبيعي تماماً أن يهتم المرء بإخوته

من بني البشر. ألا تعتقد أن معظم القرو ذاك قد كلف أكثر من ثلاثة آلاف دولار؟

وأخيراً نهدت السيدة كليب بعدما فرغت من تأمل زملائها المسافرين. بدأت تتعلم، ثم قالت: بودي لو أعرف ما الذي تنتظره بجلسنا هذه. لقد هدرت تلك الطائرة أربع مرات لتسفين محركاتها ونحن كنا هنا. لماذا لا يمحسون قداماً في أمورهم؟ من المؤكد أنهم لا يلتزمون بموعدهم.

- أترغبين في كوب من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى مقصفاً في نهاية القاعة هناك.

- لا، شكرًا يا آنسة جونز. لقد تناولت القهوة قبل انطلافتنا ومعدتي مرتبكة الآن بحيث لا أستطيع تناول شيء. ولكن بودي أن أعرف ما لذي تنتظره؟

جاءت الإجابة على سؤالها هذا قبل أن تفرغ من طرحه؛ فقد انفتح حجة الباب المؤدي من قسم الجمارك والجوازات إلى القاعة ودخل منه رجل طويل القامة كما ندخل هبة ربيع قوية، وهرع موظفو المطار والخطوط الجوية حوله. وكان ثمة موظف يحمل كيسين ضخمين مختومين.

اعتذرت السيدة كليب في جلسنها متفظة وقالت: "إنه رجل ذو أهمية بالتأكيد"، وقالت فكتوريا لنفسها: "وهو يعرف ذلك تماماً".

كان في ذلك المسافر الأخير ما يوحي بشيء من تمسك الإثارة للعبة السحوية؛ فقد ارتدى ما يشبه رداء سفر رمادياً غامقاً ذا

غطاء فسخم للراس يندلى من الخلف، أما رأسه فكان مغطى بقبة كانت - في الحقيقة - كتعبات المكسيك العريضة، ولكن لونها كان رمادياً فاتحاً. وقد تدلى شعره الفضي الملبس طويلاً بعض الشيء. وكان شاربه الفضي الجميل يتمكف صعوداً عند طرفه. وهكذا أعطى شكله المام انطباعاً أقرب إلى ممثل بلادي دور قاطع طريق أجنبي.

نظرت فكتوريا إليه بعدم استحسان، إذ كانت تذكره الذين يتخذون سميت الممثلين في نصرقاتهم. وقد لاحظت - باستياء - أن موظفي الطيران كانوا يزدحمون حوله مدممين: نعم يا سير روبرت طبعاً يا سير روبرت، مستغلح الطائرة فوراً يا سير روبرت.

وبلغة لرداته السابغ عير السير روبرت الباب المفضي إلى أرض المطار وتأرجح الباب بقوة وراه. تمتعت السيدة كليب قائلة: انسير روبرت... من عساه يكون يا ترى؟

هزت فكتوريا رأسها حيرة، رغم أن شعوراً غامضاً قد انتابها بأن الوجه والمظهر العام لم يكونا غريبين عنها. قالت السيدة كليب: ربما كان شخصاً مهماً في حكومتكم.

- لا أظن ذلك.

كان العدد القليل من رجال الحكومة الذين اختتم فكتوريا قد أعطوها انطباعاً بأنهم رجال يكادون يهذبون حتى عن كونهم أحياء. ولم يكونوا يمثلون دور الواظف المتبجح إلا على منصات الخطابة.

قالت المضيفة المتأنقة بروح مربية تخاطب أطفالها: والآن

رجاء، ستأخفون أمّاكنكم في الطائرة. من هنا رجاء... بأسرع ما يمكنكم رجاء.

كاد موقفها يوحي بأن الأطفال الأثفيا قد أعاقوا كثيراً الكبار الصابرين. ونهض الجميع وخرجوا إلى أرض المطار حيث كانت الطائرة الضخمة في الانتظار ومحركها يهدر كزفير أسد ضخمة يمر عن وضاه.

تعلقت فكتوريا مع مضيفة لإدخال السيدة كليب ووضعتها في مقعدها، ثم جلست فكتوريا بجانبها باتجاه الممر الفاصل بين صفين المقاعد بعدما تأكدت من جلوس السيدة كليب في مقعدها بشكل مريح ووطعت حزام مقعدها، وعندها - فقط - أتيح لها الوقت لتلاحظ أن الرجفل العظيم يجلس أمامها.

أغلقت الأبواب، وبعد بضغ ثوان بدأت الطائرة تتحرك ببطء على المدرج. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها بانفعال: إننا نطلق حقاً. أه؟ أليس هذا مخيفاً؟ ماذا لو لم تستطلع الطائرة الإقلاع عن الأرض؟ إنني لا أفهم حقاً كيف يمكنها أن تقلع!

وخلال فترة بدت دحراً كاملاً دارت الطائرة حول المدرج، ثم استدارت ببطء وتوقفت نصاعدها حدير المحرك بشكل رهيب، وتم توزيع العلك والقطن. ثم تعالى الصوت أقوى فأقوى، وأشد فأشد، ثم تقدمت الطائرة مرة أخرى. بسيطة في البداية، ولكنها أخذت تسارع عاصفة أرض المخاض.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "إنها لن تقلع أبداً، وسوف تُقفل!"

وعندما حاولت قلب الصفحة بيدها السليمة انزلت المجلة ووقعت على الأرض.

نظرت فكتوريا حولها، ثم رأت أن السفر جواً مسألة صعبة حقاً. صحت مجلة، فوجدت أمامها مباشرة دعابة تقول: «هل تريدين زيادة كفاءة مكتبك؟» فنزلت المجلة وأغلقت المجلة، ثم أسندت ظهرها إلى مسند مقعدها وبدأت تفكر بإدوارد.

هبطت الطائرة بسافريها في مطار كاستيل بينيتو في طرابلس. انزعج أثناء عاصفة من الأمطار. وكانت فكتوريا قد غدت الآن مريضة بعض الشيء، ولذلك فقد احتاجت لاستجماع كل طاقتها لتقييم يواجهها تجاه مستشفياتها. وقد جيء بسيارة قاذهم وسط المطر المنهمر إلى الاستراحة. أما السير وويرت العظيم فقد لاحظت فكتوريا أن ضيقاً يرتدي بدلة رسمية وأشرطة حمراء قد كان في استقباله، وأنه أخذ على عجل سيارة عسكرية إلى بيت أحد المقتردين في المدينة.

تخصصت لهم غرف، وساعدت فكتوريا السيدة كليب في الاختصال وبديل الثياب، ثم تركتها لتراخى (في ثياب النوم) حتى يحين وقت الوجبة المسائية وعادت إلى غرفتها فتمددت وأغمضت عينيها وهي تشعر بالامتنان؛ إذ وهرت عليها الظروف هناك السفر بحراً والتأرجح في سفينة طوال الطريق.

استيقظت بعد نحو ساعة من ذلك وقد تحسن حالها ونشطت معنوياتها، وذهبت لتساعده السيدة كليب وسرعان ما جاءت مضيفة أكثر تسلطاً تقول: إن السيارات في انتظارهم لتقلهم إلى حيث وجبة

ولكن الطائرة تسارعت أكثر... ولم تعد ترتج أو تهتز، فقد أقلعت عن الأرض مرتفعة، ثم ارتفعت أكثر ليبدو تحتها قطار صغير تافه ينفث دخانه وببوت كيبيوت الدمى ودمى سيارات هلى انشوراع، ثم ارتفعت أكثر... وفجأة فقدت الأرض في الأسفل ما كانت تلقاه من اهتمام، فلم تعد فيها مظاهر الحياة والإنسانية، بل غدت مجرد خريطة ضخمة مبسطة عليها خطوط ودوائر ونقاط.

في داخل الطائرة حل المسافرون أحزمة الأمان، وأكملوا لفافات التبغ، وفتحوا المجلات. أما فكتوريا فقد كانت في عالم جديد... عالم طوله العديد من الأقدام وعرضه بضعة أقدام قليلة. يسكنه نحو من عشرين إلى ثلاثين شخصاً. وفيما عدا ذلك، لم يكن أي شيء موجوداً بالنسبة لها.

أطلت -ثانية- من النافذة الصغيرة فوجدت تحتها سحابة طيقات من الغيوم كأنها زغب القطن. هناك في مكان ما -تحت الغيوم- كان يرقد العالم الذي عرفته فكتوريا حتى الآن. اعتدلت وتماكنت نفسها. كانت السيدة كليب تتكلم، ونزعت فكتوريا القطن من أذنيها والتفت إليها بانتباه.

في المقعد أمامها نهض السير وويرت ونزع فحته ذات الحواف المريضة فوضها على الرق فوق رأسه، ثم غطى رأسه بالغطاء الملحق بأعلى رداكه واسترعى في مقعده. قالت فكتوريا لنفسها بتحيز لا مبرر له: يا له من حصار متبجح!

كانت السيدة كليب مستقرة في مقعدها وأمامها مجلة مفتوحة وكانت تثب فكتوريا -بين الحين والآخر- بحركة خفيفة من رقبها،

العشاء. وبعد العشاء التفرغت السيدة كليب في حديث مع بعض رفاق السفر، ويبدو أن الرجل الذي يرتدي معطفاً ذا مربعات صارخة اللون قد أعجب بفكتوريا، وقد أخبرها - بشكل مطول - بكل تفصيلات صناعة أفلام الرصاص.

بعد ذلك أُمِيع المسافرون إلى دار الاستراحة وقبل لهم إن عليهم أن يكونوا جاهزين للمغادرة في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي. قالت فكتوريا بشيء من الحزن: ولكننا لم نر الكثير من طرابلس، اليس كذلك؟ أمكننا يكون السفر بالطائرة دائماً؟

أجابتها السيدة كليب: نعم، هو كذلك كما أظن. إن طريقة إبقائهم للمرء في أول الصباح طريقة سيّدة تماماً. وبعد ذلك غالباً ما يتركوك تسكنين في المطار لساعة أو ساعتين! بل إني أذكر أنهم أيقظونا مرة في روما عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، وتناولنا الإفطار في المطعم في الساعة الرابعة، ولما ذهبنا إلى المطار لم تغادر عملاً إلا في الساعة الثامنة. ومع ذلك كله، فالجيد في سفر الجو هو أنهم يصلونك إلى وجهتك مباشرة دون لفّ ودوران في مختلف الأصقاع.

تهتدت فكتوريا، فقد كان يسعدّها الكثير من الملف والدوران؛ فهي تريد رؤية العالم. ومفتت السيدة كليب تقول بانفعال: أتدريين يا عزيزتي؟ تمرّين ذلك الرجل ذا المظهر المشير، الرجل البريطاني؟ ذلك الذي يدور اللفظ كله حوله. لقد اكتشفتُ من يكون. إنه السير روبرت كروفتن لي، الرحالة المعروف. لا شك أنك سمعت به.

نعم، تذكرت فكتوريا الآن إذ كانت قد رأت العديد من الصور

في الصحف قبل نحو ستة أشهر. كان السير روبرت عالماً حُجّة في ما يخص جغرافية الصين الداخلية. كان واحداً من القلائل الذين زاروا التبت وأوا لاسا، وكان قد جال في المناطق المجهولة من كردستان وآسيا الصغرى. وقد حققت كتبه مبيعات عالية لأنها نُسبت بأسلوب وشين ذكي. ولئن كان في سلوك السير روبرت ما يرحي بالدعاية للذات فقد كان له سبب وجيه يبرر له ذلك، وتذكرت فكتوريا الآن أن ردهم الظهريّ ذا غطاء الرأس الذي يتدلى خلفه وقبعته العريضة كان طرناً خاصاً ومقصوداً اختاره لنفسه.

تأملت السيدة كليب - بكل حماسة صائدي الأسود - بينما كانت فكتوريا تتطلّ أخفية السير حول جسدها المتدّد: اليس هذا مشير؟

وافضتها فكتوريا على أن ذلك كان مشيراً جداً، ولكنها قالت لنفسها: إنها تفضّل كتب السير روبرت على شخصيته؛ فقد رأت فيه ما يسميه العامة «مضغاً»!

كانت البداية مرتبة في صباح اليوم التالي. كان الجو قد صفاً والشمس قد أشرقت، وقد ظلت فكتوريا تشعر بشيء من غيبة الأمل لأنها لم تَرَ إلا القليل من طرابلس. ومع ذلك فقد كان مخططاً أن نصل الطائرة إلى القاهرة وقت الغداء، فيما لن تكون المغادرة إلى بغداد إلا في صباح اليوم التالي، ولذلك سيكون مقدورها على الأقل أن ترى شيئاً من مصر في فترة ما بعد الظهر.

كانت الطائرة تطير فوق البحر، ولكن سرعان ما غطت الغيوم منظر البحر الأزرق فتمددت فكتوريا في مقعدها وهي تتناهب،

الذكين، متفهقة تماماً على الذهاب للأهرامات أبداً، ولذلك
افترحت عليها أن نذهب معاً... إن كان ذلك يناسبك؟

كل شيء يناسب فكتوريا طالما أنها سترى العالم. وهكذا قالت
السيدة كليب: حسناً إذن، من الأفضل أن نغادر الآن مباشرة.

كانت فترة العصر عند الأهرامات ممتعة تماماً. ورغم أن
فكتوريا كانت تحب الأطفال عموماً، إلا أنها كانت تستمتع بهذه
الرحلة أكثر لو لم يكن طفلاً السيدة كينشن موجودة! فالأطفال
يصيرون مصدر إعاقة في أية نزهة يكون الهدف منها رؤية المناظر
أو الأثار، وقد غضب الطفل الأصغر كثيراً لأن المرأتين عادتا إلى
الحفلة في وقت أبكر مما كانا تهما.

رمت فكتوريا نفسها على السرير متعبة. تمتت كثيراً لو أنها
استطاعت المكنوت في القاهرة لمدة أسبوع... وربما السفر إلى أعالي
النيل. ولكنها سألت نفسها بازدياد قناعة: "وماذا تصنعين لتفطية
نفتانك يا فتاتي؟" ألا يكفي أن معجزة قد تدخلت لتأمين سفرها
إلى بغداد دون مقابل؟ سألتها صوت داخلي واقعي: "وماذا ستفعلين
عند نزولك في بغداد وليس في جيبك إلا بضعة جنيهات؟" ولكن
فكتوريا نعت هذا السؤال جانياً، إذ ينبغي لإدوارد أن يجد لها عملاً.
وإذا لم يستطع فإنها ستجد هي عملاً لنفسها. فلماذا القلق؟

أغلقت عينها بهدوء بعد أن بهرما ضوء الشمس الساطع. ثم
نهضت على صوت قرع نيكلة على باب غرفتها. صاحبت: "ادخل"،
ولما تم تجد جواباً نهضت عن السرير وقطعت الغرفة إلى الباب
وتفتحه. ولكن الطريقة لم تكن على بابها، بل على الباب الذي يليه

وأمامها كان السير روبرت قد غط في النوم. كانت الفلنسة قد سقطت
عن رأسه الذي انحنى للأمام مهتزاً بين الحين والآخر. ولا حظت
فكتوريا -بشيء من المتعة الحادثة- أن له بكرة متورمة تبدأ عند مؤخرة
عنته. أما سبب استماعها تلك الحقيقة فقد كان غضباً على النفس...
وبما لأن ذلك جعل الرجل العظيم يبدو أكثر إنسانية وحميماً، فيها هو
لا يختلف عن غيره من الناس... عرضة لإزعاجات الجسد الصغيرة.
ويمكن القول إن السير روبرت قد حافظ على سلوكه المتعالي ولم
يأبه قيد شعرة برفاق سفره. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: من تراه
يظن نفسه؟

ولكن الجواب كان واضحاً، فقد كان السير روبرت كروفتون
الذي رجا شهرته. وكانت هي فكتوريا جونز سطاها على السرير في
لها وليست لها أية قيمة.

عند الوصول إلى القاهرة تناولت فكتوريا والسيدة كليب الغداء
معاً، ثم أعلنت الأخيرة أنها ستأخذ قيلولته حتى الساعة السادسة،
وأشارت إلى أن فكتوريا ربما أعجبها أن تذهب لرؤية الأهرامات. ثم
قالت: لقد ربيت لك أمر سيارة تكون معك - يا آنسة جونز - لأنني
أعرف أنك لا تستطيعين صرف أية أموال هنا بسبب تعليمات وزارة
المالية البريطانية.

أحبست فكتوريا (التي لم يكن معها أصلاً مال لتفقه) بالامتنان،
وعبرت عن امتنانها بشيء من الخجل. فقالت السيدة كليب: ليس
هذا بشيء أبداً. لقد كنت لطيفة جداً جداً معي، وإن سفرنا بالدولار
يجعل كل شيء سهلاً بالنسبة لنا. إن السيدة كينشن - صاحبة الصين

في الممر. كانت واحدة أخرى من أولئك المضيفات اللاتي لا مهرب
منهن، ذات شعر أسود وزى مرتب، تفرع باب غرفة السير ووعرت
وقد نزع الباب في الوقت الذي أطلقت فيه فكتوريا من بابها وقال
بصوت مزهج ناعس: ما الأمر؟

تمتمت المضيفة بصوت ناعم: إنني آسفة جداً على إزعاجك
يا سير ووبرت، ولكن هل لك أن تأتي إلى مكتب شركة الطيران؟
إنه على بعد ثلاثة أبواب من هذا الممر. الأمر مجرد قضية صغيرة
نحسب وحللتنا غداً إلى بغداد.

- آه، حسناً.

انسحبت فكتوريا إلى غرفتها، وقد أصبحت أقل نعاساً الآن.
نظرت إلى ساعتها فوجدتها لم تتجاوز الرابعة والنصف بعد؛ أي أن
أمامها ساعة ونصفاً قبل أن تحتاجها السيدة كليب. قررت الخروج
والمشي في القاهرة، فالحشي لا يحتاج نقوداً على الأقل.

أصلحت من هبتها وارتدت حذاءها الذي شعرت أنه ضاق
على قدميها (لقد سببت الرحلة إلى الأهرامات ورماً فيها)، ثم
خرجت من الغرفة ومشت في الممر باتجاه القاعة الكبيرة للفندق.
وبعد ثلاثة أبواب عبرت مكتب خطوط الطيران الذي خلّقت على يابه
لوحة تؤكد ذلك، وفيما هي تمير أمامها انفتح الباب وخرج منه السير
روبرت مسرعاً بحيث تجاوزها في خطوتين ومضى أمامها ورداه
بطير خلفه، وتخلّل لفكتوريا أنه مزهج من شيء ما.

كانت السيدة كليب في مزاج محكّر بعض الشيء عندما جاءت

فكتوريا في الساعة السادسة. قالت: إنني فلتة بشأن الزيادة في وزن
أمتعتي يا آنسة جونز. لقد كنت أظن أنني دفعت أجور الأمتعة لكامل
الرحلة. ولكن يبدو أن ما دفعته كان أجور شحن الأمتعة إلى القاهرة
فحسب. سنسافر غداً على متن الخطوط الجوية العراقية. إن بطاقتي
تغطي كامل الرحلة، ولكنها لا تغطي الزيادة في وزن الأمتعة. هل
لك أن تدفع لي؟ إن كان الأمر حقاً كذلك؟ لأنني قد اضطر إلى
صرف شيلّين سياحي آخر.

وافقت فكتوريا على الاستفسار عن ذلك. ولم تستطع - في
البدائية - العثور على مكتب الخطوط الآخر، ثم وجدته أخيراً في
الممر الآخر البعيد، في الجانب الآخر من القاعة، وكان مكتباً
ضخماً. وقد اقترعت أن المكتب الآخر كان صغيراً ولا يُستخدم
إلا خلال استراحة ما بعد الظهور. وقد تبين أن مخالوفة السيدة كليب
بشأن الزيادة في وزن الأمتعة كانت في مكانها، وهو ما أزعج السيدة
كليب كثيراً.

* * *

- لقد دخلت إلى تلك المصحة. أخبرتك بذلك من قبل، فقد كانت أختها تخضع لعملية.

- نعم، وبعد ذلك؟

• مضت العملية بشكل جيد. وقد توغنا عودة أ. ش. إلى فندق سافوي من جديد، إذ كانت قد أبقت على حجز جناحها... ولكنها لم تعد! وقد أبقينا رقاية على المصحة وكنا متأكدين تماماً أنها لم تغادرها. افترضنا أنها ما تزال هناك.

- وهي ليست هناك؟

- لقد اكتشفنا -لونا- أنها قد غادرت المصحة، في سيارة إسعاف، وذلك في اليوم الذي أعقب العملية.

- لقد عدتكم عامدة، أليس كذلك؟

- يبدو الأمر كذلك. ولكنني مستعد لأن أقسم بأنها لم تعرف أن أحداً يتحققها، فقد أخذنا كل الاحتياطات، وكان بينها ثلاثة منا
...

- دع عنك المبررات. أين أخذتها سيارة الإسعاف؟

- إلى مستشفى الجامعة.

- وماذا قالوا لك في المستشفى؟

- قالوا إن مريضة قد أُدخلت برفقة ممرضة. لا شك أن

الفصل الثامن

في الطابق الخامس من مجمع للمكاتب في مدينة لندن تقع مكاتب شركة فالهالا للتراموفون. كان الرجل الجالس خلف المكتب هناك يقرأ كتاباً في الاقتصاد، ورن جرس الهاتف فرفع السماعة وقال بصوت هادئ: يغلو من العاطفة: شركة فالهالا للتراموفون.

- هل ساندروز هنا؟

- ساندروز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. بخصوص أ. ش. لقد فقدنا أثرها.

سادت لحظة صمت، ثم تكلم الصوت الهادئ من جديد، ولكن بنبرة فولاذية قاسية: أتراني سمعت ما قلته بشكل صحيح؟

- لقد فقدنا أثر أنا سيل.

- لا تستخدم أسماء. هذه خلطة خطيرة جداً منك... كيف

حدث ذلك؟

المرضة كانت أنا شيل. ولا يدرون أين ذهبت الممرضة بعد أن أدخلت المريضة.

- وماذا عن المريضة؟

- المريضة لا تعرف شيئاً فقد كانت تحت التخدير.

- إذن فقد خرجت أنا شيل من مستشفى الجامعة بزي ممرضة، وربما كانت الآن في أي مكان؟

- نعم، ولكن إن عادت إلى فندق سافوي...

قاطعه الآخر قائلاً: إنها لن تعود إلى السافوي.

- هل تبحث في الفنادق الأخرى؟

- نعم، ولكنني أشك في إمكانية وصولكم إلى أية نتائج؛ فهذا ما متوقع منكم فعله.

- هل من تعليمات أخرى في هذه الحالة؟

- فتشوا في المواقف... في دوفر، وفوكستون وغيرهما. تشوا في الخطوط الجوية، وخصوصاً دفقرا في كل الحجزات إلى بغداد في الأسبوعين القادمين. إن البطاقة لن تُحجز باسمها نفسه، ولذلك دفقوا في جميع المسافرين ممن تتقارب أعمارهم مع عمرها.

- ولكن أمتعتها ما تزال في الفندق. ربما عادت لأخذها.

- لن تقوم بأي تصرف من هذا القبيل. ربما كنت أنت مغفلة، ولكنها ليست بالمغفلة. هل تعرف أختها شيئاً؟

- إننا على اتصال بممرضتها الخاصة في المصحة. يبدو أنها ترى أن أ. ش. في باريس تعقد صفقات لمصلحة مورغانثال، وهي تبيع في فندق ريتز. وهي ترى أن أ. ش. سيعود إلى الوطن في الثالث والعشرين من الشهر.

- أي أن أ. ش. لم نخبرها شيئاً. نعم، ما كانت لتخبر أحداً. دفقوا لنا في أمر حجزات الطيران تلك. إنها أمتنا الوحيد. إنها مضطرة للذهاب إلى بغداد... والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توصلها في زمن قصير. ثم... اسمع يا ساندوز.

- نعم؟

- لا أريد حالات فشل أخرى. هذه غرضتك الأخيرة.

* * *

هذا الانفعال والضعف بشأن هذا الرجل. حتى العاملون في المجال الأمني منفعلون بشأنه. إنه واحد من أولئك الجواله حول العالم، تراه دوماً في أماكن نائية على جملته. لا أدري لماذا يكون بمثل هذه الأهمية، ولكن يبدو واضحاً أنه شديد التميز في اختصاصه، ومطلوب مني أن أكتب أدنى رغبة له. ربما غضب كثيراً إذا ما وصلت الطائرة طريقها وأخفته إلى البصرة. لا أدري ما هي الترتيبات التي يحسن بي إجراؤها. أأذهب إليه بالطيار الليلية؟ أم أجعل القوة الجوية الملكية تحضره غداً؟

تهدد السيد شريفنهام مرة أخرى مع تعمق إحساسه بالغبن والمسؤولية، فتمد وصوله إلى بغداد قبل ثلاثة أشهر ظل حظه سيئاً باستمرار، وقد شعر بأن من شأن تأنيب آخر يثقله من رؤسائه أن يفقد حياة مهنية كان يمكن لها أن تكون واعدة جيدة.

انحدرت الطائرة فوقهما مرة أخرى. وقال شريفنهام: "من الواضح أن الطيار يرى صعوبة في الهبوط"، ثم أضاف بانفعال: "آه، أظنه يهبط".

بعد ذلك بلحظات كانت الطائرة قد حطت بهدوء في مكانها، ووقف شريفنهام جاهزاً لتحية سيفه الكبير. لاحظت هيئة غير الخيرية دفنة جميلة بعض الشيء قبل أن يقفز إلى الأمام لتحية الرجل الذي يشبه الفرسان بردائه المتطاير. وفكر قائلاً لنفسه بالشمس: "إنه رأي غريب للثفان"، فيما كان يقول لضيفه في نفس الوقت: السير روبرت كروفتن لي؟ أنا شريفنهام. من السفارة.

رأى أن السير روبرت كان مقتضباً بعض الشيء في كلامه بشكل

الفصل التاسع

نقل السيد شريفنهام، الشاب العامل في السفارة البريطانية، ثقله من إحدى قدميه إلى الأخرى ونظر إلى الأعلى فيما كانت الطائرة تميل تميل متجهة نحو مطار بغداد. كانت زويدة رملية كبيرة تتقدم مثقلة باليوت والناس وأشجار التخييل بفلاحة بنية كثيفة، وقد جاءت تلك العاصفة فجأة دون مقدمات. قال بأسى عميق: الأرجح أن لا يستطيعوا الهبوط هنا.

سأله صديقه هارولد: ماذا سيفعلون إذن؟

- انظروهم سيمضون في الطيران إلى البصرة. سمعت أن الجو صافٍ هناك.

- أنت في استقبال شخصية كبيرة، أليس كذلك؟

دمدم الشاب شريفنهام مرة أخرى يتذمر قائلاً: إنه سوء طالع. فالسفير الجديد تأخر في الالتحاق بعمله، والمستشار لانزداون في إنكلترا، ورايس (المستشار للشؤون الشرقية) مريض في فراشه، مصاب بأنفلونزا معدية وحرارة مرتفعة إلى حد خطير. وببست في طهران، وما أنا ذا بمفردي أتحمّل كل شيء. لا أدري سبباً لكل

لحظة؟ نعم، على الجانب الأيمن، حيث تلك الأواني هناك.

نهادت السيارة باتجاه الرصيف الأيمن وتوقفت. وكان هناك محل للأواني الفخارية تكومت فيه مختلف أنواع الخزفي والأباريق. وكان ثمة رجل أوروبي قصير القامة قوي البنية يتحدث مع صاحب الدكان، وما لبث أن تحرك باتجاه الجسر عند اقتراب السيارة. وقد ظن شريفنهام أن الرجل هو كروسي الذي سبق له أن التقاه مرة أو مرتين.

قفز السير روبرت من السيارة ومشى إلى محل الفخاريات، ثم أخذ إحدى الجرار وشرع في حديث باللغة العربية مع صاحب المحل. وكانت سرعة الحديث أكبر من أن يستطيع شريفنهام فهمه بعربيته التي كانت -حتى الآن- بطيئة قليلة المفردات ويكلفه الحديث بها عتلاً عظيماً.

كان صاحب المحل يتسم مآذ ذراعيه وهو يوشر ويشرح بإسهاب. وأمسك السير روبرت بعدة أوان فخارية، وبدأ أنه ي طرح أسئلة عنها. وأخيراً اختار إبريق ماء ذا فم ضيق وأعطى الرجل بعض النفود المعدنية وحاد إلى السيارة قائلاً: أسلوب تشكيلها مميز. إنهم يصنعون هذه الفخاريات منذ آلاف السنين، لها نفس الشكل الذي رأيته لأبنة في إحدى هضاب أرمينيا.

أدخل أصبعه في فوهة الإبريق الضيقة وأخذ يتحسس الفتحة من الداخل. وقال شريفنهام دون تأثر: صناعة بدائية تماماً.

- آه، ليست لها قيمة فنية! ولكنها مهمة من الناحية التاريخية.

أترى مكان أذن الإبريق هنا؟ إن يوسعك النقاط الكثير من المعلومات والحقائق التاريخية من ملاحظة الأشياء البسيطة في الحياة اليومية. إن لدي مجموعة من هذه الفخاريات.

انطلقت السيارة ودخلت بوابة السفارة البريطانية. وطلب السير روبرت أن يتم أخذه إلى غرفته مباشرة. وقد استمتع شريفنهام بملاحظة أن السير روبرت -وقد انتهت محادثته عن آنية الفخار- قد تركها في السيارة دون اهتمام. وقد نعهد شريفنهام أن يحملها إلى الطابق العلوي ويضعها -بكل حرص- على الطاولة قرب سرير السير روبرت قائلاً: إبريقك يا سيدي.

- ماذا؟ آه، شكرًا يا بني.

بدأ السير روبرت شاكراً، وقد غادره شريفنهام بعد أن كرر على مسامعه أن الغداء سيكون جاهزاً بعد قليل. وعندما غادر الشاب الغرفة ذهب السير هنري إلى النافذة وفتح الواجهة الصغيرة التي كانت معلقة في عتق إبريق الفخار. متدحفاً استوت، وكان فيها سطران من الكتابة. قرأهما يتعمق أكثر من مرة، ثم أحرق الورقة بعود ثقاب. وبعد ذلك استدعى خادماً.

- نعم يا سيدي؟ هل أخرج أمتعتك من الحفائب؟

- لا لا ليس الآن. أريد رؤية السيد شريفنهام... هنا.

جاء شريفنهام وشي من ملامح الخشية لروح عليه، وقال: هل من خدمة أستطيع تقديمها يا سيدي؟ هل يوجد خطأ؟

- سيد شريفتهام، لقد حدث تغير كبير على خططي. إنني
أستطيع طبعاً الاعتماد على كتمانك، أليس كذلك؟

- آه، بكل تأكيد يا سيدي.

- لقد مر وقت طويل منذ أن جئت إلى بغداد آخر مرة، بل
إنني لم آت إلى هنا منذ الحرب عملياً. أظن أن الفنادق موجودة غالباً
على الجانب الآخر من النهر، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، في شارع الرشيد.

- وظهروا إلى نهر دجلة؟

- نعم. وفندق قصر بابل هو أكبرها، وهو الفندق الرسمي
تقريباً.

- ماذا تعرف عن فندق يدعى فندق تيو؟

- آه، كثير من الناس يقعون إلى هناك؛ طعامه جيد، ويديره
رجل ذو شخصية رائعة يدعى ماركوس تيو. إنه رجل مشهور تماماً
في بغداد.

- أريد منك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفتهام.

قال شريفتهام بخشية مرتبكة: أتعني... أنك لن تقيم في مقر
السفارة؟ ولكن الأمور كلها معدة على هذا الأساس يا سيدي.

صاح السير روبرت: ما أجد. يمكن إلغاؤه.

- آه، طبعاً يا سيدي. إنني لم أقصد...

توقف شريفتهام. كان ينتابه شعور بأن أحداً ما سيلومه في
المستقبل. ولكن السير روبرت مضى قائلاً: لدي بعض المفاوضات
الحساسة بعض الشيء، وقد فهمت أنها لا يمكن أن تتم انطلاقاً من
السفارة. أريد منك أن تحجز لي غرفة الليلة في فندق تيو، وأرغب
في مغادرة السفارة بشكل لا يلفت الأنظار أي إنني لا أريد الذهاب
إلى الفندق بسيارة تابعة للسفارة، كما أنني أريد حجز مقعد على
الطائرة المغادرة إلى القاهرة بعد غد.

بدأ شريفتهام أكثر عصبية وأسى وقال: ولكنني فهمت أنك
ستبقى خمسة أيام...

- لم بعد الأمر كذلك. من الأهمية البالغة أن أصل القاهرة
حالما ينتهي عملي هنا. لن يكون بياقي أكثر من ذلك مسألة أمانة.

- أمانة؟!

ابتسم السير روبرت ابتسامة مفاجئة غيرت ملامح وجهه
وأراحته عنه تلك السمة التي كان شريفتهام يشيئها بسمة ضابط
تدريب بروسى. لهجة أصبح سحر الرجل ظاهراً وقال: أتفق معك
على أن الأمان لم يكن من مشاغلي عادة، ولكن - في هذه القضية
بالذات - لست سلامتي الشخصية فقط هي ما ينبغي علي التفكير
فيه... لسلامتي هنا تعني سلامة الكثير من الناس أيضاً. ولذلك قم
بإجراء تلك الترتيبات لي. وإذا ما تعرفت الحجز على متن الطائرة
فتقدم بطلب أولوية. سأبقى في غرفتي إلى أن يعين موعد مغادرتي
الليلة.

وعندما فتح شريفتهام فاه ليتكلم أضاف السير روبرت: رسمياً

قل إنني مريض. عدوى ملاريا، بحيث لن أحتاج إلى طعام.

- ولكننا نستطيع أن نرسل لك...

قاطعته السير هنري قائلاً: إن صيام أربع وعشرين ساعة من الطعام لا يعني شيئاً بالنسبة لي، لقد جعلت لفترات أطول من ذلك في بعض رحلاتي. اصنع فقط ما أقوله لك.

في الطابق السفلي جاء زملاء شريفنهام بحبرونه وبنادولون، ودعدهم هو مجيئاً على تساؤلاتهم: إنها قصة دسائس ونجس على مستوى كبير. لا أستطيع أن أفهم تماماً تبجح السير روبرت كروفتن لي. هل سلوكه هذا أصيل أم مجرد تصنع وتمثيل. الرداء المتطايير وقبعة الأشقياء... إلى آخر تلك المظاهر. لقد أخبرني بعض من قرؤوا كتبه بأنه - رغم مبالغته في الدعاية لنفسه - قد قام فعلاً بكل تلك الأمور وذهب إلى كل تلك الأصقاع. ولكني لا أدري... ليت توماس رايس قد شفي من مرضه ليتعامل مع هذا الأمر. وبالمناصبة، لقد ذكرتوني، هل سمعتم بشيء يدعى شيل غرين؟

قال صديقه متجهماً: إنه مادة كيميائية... مما نستخدمه الزوجات لقتل أزواجهن، أو العكس.

اتكفأ شريفنهام إلى حالة من الصمت المذهور؛ فقد بدأت تنضح له بعض الحقائق الكريهة. لقد أشار كروفتن لي إلى أن توماس رايس، مستشار السفارة للشؤون الشريفة، ربما لم يكن يعاني من التهاب المعدة والأمعاء، بل من نسم بالزرنخ. ويضاف إلى ذلك أن السير روبرت أشار إلى أن حياته هو في خطر، وقد أدى قراره بعدم تناول أطعمة وأشربة مُحضَّرة في مطبخ السفارة البريطانية إلى

هو روح التزامة البريطانية هند شريفنهام من الأعماق. لم يستطع تخيل معنى لهذا الأمر كله.



هذه اللقافة الغريبة؟... (أيها الحمقى، لا تحملوا الحقائق بهذا الشكل! أغبياء! لا تجرر ذلك المعطف!)... ولكن يا عزيزي، كيف وصلتم في مثل هذا اليوم؟ لقد طشت أن الطائرة لن تهبط أبداً، فقد ظلت تدور وتدور، وقلبت لنفي: كلاك والسفر جواً يا ماركوس... لماذا كل هذه العجولة؟ وما قد أحضرت شابة معك... من الرابع دوماً رؤية شابة جديدة في بغداد... لماذا لم يأت السيد هاريسون لاستقبالك؟ لقد توقعت مجيئه أمس... ولكن هيا، ينبغي أن نشتري شيئاً على الفور.

والآن ها هي فكتوريا تقف وهي تحس بشيء من الدوار في غرفة جدواؤها مبيضة بعاء الكلس فيها سرير نحاسي ضخم، وطاولة زيتة فرنسية حديثة الطراز، وخزانة ملابس قديمة فكتورية الطراز، وكريسيان منجدتان بقمماش ذي ألوان بهيجة. وها هي أمتعتها المتواضعة تستقر عند قدميها، وعجوز هرم جداً ذو وجه أصفر وشعر أبيض على وجته يحييها ويومن لها وهو يضع مناشف جديدة في الاحتام ويسألها إن كانت تريد أن يسخن لها الماء للاستحمام.

وحين انسحب الشيخ باتسامة أبوية جلست فكتوريا على السرير ومرت كلفها على شعرها، فوجده مبلداً بالغباء، فيما تمر وجهها وأخير لونه. نظرت إلى نفسها في المرأة فرأت أن التراب قد غبر لون شعرها من الأسود إلى لون بني مجرب غريب. وفتحت الستارة قليلاً ونظرت إلى الشرفة الواسعة التي تطل على نهر دجلة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن رؤيته من النهر سوى همامة صفراء كثيفة. فالت فكتوريا لنفسها وقد داهمتها كآبة عميقة: يا له من مكان كره!

الفصل العاشر

لم يكن انطباع فكتوريا الأول عن بغداد إيجابياً وهي تتنفس تراباً أصفر عاتقاً. ومن المطار وحتى فندق تيو كانت أذناها عرضة لضجيج مستمر متصاعد: أبواق السيارات تزهق بإصرار مجنون، وأصوات تصيح، وصفارات تصفر، وفوق ذلك أبواق الدراجات النارية التي تصم الأذان. وفوق ضجيج الشارع كله كان بأنبها صوت السيدة كليب الرقيق المستمر وهو يتكلم. وهكذا وصلت فكتوريا إلى فندق تيو في حالة ذهول ورجوم.

كان هناك زقاق صغير ينفرد من شارع الرشيد باتجاه دجلة، وبعد ذلك عدة درجات تؤدي إلى مدخل الفندق. وعند ذلك المدخل وقف لتحيتهما شاب شديد البسمة ذو ابتسامة عريضة كاد (مجازياً على الأقل) أن يأندهما بالاحضان، وفدوت فكتوريا أن هذا هو ماركوس... أو بالأحرى تيو، صاحب الفندق.

اختلطت كلمات ترحيبه بالأوامر التي كان يطلقها بصوت عالٍ للمحاليين الذين كانوا يتفوقون الأمتعة: ها أنت قد شرتنا مرة أخرى يا سيدي كليب... ولكن ما بال ذراعك... لماذا تضعينها في

قالت السيدة كليب بارتياح: وبما كنت -إذن- قد أخطأت في تذكر الاسم... ولكنها بالتأكيد فتاة رائعة وتقديرية جداً.

قالت الأخرى ياسلوبي من لا يريد إيداء رأيي! ها!

قررت فكتوريا أن تبعد عن هذه المرأة قدر إمكانها؛ فقد شعرت بأن مشروع قصصى لإقناع هذا النوع من السيدات لبس بالأسهل السهل، هادت إلى غرفتها وجلست على السرير معلقة لنفسها هناك التأمل بوضعها الراهن. إنها تقيم في فندق تيو، وهي واثقة تماماً أنه ليس بالفندق الرخيص، وهي لا تمتلك بحوزتها سوى أربعة جنيهات وسبعة عشر شلنًا. وقد تناولت غداء دسماً لم تدفع ثمنه بعد، وثبتت السيدة كليب معجزة على دفع ثمنه؛ فقد كانت أجور السفر إلى بغداد هي ما عرضته السيدة كليب، وقد اكتسبت الصلقة، ووصلت فكتوريا إلى بغداد، وقد تلقت السيدة كليب الرعاية المحترفة من ابنة أخ أسقف وممرضة سابقة وسكرتيرة قديمة، وانتهى كل ذلك بما برهني الطرفين. ستأخذ السيدة كليب بقطار المساء إلى كركوك... وبذلك ينتهي كل شيء. تسلمت فكتوريا بشيء من الأمل في أن السيدة كليب ربما أصرّت على منحها هدية بمناسبة انتهاء خدماتها على شكل دفعة نقدية، ولكنها تخلت عن الفكرة بتردد باعتبارها فكرة غير محتملة، فقد لا تعرف السيدة كليب أبداً أن فكتوريا في حاجة ماسة للمال.

ما الذي ستفعله فكتوريا إذن؟ جاءها الجواب فوراً: العثور على إدوارد بالطبع! وعندئذ أدركت -بشيء من الانزعاج- أنها لا تعرف أبداً اسم عائلة إدوارد كل ما تعرفه هو إدوارد و... ببغداد.

نهضت وصبرت استراحة الدراج ثم طرقت باب السيدة كليب. سيطلب منها الأمر هنا تقديم خدمات عديدة مطولة للسيدة كليب قبل أن تنفرغ هي لتنظيف نفسها واستعادة مظهرها.

وبعد أن اغتسلت وتناولت غداءها وأخذت قيلولته طويلاً، خرجت فكتوريا من غرفتها إلى الشرفة ونظرت إلى دجلة باستحسان. كانت العاصفة الرملية قد تلاشت، وبذل الغمامة الصفراء ظهر على النهر ضوء صافٍ باهت اللون، وغلف النهر انصبص ظلال رقيقة لأشجار النخيل والبيوت المبعثرة دونما انتظام.

تناهت إلى مسامع فكتوريا أصوات من الحديقة أسفل منها، فتقدمت إلى طرف الشرفة ونظرت تحتها. كانت السيدة كليب (تلك المتكلمة التي لا تتعب) قد تعرفت -بسرعة- على امرأة إنكليزية من أولئك النسوة اللاتي سمعت بشرتهن الأنوثة الجوية ولا يكاد المرء يحزر لهن عمراً محدداً ويمكن للمرء أن يرى مثيلاتها في أية مدينة غربية. كانت السيدة كليب تقول: ... ولا أدري ما الذي كنت سأفعله دونها. إنها أعذب فتاة يمكن لك تصورها كما أنها ذات صلات واسعة مرموقة؛ إنها ابنة أخ أسقف لانغو.

- أسقف ماذا؟

- أسقف لانغو كما أظن.

قالت الأخرى. هراء. لا يوجد مثل هذا الشخص.

قطعت فكتوريا جبينها؛ فقد ميزت في هذه المرأة نموذج المرأة الإنكليزية الرقيقة التي لا تتخذه يذكر أسافطة مزيفين.

إذن ينبغي عليها العثور على إدوارد فوراً، وينبغي على إدوارد أن يبحث لها على عمل... فوراً أيضاً.

إنها لا تعرف اسم عائلة إدوارد، ولكنه جاء إلى بغداد كمكتير لشخص يدهي الدكتور رايتون، ويُفترض أن هذا الرجل مهم وذو مركز مرموق. وهكذا أصبحت فكتوريا تبحثها ومشطت شعرها ثم نزلت الدرج بحثاً عن المعلومات.

كان ماركوس، ذو الابتسامة العربية، يعبر صالة الفندق ضحياًها قائلاً: آه، الأنسة جونز. ما رأيك في القدوم معي لنشرب الشاي معاً يا عزيزتي؟

وافقت فكتوريا بسعادة (وهي التي لا تعارض الضيافة المجانية أبداً). جلسا على طاولة في المقصف، وبدأت بحثها عن المعلومات: هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور رايتون جاء إلى بغداد لنوه؟

أجاب ماركوس توبومرغ: أنا أعرف كل من في بغداد، وكل من في بغداد يعرفون ماركوس. إن ما أقوله لك صحيح. آه! إن لدي الكثير الكثير من الأصدقاء.

- أنا واثقة من ذلك. هل تعرف الدكتور رايتون؟

- في الأسرع الماضي نزل هندي في الفندق قائلاً القوة الجبرية الذي يتولى قيادة الشرق الأوسط كله. وقد قال لي: "أبها الشقي ماركوس، لم أرك منذ عام ١٩٤٦، وأنت لم تخف شيئاً من ذلك!". إنه رجل رائع جداً، أحبه كثيراً.

- وماذا عن الدكتور رايتون؟ أهو رائع أيضاً؟

- تلك السيدة هامبتون كليب... يا له من اسم! تلك التي جئت معها، أمريكية، ليس كذلك؟ إنني أحب الأمريكان. ولكنني أحب الإنكليز أكثر. هل تعرفين السيد سارز؟ إنه يشرب كثيراً عندما يأتي إلى بغداد يبحث يذهب لينام ثلاثة أيام متواصلة!

- أرجوك أن تساعدني.

بدأ ماركوس مدهوشاً وقال: بالطبع سأساعدك. إنني أساعد دوماً أصدقائي. قلني ماذا تريد... وسيتخذ في الحال. شريحة لحم مميزة، أم ديك حبش مع الأرز والزبيب. أم تفضلين الفرايج الصغيرة؟

قالت: "لا أريد فرايج صغيرة"، ثم أضلقت بشيء من الوقاحة: "ليس الآن على الأقل... أريد العثور على هذا الدكتور رايتون، الدكتور رايتون. لقد وصل لشو إلى بغداد مع... مع سكرتير له.

- لا أدري، إنه لا يقيم في تيو.

كانت الإشارة واضحة إلى أن كل من لا يقيم في فندق تيو ليس له وجود بالنسبة لماركوس. ألغت فكتوريا قائلة: ولكن توجد فنادق أخرى؟ أو ربما كان له بيت خاص؟

- آه، نعم. توجد فنادق أخرى قصر بابل، وسنحارب، وفندق زبيدة... وهي فنادق جيدة، ولكنها ليست مثل تيو.

طأنته فكتوريا قائلة: أنا واثقة أنها ليس كفندق تيو، ولكن

ألا تعرف إن كان الدكتور واليون بقيم في أي منها؟ إنه يدير جمعية ما... شيئاً ذا علاقة بالثقافة والكتب.

غداً ماركوس شديد الجدية لذكر الثقافة قال: إنها ما نحتاجه. يجب أن يكون لدينا الكثير من الثقافة. فن وموسيقى... أمور رائعة، رائعة جداً. أنا - شخصياً - أحب السمونات التي تُعرف على الكمان، إن لم تكن طويلة جداً.

وفي حين كانت فكتوريا توافقه على كل شيء، وخاصة على عبارته الأخيرة، أدركت أنها لا تقرب أبداً من هدفها. رأت أن الحديث مع ماركوس سهل جداً. وأن ماركوس شخص جذاب بحماسة الطفولية للحياة، ولكن الحديث معه ذكرها بحي «أليس في بلاد المعائب» للنعور على درب يقودها إلى التل؛ فقد كان كل موضوع ينتهي إلى نقطة انطلاقه الأولى... ماركوس!

نهضت حزمة وخرجت إلى المصطبة الخارجية ووفت قرب سياجها تنظر إلى النهر، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً من خلفها يقول: عفواً، ولكن من الأفضل أن تذهبي وترتدي معطفاً. أظن أن الجو يبدو لك صيفياً كونك قادمة من إنكلترا، ولكنه يبرد كثيراً عند الغروب.

كانت تلك هي المرأة الإنكليزية التي رأتها فكتوريا تتكلم مع السيدة كليب قبل قليل. كان صوتها أجش خشناً كما لو كانت متعade على تدريب كلاب صيد تديم الصباح فيها، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو وتضع بطانية على ركبتيها.

قالت فكتوريا: "آه، شكراً لك"، وكانت على وشك الانسحاب

بسرعة، ولكن نواياها لم تنلح، إذ قالت لها المرأة: ينبغي أن أعرفك بنفسي. أنا السيدة كاديو تريتش. أظن أنك وصلت مع السيدة... ما اسمها؟ السيدة كليب.

- نعم، هذا صحيح.

- لقد أخبرني أنك ابنة أخ أسقف لانغو

استجمعت فكتوريا قواها وسألت بالقدر المناسب من العجب اللاهي: أوحقاً قالت ذلك؟!

- أيمكن أن تكون قد أخطأت في الاسم؟

قالت فكتوريا: "يميل الأمريكيون لحفظ بعض أسمائنا بشكل خاطئ. ولكن الاسم يشبه قليلاً اسم لانغو". ثم قالت وهي ترتجل بسرعة: إن عمي هو أسقف لانغاو.

- لانغاو؟!

- نعم... في أريجيل المحيط الهادئ. إنه أسقف المستعمرة هناك بالطبع.

قالت السيدة تريتش وقد خفّت نبرة صوتها ثلاث درجات صوتية على الأقل: آه، أسقف المستعمرة؟

وكما توقعت فكتوريا فإن السيدة تريتش كانت جاهلة تماماً بأساقفة المستعمرات. أصابها السيدة تريتش قائلة: "هذا يفسر

الأمر"، وفكرت فكتوريا بفخر بأن هذا يفسر الأمر بشكل رائع بالنسبة إلى كذبة كانت مرتجلة من وحي اللحظة!

سألت السيدة تربتش بذلك المود اللطيف الذي لا يقاوم والذي يخفي خلفه فصولاً طبعياً: وماذا تفعلين أنت هنا؟

إن جواباً من قبيل: "أبعثُ من شاب تحدثت معه لعدة دقائق في حديقة عامة في لندن" لا يكاد يكون جواباً يمكن لفكتوريا أن تجيب به. تذكرت ذلك المقطع الذي قرأته في الصحيفة وما قالته للسيدة كليب بناء عليه ثم قالت للسيدة تربتش: إنني سألتحق بعمي؛ الدكتور باونسفوت جونز.

- آه، تلك هي أنت إذن؟

بدأ سرور السيدة تربتش واضحاً لمكانتها من "تجديد موقع" فكتوريا، وأضافت: يا له من رجل ضئيل رائع! رغم أنه شارد الذهن قليلاً. ومع ذلك أظن أن الشهود مسألة متوقعة منه. لقد سمعته يحاضر الستة الماضية في لندن. كانت محاضرة رائعة... رغم أنني لم أفهم حرفاً مما قيل فيها. نعم، لقد مرّ من بغداد قبل نحو أسبوعين، وأظنه أشار إلى فتيات سيلتحقن به في وقت لاحق.

سأرحت فكتوريا -وقد رشت الآن هونها ومكانتها- إلى طرح سؤال: هل تعلمين إن كان الدكتور واليون هنا في بغداد؟

- لقد جاء لئود. أظنهم طلبوا منه إلقاء محاضرة في المعهد يوم الخميس القادم، محاضرة عن "الأخوة والعلاقات الدولية"... أو موضوعاً من هذا القبيل. وهذا كله هراء إن أردت رأيي. كلما حاول

المرء التفریب بین الناس كلما ازدادت شكوكهم بعضهم ببعض. كل هذا الشر والموسيقى وترجمة شكسبير إلى الحرية والصينية والهندوسية... إلى آخر ذلك. ما فائدة هذا كله؟

- هل تعرفين أين يقيم؟

- أظنه في فندق القصر البابلي، ولكن مقر عمله قرب المتحف. إنه يسمى «غصن الزيتون»... اسم سخيف، وهو مليء بالفتيات ذوات السراويل العربية والنظارات والرقاب المنصهرة.

- إنني أعرف سكرتيره معرفة بسيطة.

- آه، نعم... ما اسمه؟ إدوارد. إنه شاب لطيف، وهو أفضل من أن يُحسّر في عمل سنائي كعمل السكرتاريا. سمعت أنه أبلى بلاء حسناً في الحرب، ومع ذلك فالعمل هو العمل. إنه شاب وسيم، ويخيل لي أن وجوده نعمة على أولئك الفتيات هنالك.

شعرت فكتوريا بوعز خيرة مدمرة وقالت: «غصن الزيتون».. أين قلبك مكانه؟

- هناك بعد منطلق الجسر الثاني، في أحد فروع شارع الرشيد... غير بعيد عن سوق النحاس. ولكن كيف حال السيدة باونسفوت؟ هل سنأتي قريباً؟ سمعت أن صحتها كانت سيئة؟

ولكن بعد أن حصلت فكتوريا على المعلومات التي تريدها لم تعد راغبة في المجازفة بالمزيد من القصص المخترعة. نظرت إلى الساعة في معصمها وهتفت: آه، يا إلهي! لقد وعدت بإيقاظ

السيدة كليب في الساعة السادسة والنصف ومساعدتها في التحضير للرحلة. علي أن أذهب بسرعة.

كان العذر صحيحاً تماماً، رغم أن فكتوريا قد استبدلت الساعة السادسة والنصف بالساعة السابعة. هرعت صاعدة على الدراج بحوية ثامة، إذ أنها ستري إدوارد غداً في «مقهى الزيتون». فتيات جادات متسخرات الرقاب! هذا يوحي بأنهن أبعد ما يكنّ عن الجاذبية... ومع ذلك فكرت فكتوريا بقليل بأن الرجال أقل ملاحظة وانتقاداً للرقاب المتسخة من النساء الإنكليزيات الكهلات اللاتي يولين عناية خاصة للنظافة العامة من أمثال السيدة تريتش!

مرّ المساء سريعاً، وتناولت فكتوريا وجبة مبكرة في غرفة الطعام مع السيدة كليب التي لم تترك موضوعاً لم تخض فيه بالتفصيل. وقد حثت فكتوريا على الذهاب لزيارتها يوماً ما في كركوك... وقد كتبت فكتوريا العنوان بعناية (لأن المرء لا بدري ما تأتي به الأيام)، ثم وافقت السيدة كليب إلى محطلة بغداد الشمالية وأطمأنت على جلوسها بارتياح في مقصورتها.

هدر محرك القطار بصيحات عالية كتيبة، ورمت السيدة كليب بمغلف بين يدي فكتوريا قائلة: «هذه مجرد ذكرى بسيطة يا آنسة جونز لرفقتنا السعيدة جداً، وأرجو أن نقبلها مع خالص شكرى وعرفاني».

فالت فكتوريا بصوت فرح: «هذا -حقاً- مبالغة في اللطف من طرفك يا سيدة كليب».

أصدر محرك القطار صيحة ألم رابعة وأخيرة، ثم تمحرك ببطء

خارج المحطة. واستغلت فكتوريا سيارة أجرة من المحطة عائدة إلى الفندق، إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفية العودة بوسيلة أخرى ولم تعرف من يمكن أن تسأله. ولدى عودتها لفندق نيو هرعت إلى غرفتها في الطابق العلوي وفتحت المغلف بلهفة فوجدت داخله زوجاً من جوارب النايلون النسائية.

كان من شأن فكتوريا -في أية مناسبة أخرى- أن تفتش بهذه التهديّة؛ فقد كانت جوارب النايلون دوماً سلعة لا تملك شراءها، ولكنها -في هذه اللحظة بالذات- كانت تمنى مبلغاً نقدياً. لقد كانت السيدة كليب من الرقة واحترام مشاعر الآخرين بحيث لم تفكر في إعطائها ورقة من فئة خمسة دنانير، ولكن فكتوريا تمتنت من كل قلبها لو لم تكن السيدة كليب على هذا القدر من الرقة.

على كل حال، غداً ستكون مع إدوارد. أوت إلى سريرها لتغيط في سبات عميق خلال خمس دقائق، حاملة بأنها كانت تنتظر إدوارد في أحد المطارات، ولكن فتاة تضع نظارات منته من اللعاق بها بأن أمسكت به بإحكام من عنقه بينما بدأت الطائرة تتحرك ببطء...



- أنعرفه معرفة جيدة؟

- لا، هذه أول مرة أراه فيها. لقد أحضره إلى هنا ليلة أمس السيد شريفتهام العامل في السفارة البريطانية. والسيد شريفتهام رجل لطيف جداً أيضاً، وأنا أعرفه هو حق المعرفة.

الفصل الحادي عشر

تساءلت فكتوريا - وهي ذاهبة لتناول الإفطار - إن كان ثمة شخص واحد لا يحتره ماركوس لطيفاً جداً؟ فقد بدا لها الرجل سخياً جداً في عواطفه.

استيقظت فكتوريا على صباح شمس بهيج. وبعد أن ارتدت ملابسها خرجت إلى الشرفة العريضة لغرفتها. نظرت فرأت على إحدى الشرفات القريبة رجلاً جالساً وظهروه باتجاهها وشعره الأشيب طويل على شكل خصللات دائرية تمتد نزولاً إلى رقبته السمراء المحمرة. وعندما أدار الرجل رأسه أدركت فكتوريا - بإحساس من الدهشة - أنه السير روبرت كروفتن لي. وما كان يوسعها أن تفسر سبب دهشتها الكبيرة تلك، ولكن ربما كان ذلك لأنها افترشت - تسليماً - بأن شخصاً بارزاً مثل السير روبرت كان من شأنه أن يقيم في السفارة لا في فندق. ومع ذلك ها هو يجلس هناك يتحدث إلى دجلة بشي - من التركيز الشديد. بل إنها لاحظت أن لديه منظاراً مقرباً وضعه على الكرسي بجانبه، ولذلك رأت فكتوريا أنه ربما كان من هواة مراقبة الطيور ودراساتها.

نزلت فكتوريا إلى الطابق السفلي فالتقت بماركوس نيو في طرفها وقالت له: أرى أنكم تستضيفون السير كروفتن لي هنا.

- آه، نعم. إنه رجل لطيف... لطيف جداً.

بعد الإفطار بدأت فكتوريا مهمة البحث عن «فصن الزيتون». وراعتها من أهل لندن. فإنها لم تكن تعرف شيئاً من مصاعب العثور على مكان محدد في مدينة كينغداو حتى بدأت مهمة البحث تلك. لقد التقت بماركوس ثانية عند خروجها وطلبت منه أن يذهبها إلى المتحف فقال ميمساً: إنه متحضر رائع جداً. نعم، عليّ بالأشياء المثيرة القديمة جداً جداً. صحيح أنني لم أزره شخصياً، ولكن لديّ أصدقائه من علماء الآثار الذين يقيمون هنا دوماً عند مرورهم من بغداد. السيد ريتشارد بيكر مثلاً... هل تعرفينه؟ والبروفسور كالشمان، والدكتور باونسفوت جونز، والسيد ماكتاير وزوجته... جميعهم يأتون إلى الفندق، وهم يخبروني عما هو موجود في المتحف، وهي أمور مثيرة جداً جداً.

- أين هو المتحف وكيف أصل إليه؟

- تسيرين على طول شارع الرشيد... وهي مسافة طويلة، وتعبين التقاطع الذي يقضي إلى جسر فيصل كما تعبرين شارع البنوك... هل تعرفين شارع البنوك؟

- لا أعرف شيئاً.

- ثم نجدين هناك شارعاً آخر... وهو يفضي أيضاً إلى جسر،
ونجدن المتحف هناك إلى يمينك. اسألي عن السيد بيتون إيفانز،
فهو مستشار إنكليزي هناك، وهو رجل لطيف جداً. وزوجته لطيفة
جداً أيضاً، جاءت إلى هنا برتبة عريف في قسم النقل خلال الحرب
آه، إنها لطيفة جداً جداً.

- أنا لا أريد حقاً الذهاب إلى المتحف تحديدًا، ولكنني أريد
العثور على مكان... جمعية أو نادٍ يدعى «غصن الزيتون».

- إن كنتِ تريدِينَ زيتوناً أعطيتكِ زيتوناً رائعاً من نوعية جيدة
جداً، وهم يحتفظون به خصيصاً لي... أو لفندق تيو. سأرسل لك
بعضاً منه إلى طاولتك الليلة.

قالت له فكثوريا: "هذا لطف كبير منك"، ثم نجت منه لتذهب
إلى شارع الرشيد، فقال لها وهي ذاهبة: سيري على اليسار لا على
اليمين. ولكنه طريق طويل! من الأفضل أن تأخذي سيارة أجرة.

- وهل يعرف سائقو سيارات الأجرة أين يقع «غصن
الزيتون»؟

- لا! إنهم لا يعرفون أي مكان! أنتِ نقولين لهم: شمالاً،
يميناً، مباشرة، توقف. إلى أن نصلي مبتغاك.

- من الأفضل أن أمشي في هذه الحالة.

وصلت شارع الرشيد وانعطفت شمالاً. كانت بغداد تختلف

كأياً عن الفكرة التي كانت في ذهنها عنها. شارع كبير مكثظ
بالتاس، وسيارات تطلق أبواقها بشدة، وأناس يتصايحون، وبضائع
أوروبية للبيع في واجهات المحلات. ما من أشكال شرقية غامضة.
وكان الرصيف - تحت قدميها - غير مسترٍ لتلوة الحفر بين مسافة
وأخرى.

تابعت طريقها وقد أحسّت - فجأة - بأنها غريبة ضائعة بعيداً
عن وطنها. لا يوجد هنا بريق للسفر، لا يوجد إلا القومسي. وأخيراً
وصلت إلى جسر فيصل فغيرته واستمرت في المشي. وقد أسرها
- رغماً عنها - ذلك المزيج الغريب للأشياء في واجهات المحلات!
إذ توجد هنا أحذية الأطفال وملابسهم الصوفية، ومجموعات الأسنان
ومواد التجميل، والمصاييح الكهربائية اليدوية وأواني وفناجين
البورسلان... وكلها معروضة معاً على صعيد واحد. بدأ نوع من
الافتتان يسيطر عليها، افتتان بالضائع الآتية من كل أنحاء العالم
لتلبي الحاجات الغريبة المتنوعة لمجتمع متنوع.

وجدت المتحف ولكنها لم تجد «غصن الزيتون»، وبدأ لها
- وهي المعادة على العثور على طريقها في لندن - أن من الغريب
تماماً أن لا يوجد من تستطيع أن تسأله، فلم تكن تعرف العربية،
وأولئك من أصحاب المحلات الذين كلموها بالإنكليزية ثروياً
لبضائعهم قابلوها بوجوه تائهة عندما سألتهن عن الطريق إلى «غصن
الزيتون».

لو كان بمقدور المرء فقط أن يسأل شرطياً! ولكنها أدركت وهي
تنظر إلى رجال الشرطة وهم يلوحون بأيديهم ويطلقون صافرتهم بأن
ذلك لن يكون حلاً هنا.

دخلت إلى مكتبة عرضت في واجهتها كتباً إنكليزية، ولكن
سؤالها عن «غصن الزيتون» لم يقابل إلا بربع المكتفين وهز الرأس
تأسفاً، وكان مؤسفاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا المكان. بعدها
تناهت إلى أذنيها - وهي تمشي في الشارع - أصوات طقطقة وطرق
قوي فأطلت إلى زقاق طويل قليل الإضاءة، وتذكرت قول السيدة
كارديو ترينتش إن «غصن الزيتون» قريب من سوق النحاس. ها هو
إذن - على الأقل - سوق النحاس.

دخلته فكتوريا، ونسيت «غصن الزيتون» تماماً خلال ثلاثة
أرباع الساعة التي تلت ذلك. لقد فتحها سوق النحاس... الأنايب
الفاذقة للنار لأغراض اللحام، والمعدن الذائب، والصناعة اليدوية،
كلها جاءت بمثابة رؤيا تكشف تلك اللذنية المعنادة فقط على
البضائع الباهظة للمكتسة لأغراض البيع. تجولت في السوق على
غير هدى، ثم خرجت من جانبها الآخر لتأتي إلى حيث سروج الخيل
المقلّمة، وأعطية الأسرة القطيعة. هنا تكتسب البضائع الأوروبية
مظهراً مختلفاً تماماً، فهي العتمة الباردة للزقاق المسقوف تصبح
لهذه البضاعة الصفرة الغريبة التي تميز شيئاً جاء مما وراء البحار،
شيئاً غريباً ونادراً. أكوام من الملابس القطيعة الملونة بألوان زاهية
فرحة تسر الناظر إليها.

مشيت لكتوريا كما لو كانت في حلم سعيد، هذه هي «حقاً»
رؤية العالم. في كل منطف في عالم السوق المسقوف الرطب هذا
يقابل المرء شيء لم يكن يتوقعه أبداً... زقاق للخياطين، يجلسون
وهم بدرزون الثياب وخلفهم صور لبدلات أنيقة يرتديها رجال
أوروبيون. مع ساعات وحلي رخيصة. أبواب ملفوفة من قماش

المغفل وغيره... ثم تتحلف فجأة ترى نفسك في زقاق للملابس
الأوروبية الرخيصة المستعملة، سترات باهتة الألوان تثير الشفقة،
وصدرجات طويلة مطّت حتى فقدت شكلها الأصلي. وبين المحين
والآخر تكاد نلمح فتحات نفسي إلى باحات واسعة هادئة متفتحة
على السماء.

وصلت إلى صف طويل من خياطي السراويل الرجالية،
والعديد من التجار يجلسون متريعين في تلك القسحات المربعة
الصغيرة أمام دكاكينهم.

جاء من خلفها حمار حُمِل أكثر من طاقته فجعلها تضج له
الصجال وتدخل زقاقاً ضيقاً غير مسقوف تمرّج بين بيوت عالية. وفيما
كانت تمشي في ذلك الزقاق اعتدت - بمحض الصدفة - إلى يمينها؛
فقد نظرت من خلال إحدى الفتحات في الزقاق إلى باحة مربعة
صغيرة، وفي الطرف البعيد من الباحة كان باب عُلق فوقه لوحة
كبيرة كتب عليها «غصن الزيتون»، وبجانبها عصفور من الجص سيء
المنظر يحمل في منقاره غصناً غريب الشكل.

أسرعت فكتوريا - بفرح - لعبور الباحة، ثم دخلت الباب لتجد
نفسها في غرفة قليلة الإضاءة فيها طاولات مليئة بالكتب والمجلات،
فيما اصطف المزيّد من الكتب على الرفوف. يبدت الغرفة أشبه بمكتبة
ليبيع الكتب لولا وجود هذه من الكراسي التي اصطفت هنا وهناك.
ومن العتمة جاءت إلى فكتوريا شابة قالت لها بلغة إنكليزية حذرة:
بماذا أستطيع مساعدتك، لطفاً؟

نظرت إليها فكتوريا. كانت ترندي يتطالاً فطيناً سميكاً وقميصاً

برتقائياً، وكان شعرها أسود تم قصه ليصبح قصيراً فوق الرقبة.

قالت فكتوريا: أهذا... أهذا... هل الدكتور رايتون هنا؟

من المثير للجنون أن لا تعرف اسم عائلة إدوارد حتى الآن! حتى السيدة كارديو تربتش أسمت إدوارد فقط. قالت الفتاة: نعم، هل ترغين بالانضمام إلينا؟ سيكون ذلك رائعاً.

- ربما... إنني... هل أستطيع رؤية الدكتور رايتون رجاء؟

ابتسمت الشابة ابتسامة متعبة وقالت: نحن لا نزعجه. إن لدي امتحارة وسأشرح لك كل شيء، وبعد ذلك نوقمين الامتحارة. ثمنها ديناران رجاء.

قالت فكتوريا وقد هالها ذكر الديتارين: كنت واثقة -بعد- من هزمي على الانضمام إليكم. أرغب برؤية الدكتور رايتون... أو سكرتيريه. تكفي مقابلة السكرتير.

- أنا سأشرح لك، سأشرح لك كل شيء. نحن كلنا أصدقاء هنا، أصدقاء معاً، أصدقاء من أجل المستقبل... نفراً كتباً تربوية رائعة جداً... ننشد الأسماء بعضنا على بعض.

قالت فكتوريا بصوت عالٍ وواضح: سكرتير الدكتور رايتون، لقد أوصاني بمحدد بأن أسأل عنه.

اكتسب وجه الفتاة شيئاً من التكد المعاند وقالت: ليس اليوم. أنا أشرح...

- لماذا ليس اليوم؟ أليس موجوداً؟ أليس الدكتور رايتون هنا؟

- بلى، إنه هنا... في الطابق العلوي، ولكننا لا نزعجه.

اكتسح فكتوريا نوع من الغضب وقالت بنبرة تكاد تكون نبرة السيدة كارديو تربتش نفسها: "لقد وصلت لتوي من إنكلترا وعندي رسالة مهمة جداً للدكتور رايتون ينبغي علي تسليمها له شخصياً. يرجى أن تأخذيني إليه على الفور! إنني أسفة على إزعاجه، ولكنني مضطرة لرؤيته". ثم أضافت لتنتهي الموضوع: على الفور!

استدارت الفتاة فوراً وقادتني إلى مؤخرة الغرفة، ثم صعدت بها درجاً، وقادتني عبر ممر يطل على الباحة. وهناك توقفت أمام أحد الأبواب وطرقت، فجاء من الداخل صوت رجل قائلاً: ادخل.

فتحت الفتاة الباب وأشارت لفكتوريا بالدخول قائلة: إنها سيدة من إنكلترا جاءت لرؤيتك.

دخلت فكتوريا. ونهض رجل لتجنبها من خلف مكتب ضخم نظيف الأوراق. كان رجلاً كهلاً مهيب المظهر في نحو السنين من عمره ذا جبين عالٍ مقوس وشعر أبيض، وكانت الإنسانية والطف والسعر أبرز خواص شخصيته. وكان من شأن مخرج مسرحي أن يستد إليه -دون تردد- دور المحب العظيم للشبهة العامل من أجلها.

جاء فكتوريا بابتسامة دافئة ويد ممدودة وقال: لقد جئت لتوك من إنكلترا إذن. أهى زيارتك الأولى للشرق؟

- نعم.

- إني لأتساءل عن رأيك به الآن... لا بد أن تخبريني برأيك يوماً ما. والآن لأفكر، هل سبق لي مقابلتك من قبل؟ إني أعاني من قصر نظر شديد، وأنت لم تعطيني اسمك.

- أنت لا تعرفني، ولكنني صديقة لإدوارد.

- صديقة لإدوارد. هذا رائع. وهل يعرف إدوارد أنك في بغداد؟

- لم يعرف بعد.

- ستكون هذه مفاجأة سارة له عندما يعود.

قالت فكتوريا بصوت من أسقط يده: يعود؟

- نعم! إدوارد في البصرة حالياً. اضطرت لإرساله إلى هناك لاستلام بعض مستندات الكتب التي جاءتنا. لقد حدثت تأخيرات مزعجة جداً في الجمارك فلم نستطع التخليص عليها. لا حل لذلك إلا بالحضور الشخصي هناك، وإدوارد بارع في مثل تلك الأمور ولن يهدأ له بال حتى ينتهي من الأمر. إني أفكر إدوارد كثيراً.

ثم رمى عينييه وقال: ولكن لا أظنني بحاجة لمدح إدوارد على مسامحة ما فاتني.

سألت فكتوريا بصوت واهن: متى... متى سيعود من البصرة؟

- هذا ما لا أستطيع تحديده الآن. لن يأتي قبل أن يشجز مهمته... ولا يستطيع المراه استكمال الأمور كثيراً في هذا البلد. أخبريني أين تقوين وسأجعله يتصل بك بمجرد عودته.

قالت فكتوريا بإس وحي تدرك محتتها المالية: كنت أتساءل... كنت أتساءل إن... إن كان بوسعي القيام بعمل ما هنا؟

قال الدكتور رايتون بحرارة: هذا ما أفكره. نعم، بوسعت طبعاً. إننا بحاجة إلى كل العاملين، إلى كل العون الذي يمكننا الحصول عليه، وخاصة الفتيات الإنكليزيات. إن عملنا يسير بشكل رائع، بشكل رائع تماماً، ولكن لدينا الكثير مما ينبغي فعله. ومع ذلك فالناس متحمسون. إن لدي الآن ثلاثين مساعداً منطوعاً... ثلاثين... وكلهم شديداً الحماسة! وإذا ما كنت جادة بالفعل فيمكن أن تكوني قيمة جداً بالنسبة لنا.

وقعت كلمة «منطوع» وقوعاً سيئاً على مسامع فكتوريا فقالت: لقد أردت -في الواقع- وظيفة بأجر.

بدت الخيبة على وجه رايتون وقال: أه! هذه مسألة أصعب. إن ملاكنا العاملين بأجر صغيرو جداً، وهو كافي تماماً حالياً، مع ما نحصل عليه من مساعدة تطوعية.

قالت: "لا يسمع وضعي المالي إلا بالحصول على وظيفة بأجر". ثم أضافت دون أي خجل: إني طابعة احتزال قديرة.

- أنا واثق أنك قديرة بما فتاتي العزيزة إنك نشقين كفاءة إذا صح التعبير، ولكن قضيتنا هي قضية نقص الأموال. ولكن حتى إن

لم تملك فكثوريا إلا أن تشعر بأن الدكتور واليون كان مبالغ في تنازله وانخراعه بأن كل هذه العناصر المتناثرة التي تلقي بسحب بعضها بعضاً بالضرورة؛ فهي وكاثرين -مثلاً- لم تحب إحداهما الأخرى أبداً، وقد كانت مفتحة بأن زيادة عشرتيها لن تؤدي إلا إلى زيادة الكراهية بينهما.

قال الدكتور واليون: إن إدوارد، والي، فهو ينجم بسرعة مع الجميع، وهو وكاثرين منجلمان جداً بشكل خاص.

قالت فكثوريا ببرود: "حقاً؟"، وازدادت حدة كراهيتها لكاثرين.

قال راينولد وهو يسم: حسناً، تعالي لمساعدتنا عندما نستطيعين.

كانت عبارته إشارة إلى انتهاء المرافقة، وخرجت فكثوريا من الغرفة نازلة الدرج. كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث مع فتاة كانت قد جاءت لنوها حاملة حقيبة صغيرة بيضاء. كانت فتاة سمراء جميلة، وتحمل لفكثوريا -الحظة فقط- أنها وأنها من قبل في مكان ما، ولكن الفتاة نظرت إليها دون أن تبدر عليها أي إشارة نفي بأنها تعرف فكثوريا. كانت الفتاتان تتحدثان بلهفة معاً بلغة لا تعرفها فكثوريا، وعندما وصلت سكنا وبقينا صامتتين نظران إليها. مشيت وهربت منهن إلى الباب، وأجبرت نفسها وهي خارجة على أن تقول لكاثرين بأدب: "وداعاً".

شدت حبلتيها من الزقاق إلى شارع الرشيد، ومشت ببطء عائدة إلى الفندق وهي تكاد لا ترى حشود الناس حولها. حاولت أن

حصلت على وظيفة في مكان آخر فلنني أمل أن تساعدنا في أوقات فراغك. معظم العاملين معنا لهم أعمالهم الخاصة التي يعيشون منها. أنا والفرق أنك ستجدين مساعدتك لنا امرأة يثر الحماسة ويسمر بالروح. لا بد من وضع نهاية لكل الوحشة في العالم ولكل الحروب وسوء الفهم والشكوك. إن ما نحتاجه جميعاً هو أرضية مشتركة نجتمع عليها. الدراما، الغنى، الشعر... عظام الروح... لا مكان هناك للكراهية والأحقاد الصغيرة.

قالت فكثوريا بارتياح: "نعم". وتذكرت أهداء لها كانوا مثليين وفنانين وبدت حياتهم كلها أحقاداً على أنه الأسباب، وكراهية كأشد ما تكون للكراهية. مضى الدكتور راينولد قائلاً: لقد ترجمنا مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» إلى أربعين لغة مختلفة، أي أن أربعين مجموعة مختلفة من الشباب يستجيبون ويفعلون جميعاً بعمل أدبي رائع واحد. الشباب... هذا هو السر. لا فائدة ترجى عندي إلا من الشباب؛ فبمجرد أن تقسو وتتجهر العقول والأرواح يكون الوقت قد فات. نعم، الشباب هم من ينبغي عليهم التوحد. غدي -مثلاً- تلك الفتاة التي استقبلتني في الطابق السفلي. إنها صوبية من دمشق، ووبها كنت أنت وهي من عمر واحد. إنكما لن تلتقيا في الأحوال العادية، إذ لن يكون بينكما شيء مشترك. أما هنا في «حصن الزينون» فإنكما مع غيركما من المراقبات والتركيات والأرمينيات والمصريات والإيرانيات تلقيين جميعاً، وبحسب بعضكم بعضاً، وتقرأن نفس الكتب، وتناقشن الأفلام والموسيقى، وكلكن تكشفن أشياء، وتتفعلن بتبادل أفكار ووجهات نظر مختلفة... هذا ما ينبغي أن يكون عليه حال العالم.

تشغل عقلها عن التفكير بمحتتها الخاصة (كمفلسة في بغداد) وذلك بتكرير تفكيرها على الدكتور رايتون ومجمل تركيبة «غصن الزيتون». لقد كانت لدى إدوارد في لندن فكرة بأن في هذا الأمر شيئاً مريباً. ما هو المريب؟ الدكتور رايتون؟ أم «غصن الزيتون» نفسه؟ لا تكاد فكتوريا تصدق أن في الدكتور رايتون شيئاً مريباً؛ فقد بدا لها واحداً من أولئك المنحمرسين المُضللين الذين يهرون على رؤية العالم بأسلوبهم المثالي الخاص بصرف النظر عن الواقع.

ما الذي عناء إدوارد بكلمة مريب؟ لقد كان غامضاً جداً في هذه النقطة. وربما لم يكن يدرى هو الآخر. أمكن أن يكون الدكتور رايتون محتالاً كبيراً من نوع ما؟ هزّت فكتوريا رأسها نفياً، وهي الخارجة لنوها من سحر أسلوبه المهدئ؛ لقد تغير أسلوبه بالتأكيد (ولو بشكل خفيف لا يكاد يلاحظ) عندما طرحت فكرة دفع راتب لها. من الواضح أنه يفضل عمل الناس له دون أجر.

ولكن فكتوريا رأت في ذلك أمراً طبيعياً يدل على فطرة سليمة. لقد كان من شأن السيد غرينهولتز - على سبيل المثال - أن يشعر بنفس شعور الدكتور رايتون في هذا الأمر.

* * *

الفصل الثاني عشر

وصلت فكتوريا إلى فندق تيو وقد ورمت قدميها بعض الشيء ليحييها ماركوس بحماسة وهو يجلس على المصطبة العشبية الخارجية التي تطل على النهر ويتحدث مع رجل نحيل في أوساط عمره يرتدي ثياباً بالية بعض الشيء. هتف ماركوس لها قائلاً: فعالي واجلسي معنا يا آنسة جونز. أعرفك على السيد داكين... الآنسة جونز من إنكلترا. والآن يا عزيزتي، ماذا تشربين؟

قالت فكتوريا إنها تريد كأساً من عصير الليمون البارد، ثم أضافت (وهي تتذكر أن القسنت مادة مغذية): وهل لي بشيء من ذلك القسنت اللذيذ؟

قال: «نحيين القسنت؟ يا إلهي!». ثم أعطى الأمر بالعريضة. وقال السيد داكين بصوت حزين - إنه سيحضر عصير ليمون أيضاً.

صاح ماركوس وقد جاءتهم السيدة تريبتش: آه، ها هي السيدة كاردو تريبتش.

قالت مخاطبة فكتوريا: يبدو عليك الحر.

- لقد كنت أتجول لرؤية المدينة.

بعد ذلك جاء رجل قصير القامة قوي البنية وصعد الدرج ليحييه ماركوس بدوره ويقدمه لفكتوريا على أنه الكابتن كروسي، وقد سألتها غائلاً: هل جئت لتوك؟

- بالأمس.

- كنت أفكر بأنني لم أرك هنا من قبل.

قال ماركوس بانتهاج: إنها بالغة اللطف والجمال، أليس كذلك؟ نعم، من الرائع أن تكون الأنسة فكتوريا معنا هنا. سأقيم لها حفلاً... حفلاً رائعاً جداً.

قالت فكتوريا بأمل: وتقدم فيه فراريج؟

- نعم، نعم... وغير ذلك من لذيذ الطعام، وربما الكافيار. ثم إن لدينا طبقاً لذيذاً جداً من السمك... سمك دجلة مع الصلصة والفطر. والديك الحبشي المسحوق على الطريقة المتبعة في بيتي، بالأرز والزيبيب والبهارات... وكل ذلك يُسرى كما هو أرو - إذا كنت ترضين - يمكنك تناول شريحة من اللحم، شريحة كبيرة جداً وطرية. وسوف أشرف عليها بنفسي.

قالت فكتوريا بصوت واهن: سيكون ذلك رائعاً.

جعلها وصف تلك الأطايب تشعر بجوع شديد ونساءت إن كان ماركوس ينوي - حقاً - إقامة تلك الحفلة، وإن كان الأمر كذلك فعنى سيقبحها؟

قالت السيدة ترينتشن للكابتن كروسي: فنتشك ذهبت إلى البصرة.

أجابها كروسي: "لقد حدثت بالأمس". ثم نظر إلى شرفة فوقه وقال: من ذاك الرجل صاحب الملابس الغربية والقيقة العريضة؟

أجابها ماركوس: هذا السير روبرت كروشن لي يا عزيزي. أحضره السيد شريفهم من السفارة البريطانية ليلة أمس. إنه رجل لطيف جداً، ورحالة مرموق تماماً. يجوب الصحاري على ظهور الجمال، ويتسلق الجبال... إن نمط الحياة هذا مزيج جداً وخطير جداً. ما كنت لأحب مثل هذه الحياة شخصياً.

كروسي: آه، هذا هو إذن؟ لقد قرأت كتابه.

فكتوريا: لقد كان في الطائرة معنا في القდوم.

نظر كلا الرجلين إليها باهتمام، أو هكذا تُجِل إليها. ولكنها أردلت قائلّة: إنه متبجح جداً ومزعج بنفسه.

السيدة ترينتشن: كنت أعرف همتة في سيملا. العائلة كلها هكذا. أذكياها جداً، ولكنهم لا يملكون إلا التبحر بذلك.

هلقت فكتوريا بشيء من الالاسياء: إنه جالس هناك منذ الصباح لا يفعل شيئاً

ماركوس: ذلك بسبب معدته؛ إنه لا يستطيع تناول أي طعام.

أكمل السيد داكين كأس عصير الليمون ثم ذهب بهدوء، فيما ذهب كروسي أيضاً إلى غرفته. ونظرت السيدة ترينتش إلى داكين وهو يمضي مبتعداً وقالت: يا له من مسكين! لم ينجح أبداً... لقد أبى -بالكاد- على وظيفته.

قال السيد ماركوس السخي بمواقفه: ولكنه رجل لطيف جداً.

السيدة ترينتش: ها! إنه شخص ضعيف! يستكبح من مكان إلى آخر... لا عزم لديه، ولا جدية في مواجهة الحياة. مجرد إنكليزي آخر أتى إلى الشرق وفقد كل تأثير وتماسك.

شكرت فكتوريا السيد ماركوس على ضيافته وضعدت إلى غرفتها، حيث نزعَت حذاءها وتمددت على السرير لتتخبط في بعض التفكير الجدي: رأت أن ما بقي لديها من الجنيهات التي تربى قليلاً على الثلاثة أصبحت من حق ماركوس أصلاً مقابل إقامتها وخدماتها في الفندق، وبسبب طبيعته السخية ربما أمكنها حل مشكلة التغذية خلال الأيام القليلة القادمة إن استطاعت أن تعيش بشكل كامل على المصيريات التي يمكن أن تلتهم معها بعض الفستق والزيتون ورفائق البطاطا، كم سيمضي من الوقت قبل أن يقدم لها ماركوس كشف حسابها، وكم سيمضي بقاء ذلك الكشف غير مدفوع؟ لم تعرف. رأت أنه لم يكن ذلك الرجل الذي لا يأبه لمصالح عمله، عليها أن تنثر على مكان أرخص نعيم فيه بالطبع، ولكن كيف ستعرف الطريق إلى العنور على مثل ذلك المكان؟ عليها أن تجد لنفسها عملاً... وبسرعة ولكن أين يتقدم المرء يطلب عمل؟ من عساه نسال ليدتها

على كيفية العثور على عمل؟ كم هو قاتل لقدرات المرء أن يُحسّر -وهو مفلس عملياً- في مدينة غريبة لا يعرف أساليبها وأسرارها! ومع ذلك فقد شعرت فكتوريا -كمادتها- بالثقة بأنها قادرة على تدبير أمرها بقليل من معرفة البلد.

ينبغي لها أن تحصل على بعض المال أو تحصل على عمل... أي عمل. رعاية أطفال، لصق طوابع في مكتب بريده، الخدمة في مطعم... والألئ لسوف يرسلونها إلى نثصل بلادها، وسوف يتم ترحيلها إلى إنكلترا، ولن تستطيع رؤية إدوارد ثانية.

عند هذا الحد أغضت فكتوريا وقد أزعجها التفكير.



استيقظت بعد عدة ساعات وقررت أنها لن تتأثر -وهي الغريبة- بالليل، وهكذا تزلت إلى المطعم حيث لم تترك صففاً على قائمة الطعام المتنوعة إلا أكلت منه، وعندما فرغت من ذلك شعرت -نوعاً ما- بأنها أشبه بأفسي ضخمة ابتلعت فريسة كبرى، ولكنها شعرت بالنشاط الأكيد. وفكرت مع نفسها فائلة: لا فائدة من القلق بعد الآن. سأترك كل شيء حتى الغد، فربما ظهر جديد، أو ربما فكرتُ في شيء، أو ربما عاد إدوارد.

وقبل أن تذهب إلى النوم خرجت إلى المصطبة القريبة من النهر، وبما أن الجو كان بالنسبة إلى المقيمين في بغداد جو شتاء قطبي فلم يكن على المصطبة الخارجية أحد آخر باستثناء خادم في الفندق كان يتكئ منحنيًا على السياج محدقًا إلى الماء أسفل منه،

وقد قفز الخادم مبتعداً كمن يشعر بالغضب عندما ظهرت فكتوريا
وهرع عائداً إلى الفندق من باب الخدم.

بدأ الجو بالنسبة لفكتوريا (القادمة من برد إنكلترا) أشبه بجو
ليلة صيف عادية في ريحها نسعة برد خفيفة. وقد مسحها منظر دجلة
تحت ضوء القمر وفضه البعيدة تبدو غامضة شرقية بهواشها من
شجر النخيل. قالت فكتوريا لنفسها لتهرب من كriebها: حسناً، لقد
وصلت إلى هنا على أية حال، وسوف أتدير أمري بشكل ما، فلا
يد أن يظهر شيء جديد.

وبهذه العبارة المُطمئنة صعدت لثام، وانسل الخادم -يهود-
إلى الخارج مرة أخرى وعاد لتأدية مهمته المعتلة في ربط حبل
ذي عُقد بحيث يتدلى نزولاً إلى حافة النهر. وسرعان ما خرج من
بين الظلال شيخ شخص آخر وانضم إلى الخادم. قال السيد داكين
بصوت منخفض: أكل شيء على ما يرام؟
- نعم يا سيدي، لم أزل ما يربب.

وبعد أن أكمل مهمته بما يرضيه عاد السيد داكين إلى الظلال،
واستبدل بالمعطف الأبيض لخادمه معطفه الأزرق الذي لا يبين له
شكل، ثم أخذ يمشي بهدوء على طول المصطبة حتى وقف وغطفه
صفحة الماء تظلم شكله العام تماماً حيث يوجد الدرج الصاعد من
الشارع أسفل منه.

قال كروسبي وهو يخرج ويتقدم للانضمام إليه: أصبح الجو

شديد البرد في الليل هذه الأيام، ولكني أظن أنك لا تشعر كثيراً
بذلك، وانت القادم من طهران.

وقب الرجلان هناك للحظات يتحدثان، ولم يكن بمقدور أحد
سماع حديثهما إلا عندما يرفعان صوتيهما. قال كروسبي يهدوء: من
هي تلك الفتاة؟

- يبدو أنها ابنة أخ عالم الآثار باونسفوت جونز.
- حسناً... يُفترض -والحالة هذه- أن تكون على ما يرام،
ولكن حضورها في نفس الطائرة التي أتى بها كروفتن في...
- من الأفضل أن لا نسلم جدلاً بأي شيء بالتأكيد.

وقب الرجلان بصمت للحظات قال بعدها كروسبي: أتنظن حقاً
أن من الحكمة نقل ذلك الشيء من السفارة إلى هنا؟
- أظن ذلك، نعم.

- رغم أن الأمر كله قد تم فهمه تماماً بأدق تفصيلاته.
- لقد تم فهمه بأدق تفصيلاته في البصرة... وقد فشل ذلك.
- آه، احرف. لقد شُتم صلاح حسن بالمناسبة.
- نعم... كان ذلك متوقفاً. هل بدت أية علامات على تقرب
أو لجوء إلى الانفصالية؟

قال كروسبي: ربما حدث ذلك كما أظن. وقد حدثت مشكلة
هناك، فقد أشهر رجل مدسه. سكت قليلاً ثم أضاف: وقد أسسك
به ريتشارد بيكر ونزع منه مدسه.

سأل داكين وهو يفكر: ريتشارد بيكر؟

- أنعرفه؟ إنه...

- نعم، أعرفه.

سأه شيء من الصمت. قال بعده داكين: الارجال... هذا ما أتري فعله. إن كان كل شيء لدينا قد لهم كما نقول، وأصبحت عطلتنا معروفة، فإن من السهل على الطرف الآخر أن يفهم حركاتنا نحن أيضاً. إنني أشك كثيراً في أن يكون الأمر قد وصل بكارمايكل حتى إلى التقرب من السفارة... وحتى لو وصلها...

ثم هز رأسه حيرة.

- هناك الواهون لما يجري هم أنت وأنا وكروفتن لي فقط.

- سيعرفون أن كروفتن لي قد انتقل إلى هنا من السفارة.

- آه، طبعاً، كان ذلك أمراً حتمياً. ولكن ألا ترى يا كروسي

أن أي خطة يضمونها لمواجهة ما سنرتجله ينبغي أن تكون مرنة هي الأخرى؟ لا بد أن تكون خطة تبتكر وتعد بسرعة، ولذلك ينبغي أن تأتي من الخارج إذا صبح التعبير. فلا مجال هنا للشخص مسطر في لندن تيو ينتظر منذ ستة أشهر مضت. فالفندق لم يكن أبداً في الصورة حتى الآن. لم توجد أية فكرة أو اقتراح باستخدام فندق تيو كمكان التجمع.

نظر إلى ساعته وقال: سأصعد الآن وأرى كروفتن لي.

لم تكن يد داكين المعروفة بحاجة للطرق على باب السير روبرت، فقد انفتح الباب بهدوء ليدخل. ولم يكن مُضاءً في غرفة الرحالة إلا مصباح قراءة صغير، وقد وضع كرسيه بجانبه. ولما هو يجلس ثانية وضع على مقربة منه على المائدة مسدساً آلياً صغيراً ثم قال: ما الجديد يا داكين؟ أظنه سيأتي؟

- أظنه سيأتي، نعم يا سير روبرت. أنت لم تقابله من قبل، أليس كذلك؟

هو الآخر رأسه بالنفي وقال: نعم؛ لم أقابله. إنني أطلع لرؤيته الميعة. لا بد أن ذلك الشاب يتمتع بشجاعة كبيرة يا داكين.

قال داكين بصوته الرتيب: آه، نعم. لديه جرأة كبيرة.

بدأ أنه مدهوش قليلاً من حاجة هذه الحقيقة للتأكيد. قال السير روبرت: لا أعني الشجاعة وحدها، فالكثير من الشجاعة يوجد في زمن الحرب، وهي مسألة رائعة. ولكنني أعني...

- الخيال؟

- نعم؛ أن تمتلك الشجاعة على تصديق شيء أبعد ما يكون عن الاحتمال... أن تخاطر بحياتك للتحقق من أن إحدى القصص السخيفة ليست سخيفة أبداً. إن هذا يتطلب ميزة لا تتوفر لشباب اليوم. أرجو أن يأتي.

- أظنه سيأتي.

نظر إليه السير روبرت بعدة وقال: هل أعددت لكل شيء عدته؟

- كروسي على الشرفة، وسارقب أنا الدرج. وعندما يصلك
كارمايكل انقر على الجدار فأدخل أنا.

أوماً كروفتن لي برأسه موافقاً. وخرج داكين من الغرفة يهدوه
وسار إلى اليسار حتى وصل إلى الشرفة وذهب إلى طرفها البعيد.
وهنا أيضاً كان جبل فيه عُقد يتدلى من طرف الشرفة ليهلل إلى
الأرض محاذياً لشجرة كاليوتوس وبعض الأغصان الأخرى.

عاد السيد داكين ليعبر غرفة السير روبرت ويذهب إلى غرفته
الخاصة التي تقع بعد غرفة السير روبرت. كان لغرفته بابٌ ثانٍ يفضي
إلى الممر الذي يقع خلف الغرفة، ويقع الباب على بعد بضعة أقدام
من رأس الدرج. ترك داكين ذلك الباب نصف مفتوح وجلس ليؤدي
دوره في المراقبة.

بعد نحو أربع ساعات من ذلك نزلت القُفَّة إلى النهر يهدوه
(ذلك الابتكار البدائي المستخدم لعبور درجة) وانقربت من الشاطئ
الطيني أسفل فندق تيو. وبعد ذلك بدقائق تسلك جسم نحيل الحبل
المتدلي واختبأ بين أغصان الشجرة.

الفصل الثالث عشر

كالت فتشوريا تنوي الذهاب إلى فراشها والنوم وترك كل
المشكلات حتى الصباح، ولكنها -رقدت نائمة أصلاً طوال فترة بعد
الظهر- وجدت نفسها أرقّة مفتوحة العينين.

وفي النهاية أشعلت الضوء وأنهت قعدة في إحدى المجلات
كانت قد بدأت قراءتها في الطائرة، ثم رقدت جوربها، وجريت
جوارب التايلون الجديدة، ثم كتبت العديد من الإعلانات المختلفة
التي تطلب فيها عملاً (ويمكنها عدداً أن تسأل أين يمكن نشر تلك
الإعلانات). وبعد ذلك كتبت ثلاث رسائل تجريبية أو أربعة إلى
السيدة كليب وضعت في كل واحدة منها مجموعة مختلفة من
الظروف المبكرة المبتكرة غير المحسوبة التي أدت إلى «انقطاع
السل» بها في بغداد، ووضعت مسودة لبرقية أو اثنتين تمنيت ليهما
طالبية الحون من قريبها الوحيد البائي على قيد الحياة، وهو رجل
مسن جداً وكربه صعب المراس يعيش في شمال إنكلترا ولم يسبق له
أن ساعد أحداً في حياته. بعد ذلك جريت تسريحة جديدة لشعرها،
وأخيراً نثابت فجأة وقررت أنها قد نعتت وغدت جاهزة للنوم.

في هذه اللحظة بالذات ودون سابق إنذار فتح باب غرفتها

بسرعة وانسل رجل إلى الغرفة وأقفل الباب خلفه بالمفتاح وقال لها بالحاح: بالله عليك خبيني في مكان ما... بسرعة...

لم تكن فكتوريا في أي وقت مضى بطيئة في ردود أفعالها، وبطرفة عين لاحظت أنفاس الرجل التي يسحبها بصموية وصوته المتلاشي، ورائت كيف يمسك بشدة ويبدأ فاشاً وشاحاً قديماً أحمر يستجمعه إلى صدره بقوة. ونهضت بسرعة استجابة لنداء المخامرة.

لم تكن في الغرفة مخابئ كثيرة، ففيها خزانة الملابس، وصندوق ذو أدراج، وطاولاة، وطاولاة زينة توشي شيء من الأبهة. كان السرير ضخماً... يكاد يكون مزدوجاً، وقد جاءت ذكريات الطفولة عن لعبة الاختفاء والتفقي لتجعل رد فعل فكتوريا سريعاً. قالت: "بسرعة..." ثم أزعجت الوسائد والغطاء والبطانة ليمتد الرجل على عرض السرير من الأعلى مكان الوسائد. أعادت فكتوريا الغطاء والبطانة إلى مكانهما فوق الرجل، وحشرت الوسائد فوقه وجلست هي على طرف السرير.

لم تكذب فعل ذلك حتى سمعت طرقة خفيفاً مُلِحاً على الباب، فنادت بصوت ضعيف مدهور: من هناك؟

جاءها صوت رجل من الخارج يقول: أرجو أن تفتحي الباب، رجاءً. نحن الشرطة.

عبرت فكتوريا الغرفة باتجاه الباب، وفيما هي كذلك لاحظت وشاح الرجل الأحمر ملقى على الأرض فالتفتته ودمته في أحد

الأدراج، ثم أدارت المفتاح وفتحت باب غرفتها قلباً وأطلت منه وعلى وجهها علامات الذعر.

كان يقف خارج الباب شاب أسود الشعر ذو بدلة بنفسجية مخططة، ووراءه رجل يرتدي الزي الرسمي للشرطة. سألت فكتوريا تاركة شاباً من الرعدة في صوتهما: ما الأمر؟

ابتسم الشاب ابتسامة ذكية وتكلم بلغة إنكليزية سليمة تؤدي الغرض: أنا أسف جداً - يا أنستي - على إزعاجك في مثل هذه الساعة، ولكن لدينا مجبراً هارباً، وقد دخل الفندق. ينبغي أن نبحث في كل الغرف... إنه رجل خطير جداً.

قالت فكتوريا: يا إلهي!

ثم تراجعت وهي تفتح الباب واسعاً وقالت: ادخلا وابتحنا. يائه من أمر مخيف! ابحثا في الحمام رجاءً. آه وخزانة الملابس... وهل لكما أن تنظرا تحت السرير أيضاً؟ ربما كان هناك منذ أول الليل.

كان التفنيس سريعاً، ثم قال: لا، إنه ليس هنا.

- ألتصا متأكدان أنه ليس تحت السرير؟ ولكن كلا، يا لي من سخيغة! لا يمكن أن يكون هنا أبداً! فقد أقفلت الغرفة عندما نمت.

- شكراً لك يا أنسة، وطابت ليلتك.

انحنى الشاب ثم انسحب مع معاونه ذي البدلة الرسمية. وقالت

فكتوريا وهي ترافقه إلى الباب: من الأفضل أن أقفل الباب مرة أخرى، اليس كذلك؟ حتى أكون في مأمن.

- نعم، سيكون ذلك أفضل شيء بالتأكيد. شكراً لك.

أعادت فكتوريا إقفال الباب ثم ولفت قربة لبعض الوقت. سمعت ضباط الشرطة يقرعون - بنفس الطريقة - الباب المقابل لها في الممر، وسمعت الباب يُفتح، وتبادل الحديث، ثم صوت السيدة تريتش الخشن الغاضب، ثم سمعت صوت خطواتهما تتحرك إلى آخر الممر. وقد جاءت الفرعة التالية من مكان أبعد بكثير.

استدارت فكتوريا وعبرت الغرفة إلى السرير، ولقد راودها شعور بأنها ربما تصرفت بمنتهى الحماقة؛ فقد اتسقت لروحها الرومانسية المغامرة فمدت يد العون فوراً لرجل قد يكون مجرمًا شديد الخطورة. إن الشغف بالوقوف إلى جانب المُنطازد لا إلى جانب المُنطازد قد يجر على المرء عواقب وخيمة في بعض الأحيان، ولكن فكتوريا فكرت بأن ما حصل قد حصل وأصبحت مجبرة على التعامل مع الأمر الآن كأنه ما كان! وغفت قرب السرير وقالت بانتهاب: انهض.

لم تكن هناك أية حركة، وقالت فكتوريا بحدة ولكن دون أن ترفع صوتها: لقد ذهبوا! يمكنك القيام الآن.

ولكن رغم ذلك لم تدير حركة من تحت كومة الوسائد العالية قليلاً، فقامت فكتوريا بإزاحتها جميعاً بتقاد صبر. كان الشاب ممدداً كما تركته تماماً. ولكن وجهه كان الآن ذا لون رمادي غريب، وكانت عيناه مغمضتين.

وعندها لاحظت فكتوريا شيئاً آخر جعلها تنهش بحدة... فقد كانت بقعة حمراء فاتحة اللون تنفذ إلى البطانية. غالت فكتوريا وكأنها تستثيث بأحد: آه، لا... آه، لا... لا!

فتح الرجل عينيه وكأنه يفهمهما استجابة لتلك الاستغاثة. حذق إليها كما يحذق المرأة من بعيد إلى شيء لم يكن متأكدًا تمامًا من رؤيته، ثم انفجرت ضحكة... وكان صوته ضميماً إلى حدٍّ لم تكن فكتوريا تسمعه. انحنت عليه قائلة: ماذا؟

سمعت هذه المرأة، قيصوعية بالغة قال الشاب كلمتين. ولم تعرف فكتوريا إن كانت قد سمعتهما بشكل صحيح أم لا، فقد بدأ لها سخيقتين تماماً لا معنى لهما، كان ما قاله هو: «الشیطان... البصرة»!

سقط الجفنان ورفقا على العينين الواسعتين الغلفتين، ثم قال كلمة واحدة أخرى... قال اسماً ثم ارتجف رأسه إلى الخلف قليلاً وهذا دون حراك.

وغفت فكتوريا ساكنة وقلبيها يخفق بعنف. كانت مقعدة الآن بشاعر كثيفة من الشفقة والغضب، ولم تعرف ما الذي تفعله بعد ذلك لا بد لها من استدعاء أحد؛ فهي وحيدة هنا مع جثة رجل ميت، وسيطلب الشرطة تفسيراً لذلك عاجلاً أو آجلاً.

وفيما كان عقلها يندكر في الأمر بسرعة سمعت صوتاً بسيطاً جعلها تلثنت. رأت أن المفتاح قد سقط عن باب غرفتها، وفيما هي تنظر إلى الباب سمعت صوت مفتاح يدور في القفل. وانفتح الباب

ودخل السيد داكين الغرفة مغلقة الباب خلفه بكل حرص، ثم جاء إليها قائلاً بهدوء: لقد أحسنت صنعاً يا عزيزتي. لقد فكرت بسرعة. كيف حاله؟

قالت فكتوريا ولي صوتها خلسة: أظنه... أظنه مات.

رأت وجهه يتغير، ولمحت التماعة غضب شديد في عينيه، ثم صاد وجهه كما وأنه بالأمس... باستثناء أن التردد والضعف اللذين كانا يبدوان على الرجل بالأمس قد تلاشيا الآن وحل محلهما شيء مختلف تماماً. انتهى على الرجل، ثم فكك سترته العسكرية البالية بهدوء، ثم قال وهو يرفع جسده: لقد طُعن بكل دقة وصولاً إلى القلب. لقد كان فني شجاعاً... وذكياً أيضاً.

وجدت فكتوريا صوتها أخيراً فقالت: لقد جاء الشرطة وقالوا إنه مجرم. هل كان مجرمًا؟

- لا، ثم يكن مجرمًا.

- وهل كانوا... هل كانوا من الشرطة؟

قال: "لا أدري. ربما كانوا من الشرطة، ولكن لا فرق أبدًا. ثم سأله: هل قال شيئاً... قبل وفاته؟

- نعم.

- ماذا قال؟

- قال: «الشيخان... ثم: «البصرة». ثم ذكر اسماً بعد

فترة صمت، وقد بدا اسماً فرنسيًا، ولكن ربما لم أفهمه بشكل صحيح.

- ماذا كان الاسم نفريًا؟

- أظنه كان «لوفارج».

قال داكين متأملًا: لوفارج؟

سألت: "ماذا يعني هذا كله؟"، ثم اضطلت بشيء من الأسى: وماذا حساي أفعل؟

- ينبغي أن تخرجك من هذا الأمر قدر الإمكان، أما بالنسبة لمعنى هذا الأمر كله فسأعود لاحقًا وأخبرك. أول ما ينبغي أن تفعله هو الوصول إلى ماركوس. فالفندق فندقه، وهو يتمتع بعقل راجح، مع أن المرء لا يدرك ذلك دائمًا عندما يتحدث إليه. سوف أذهب إليه، لا أظنه تام الآن؛ فلم تبلغ الساعة إلا الواحدة والنصف، وهو نادرًا ما ينام قبل الثانية. عدلي أنت من مظهرك قبل أن آتي به، فماركوس ضعيف جداً أمام الجمال المنكوب.

غادر الغرفة، ومشت هي - كما لو كانت في حلم - إلى طاولة الزينة فمشطت شعرها وطلت وجهها ليصبح ذا شحوب مناسب وارتفعت على كرسي لتسمع صوت الخطوات تقترب. دخل داكين دون قرع الباب ودخل خلفه ماركوس ثوب.

كان ماركوس جدياً هذه المرة، ولم تكن تعلم وجهه ابتسامته المحمود. قال له داكين: «والآن يا ماركوس، ينبغي عليك فعل

قصة لا بأس بها بالنسبة إليك، فقد طعن الرجل في الشارع قبل دخول الفندق.

- اتعني أن زوج אחتي يأخذ الجثة... فيما يتأذر الشاب الذي مثل دور القليل بهدوء عند الصباح؟
- هذه هي الفكرة.

- وبذلك لا تكون في فندقك أية جثة ولا تتعرض الألسنة جونز لأي قلق أو إزعاج؟ أظن يا عزيزي أن هذه فكرة رائعة.

- حسنًا إذن. تأكد لنا من خلّو الجوّ، وسوف أنقل الجثة إلى غرفتي. إن خدمك هؤلاء ينسكعون في الممرات كل الليل. اذهب إلى غرفتك وأعمل مشكلة ما. اجعلهم يهرعون إليك جميعاً وكلّفهم بإحضار أشياء لك.

أومأ ماركوس برأسه موافقاً وغادر الغرفة. وقال داكن للفئة: أنت فتاة قوية. أنتستطيعين مساعدتي في حمله عبر الممر إلى غرفتي؟

أومأت لكونوربا موافقةً، ورفع الاثنان بينهما الجسد المترهل وحملاه عبر الممر المهبور وهما يسمعان من بعيد صوت ماركوس بهذر بغضب، ثم وضعها الجثة على سريره داكن الذي قال: ألدك مقهى؟ حسنًا، أقطعني - إذن - طرف النخلاء الداخلي للسريـر حيث بقعة الدم. لا أظن البقعة وصلت إلى الفراش نفسه؛ فقد امتصت سترته العسكرية معظم الدم. سأأتي إليك في غضون ساعة تقريباً.

ما تستطيع إزاء هذا الأمر. لقد كان ذلك خدمة هائلة للفتاة المسكينة. لقد اتصم الرجل الغرفة وإنهار... وهي ذات قلب رقيق جداً، ولذلك أخفته عن الشرطة. وما هو ميث الآن. ربما ما كان عليها أن تفعل ذلك، ولكن الفتيات رقيقات القلب عادة.

قال ماركوس: وهذا الآن؟

- نريد فقط أن ننقل الجثة بعيداً بهدوء.

- هذا رائع جداً يا عزيزي؛ فأنا أيضاً لا أريد جثة في فندقك. ولكن الأمر - كما قلت - ليس بهذه السهولة.

- أظن أن بالإمكان تدبيره. لديك طبيب في أسرتك، أليس كذلك؟

- بلى؛ زوج אחتي طبيب، وهو فنى لطيف جداً. ولكنني لا أريد تعريضه للضايـب.

- لن يتعرض شيء. اسمع يا ماركوس، سننقل الجثة من غرفة الأنسة جونز إلى غرفتي. وهذا يخرجها من الأمر. ثم أقوم باستخدام هاتفك، وفي غضون عشر دقائق ستجد شاباً يتدفع إلى الفندق من الشارع، سيكون ثملاً جداً، وهو يمسك جانيه بيده بقوة. وسيقوم بطلي أنا بأعلى صوته. يدخل تمثيلاً إلى غرفتي وينهار، ثم أخرج أنا وأنديك وأطلب طبيباً. وهكذا تأتي بزواج أخنك الذي يرسل في طلب سيارة إسعاف ويصعد فيها مع صديقي الثمل هذا. وقبل أن يصل المستشفى يموت صاحبي، إذ يكون قد طعن. هذه

انتظري لحظة، اشوي قليلاً من عصير الليمون في قارورتي تلك،
وستشعرين بتحسن.

أطاعته فكتوريا، فقال: ثاة شاطرة. والآن عودي إلى غرفتك
وأطفئي النور. سأتيك - كما قلت - بعد نحو ساعة.

- وهل ستخبريني عن معنى هذا كله؟

حذق إليها طويلاً وبشكل غريب، ولكنه لم يجب على
سؤالها.

* * *

تحدثت فكتوريا في سريرها والضوء مطفأ، تسمع من ندلال
الظلمة. سمعت أصواتاً عالية لشجار مضجور، وسمعت صوتاً يقول:
"كان علي أن أبحث عنك يا صاحبي. لقد تشاجرت مع أحدهم في
الخارج". ثم سمعت أجواصاً تُقرع، وأصواتاً أخرى، وكثيراً من
الجلبة. ثم حلت فترة من الصمت النسبي، باستثناء صوت موسيقى
عربية بتطلق من جهاز غراموفون بعيد في إحدى الغرف. وبعد أن
تَحَلَّل إليها أن ساعات عديدة قد مرت، سمعت باب غرفتها يُفتح
بلطف، فجلست في سريرها وأنارت المصباح على الطاولة قريبا.

قال داكين مستعناً: "هذا مناسب"، ثم أتى بكرسي إلى جانب
سريرها وجلس عليه، وأخذ ينظر إليها كطبيب يريد تشخيص حالة
مرضى لديه. قالت: أخبرني كل شيء عن هذا الأمر.

- ماذا لو أخبرتني أنت كل شيء عن نفسك أولاً؟ ماذا تفعلين
هنا؟ لماذا جئت إلى بغداد؟

لجب ما لم تتخط فكتوريا - كماداتها - في ابتكار كذبة مدهة
كاملة التفصيلات لتبرير وجودها في بغداد، إما بسبب أحداث تلك

الليلة أو بسبب شيء ما في شخصية داكين (وقد رأته فيما بعد أن ذلك كان لهذا السبب الأخير). أخبرته كل شيء ببساطة وبشكل مباشر، أخبرته عن لقاءها بإدوارد وتصميمها على الحضور إلى بغداد، وعن معجزة العثور على السيدة كليب، وعن محتنها المالية. وعندما أكملت قال داكين: فهمت.

ثم سكنت قليلاً قبل أن يقول: ربما كنت أرغب بإبفالك خارج هذا الموضوع، كنت وافقاً من ذلك. ولكن القضية هي أنه لا يمكن إبقائك خارجاً، فأنت في صلب القضية سواء أحببت ذلك أم لا وطالما أنك في صلب الموضوع، فمن الأفضل أن تعمل لي لصالحها.

اعتدلت فكتوريا في سريرها وقد تورددت خداعها بحماسة الترقب وقالت: أليس ذلك وظيفة لي؟

- ربما، ولكنها ليست من نوع الوظائف التي تفكرين بها. هذه وظيفة جديدة يا فكتوريا، وهي خطيرة أيضاً.

قالت بانتهاج: آه، لا بأس بذلك. ثم أضافت بارتياح: ولكنها لا تتطلب عليّ حش واحتيال، أليس كذلك؟ لأنني -رغم معرفتي بأنني أكذب بشكل فظيع- إلا أنني لا أحب حقاً القيام بأي شيء ينطوي على الخس وعدم الأمانة.

ابتسم داكين قليلاً وقال: من الغريب أن مقدرتك على اختراع كذبة مقنعة بسرعة هي إحدى موهباتك لهذه الوظيفة. ولكن كلا، لا ينطوي هذا العمل على شيء. على العكس، فستكونين في صف الدفاع عن القانون والنظام. سوف أضعلك في صورة الموضوع...

ولكن بطريقة عامة لفظ، وبحيث يمكنك أن تفهمي بشكل كامل ما الذي فعلته وما هي المخاطر بالضبط. إنك تبدين شابة عاقلة ولا أظنك فكرت كثيراً بالسياسة العالمية... وهذا أفضل، فكما يقول هاملت في كلماته الحكيم: "ليس من شيء جيد أو سيء، ولكن التفكير يجعله كذلك".

قالت فكتوريا: أعرف أن الجميع يقولون إن حرباً أخرى مستعنة عاجلاً أو آجلاً.

- بالضبط. ولماذا يقول الجميع ذلك يا فكتوريا؟

فعلبت حاجبها وقالت: "لأن روسيا.. الشيوعيين.. وأمريكا...". ثم توقفت.

- أرايت؟ هذه ليست كلماتك، بل أنت التي تعلمتها من الصحف والأحاديث العائرة والراديو. توجد قوتان تتحكمان بأجزاء مختلفة من العالم، هذا صحيح تماماً. وهما تتمثلان -بشكل عام- في أذهان الناس باعتبارهما "روسيا والشيوعيين" من جهة و "أمريكا" من جهة أخرى، وإن الأمل الوحيد للمستقبل -يا فكتوريا- يكمن في السلام وفي الأنشطة البناءة لا في الأنشطة المدمرة، ولذلك فإن كل شيء يعتمد على أولئك الذين يسيطرون على هذين المعسكرين المختلفين، إما بالاتفاق على الاختلاف وإقناع كل منهما نفسه بالجمال الحيوي لأنشطته، أو بإجهاض أسس مشتركة للاتفاق، أو التسامح والتعايش على الأقل. ولكن -بدلاً من ذلك- فإن العكس هو الذي يحدث؛ حيث يُدق إسفين طوال الوقت لإجبار المجموعتين اللتين تشكل كل واحدة منهما بالأخرى على التباعد أكثر فأكثر، وتُعمد أمور معينة قادت

شخصاً أو شخصين إلى الاعتقاد بأن مثل هذا النشاط التخريري يأتي من طرف أو مجموعة قائمة تعمل بالسر ولا يشك بها أحد في العالم حتى الآن. فكلما سنحت فرصة للتوصل إلى اتفاق أو إلى مؤشر لتبديد الشكوك وقع حادث ما لجعل هذا الطرف ينكسر إلى شكوك من جديد، أو يدفع ذلك الطرف إلى خوف هستيري شديد. وهذه الأمور ليست مجرد حوادث عرضية يا فكتوريا، بل هي مضمّنة صمداً للوصول إلى نتيجة محسوبة.

- ولكن لماذا تظن ذلك، ومن الذي يقوم بذلك الأعمال؟

- أحد الأسباب التي تدفعنا لهذا الاعتقاد هو المال؛ فالمال يأتي من مصادر غير طبيعية. إن المال -يا فكتوريا- هو دوماً المؤشر الأعظم الذي يدل على ما يحدث في العالم. وكما يفيس الطبيب نبضك ليأخذ فكرة عن حالتك الصحية، كذلك المال الذي يشكل دم الحياة الذي يثدي أية حركة أو قضية، ومن غيره لا تستطيع أية حركة أن تتقدم. والآن لأن أموالاً هائلة يتم تداولها، ورغم أن تلك الأموال يتم تمويهها بشكل شديد الذكاء والبراعة، إلا أنه يوجد -بالتأكيد- أمرٌ غير طبيعي في مصدر تلك الأموال وفي مالها الذي تنتهي إليه. إضرابات كثيرة جداً تقوم بشكل غير رسمي... وتتلقي الحكومات الأوروبية التي تُبدي مؤشرات على تصحيح اقتصادها تهديدات عديدة على يد الشيوعيين، وهم عاملون جديون من أجل قضيتهم... ولكن الأموال التي تدفع للقيام بمثل هذه الأعمال لا تأتي من مصادر شيوعية، وعندما ينتبها المرء بعدها قد جاءت من مصادر فرجية جداً وغير متوقعة. وبغس الطريقة، تتصاعد موجة خوف هستيري من الشيوعية في أمريكا وفي غيرها من البلدان، وهنا أيضاً لا تأتي

الأموال من المصادر المتوقعة... فهي ليست أموال الرأسماليين، رغم أنها تمر في أيدي رأسمالية طبعاً. وثمة نقطة ثالثة، وهي أن أموالاً طائلة هائلة يبدو أنها تخرج تماماً من التداول. والأمور أشبه ما يكون بحالة مصرفين فيها راتبك كل أسبوع على شراء أغراض ثم تختفي تلك المشتريات بعد ذلك أو تخرج من دائرة التداول العادي أو حتى من دائرة الروية. لقد استشرى في كل أنحاء العالم طلب عظيم على الألماس والأحجار الكريمة الأخرى، وهذه الحلي تنتقل بين عشرات الأيدي حتى تختفي أخيراً ويستحيل تتبع مصيرها.

هذه مجرد صورة عامة مبهمة بالطبع. فصاري القول هو أنها توجد في مكان ما مجموعة ثالثة من الناس هدفها غامض حتى الآن ولكنها تثير الاضطرابات وسره الفهم، وتتعامل بصفقات مالية وصفقات جواهر مموهة بشكل ذكي وصولاً إلى أغراضها الخاصة. ولدينا من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن لهذه المجموعة عملاء في كل بلد، وبعضهم مستقر في تلك البلدان منذ سنوات طويلة. بعض هؤلاء العملاء يعملون مناصب رفيعة محترمة، وآخرون يبدون أدواراً متواضعة، ولكنهم يعملون جميعاً للوصول إلى هدف بضمونه نصب أعينهم ولا نعرفه نحن. وهذه المجموعة -في جوهرها- أشبه ما تكون بأنشطة الطابور الخامس في بداية الحرب الأخيرة، إلا أنها تأخذ بمرء هالماً واسعاً هذه المرة.

سألت فكتوريا: ولكن من هم هؤلاء الناس؟

- إنهم لا يتمنون -فيما نرى- إلى أية جنسية بعينها، وأخشى أن يكون ما يدعون إليه هو تحسين العالم! إن الوهم الخاطئ إن بإمكان

أناس أن يفرضوا بالفرة عصراً ذهبياً سعيداً على الجنس البشري إنما هو من أخطر الأوهام.

سجل قليلاً ثم أكمل يقول: حسناً، لا ينبغي لي أن ألقي عليك موعظة. دعيني أشرح لك فقط ما نعرفه بالفعل. توجد عدة مراكز للنشاط في الأرجنتين، وفي كندا، ومركز أو أكثر في الولايات المتحدة، وأظن (وإن لم أكن متأكدًا تمامًا) أنه يوجد مركز في روسيا. ولأن نائي إلى ظاهرة مثيرة جداً.

في الستينيات الأخيرة اختفى ثمانية وعشرون عالماً شاباً لامعاً من جنسيات مختلفة... اختفوا بهدوء من بيناتهم. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لمهندسين معماريين، وملاحين، وكهربائيين، والعديد غيرهم من أنواع الفتيين. حوادث الاختفاء هذه كان يجمعها قاسم مشترك واحد: كل الذين اختفوا كانوا نباتاً وعلموحيين، وكلهم ليست لهم روابط قوية تشدهم إلى شيء، وبالإضافة إلى أولئك الذين نعرف عنهم، لا بد أن يوجد الكثيرون غيرهم، وقد بدأنا نحزر شيئاً مما هم يصدون تحقيقه.

أصفت نكتوريا وقد قطعت حاجبها، فيما مضى دافين يقول: ربما قلت إن من المستحيل في هذه الأيام أن تستمر أية عملية في أي بلد دون أن يدري بها العالم. وأنا لا أعني هنا - بالطبع - الأنشطة السرية، فلكل أنشطة يمكن أن تستمر في أي مكان. إن ما أعنيه هو الإنتاج الواسع الحديث. ورغم ذلك فما تزال في هذا العالم مناطق غامضة، بعيدة عن خطوط التجارة، معزولة بالجبال والصحاري، وسط أناس ما زالت لديهم القوة لمنع الغرباء من دخول مناطقهم،

تلك المناطق التي لا يعرفها ولم يرها إلا رحالة معزول هنا أو مسافر وحيد هناك. هناك يمكن أن تستمر أمور لا يمكن لأسرارها أن تنفذ للعالم الخارجي، وإن نفذت فإلما تنفذ كشائعة غامضة سخيفة.

إن أحدد هذه المنطقة، ولكن يمكن الوصول إليها من الصين، ولا أحد يعرف ما الذي يجري في مناطق الصين الداخلية. كما يمكن الوصول إليها من جبال الهيمالايا، ولكن الرحلة من هناك صعبة وطويلة إلا على من سبق له قطعها. تصل إلى هناك الآلات والعمالون من مختلف بلاد المحورة بعد أن نجد عن وجهتها الظاهرية، ولا حاجة للخوض في تفصيلات هذه العملية المعقدة.

ولكن رجلاً واحداً اهتم بمتابعة أثر معين. كان رجلاً غير اعتيادي، رجلاً له أصدقاء وصلات في كل منطقة الشرق؛ فقد وُلد في كاشغار، وهو يتقن مجموعة من اللهجات واللغات. وقد شك، وتابع الأثر الذي قادته إليه شكوكه. وكان ما سمعه غريباً لا يُصدق بحيث أن أحداً لم يصدقه عندما عاد وأفضى بما لديه.

اثنتان فقط صدقنا قصته، أحدهما أنا؛ فأنا لا أحجم عن تصديق الأمور المستحيلة، إذ غالباً ما تكون صحيحة. أما الرجل الآخر...

تردد قليلاً فقالت فكتوريا: من هو؟

"كان الآخر هو السير روبرت كروفتن لي، وهو الرحالة العظيم الذي سافر بنفسه في تلك المناطق النائية ويعرف شيئاً عن إمكانياتها. قصارى القول أن كارمايكل (وهو رجلي الذي أتكلّم عنه) نزع الذهب ليكتشف الحقيقة بنفسه. كانت رحلة خطيرة يائسة،

البصرة وحاول أن يبلغ الفصيلة، ونجا بأعجوبة من إطلاق النار عليه. من الممكن أن يكون قد ترك الأدلة في مكان ما في البصرة. ما أريد منك فعله -ها فكتوريا- هو أن نذهبي إلى هناك ونحاولي العثور على شيء.

- أوه؟

- نعم. صحيح أنك لا تملكين الخبرة ولا تعرفين ما الذي نبحثين عنه، ولكنك سمعت كلمات كارمايكل الأخيرة، ويمكن لتلك الكلمات أن تفيدك بشيء عندما تصلين هناك. من يدري، ربما صادفك الحظ الذي يحالفه المبتدئين؟

قالت فكتوريا بلهفة: بوذي الذهاب إلى البصرة.

إبسم داكين وقال: هذا يناسبك لأن فتاك هناك، أليس كذلك؟ لا بأس بهذا، وهو تمويه ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل للتمويه من قصة حب حقيقية. اذهبي إلى البصرة، واقتني عينيك وأذنيك وانظري حولك. لا تستطيع إعطائك أي تعليمات حول كيفية التصرف، والحقيقة أنني أفضل أن لا أعطيك تعليمات. إنك تبدين شابة في منتهى النباهة والذكاء، وإذا افترضنا أنك سمعت الكلمات بشكل صحيح لأنني لا أعرف ما الذي تعنيه كلمات الشيطان ولوفارج. إنني أميل للاتفاق معك على أن لوفارج لا بد أن يكون اسماً ابحتي عن ذلك الاسم.

قالت فكتوريا بطريقة عملية: كيف أسافر إلى البصرة؟ وكيف أتصرف دون مال؟

ولكنه كان يصلح لتفنيهما أكثر من أي شخص آخر. كان ذلك قبل تسعة أشهر، ولم نسمع عنه شيئاً إلا قبل بضعة أسابيع، حيث علمنا أنه على قيد الحياة وأنه حصل على ما ذهب من أجله... حصل على الدليل القاطع.

ولكن الطرف الآخر كان يلاحقه، وكان أمر حياة أو موت بالنسبة لهم أن لا يعود بأدنته. وقد توغرت لنا أدلة كثيرة عن اختراقهم لجهازنا كله بمعلوماتهم، وحتى في دائرتي الخاصة يوجد من يسرب المعلومات، وبعض هؤلاء -أعانتا الله عليهم- يحتلون مناصب عليا تماماً. وقد تفت مرافقة كل الجهات بحثاً عنه، ونمت التضحية بأنفس بريئة قتلت بالخطأ لاعتقادهم أنها هو... فهم لا يحفلون كثيراً بالحياة الإنسانية. ولكنه استطاع -بطريقة أو بأخرى- أن ينجو دون أذى... حتى هذه الليلة.

- أكان ذلك هو إذن؟

- نعم يا عزيزتي. شاب شجاع جداً لا تلبس له فتاة.

- ولكن ماذا عن الأدلة؟ هل انتزعوا منه تلك الأدلة؟

ارتسمت ابتسامة غريبة على وجه داكين المتعب وقال: لا أعطهم انتزعوها منه. لا، أنا متأكد تماماً -من معرفتي بكارمايكل- بأنهم لم يحصلوا عليها. ولكنه مات دون أن يتمكن من إيلاننا بمكان تلك الأدلة وكيف نحصل عليها. أظن أنه ربما حاول قول شيء عند وفاته يعطينا مؤشراً على ذلك.

كررو داكين ببطء: الشيطان... البصرة... لوفارج... لقد كان في

أخرج دافن محفظه وأعطاهما رزمة من الأوراق النقدية وقال:
هذا مال تصرفين به. أما كيف تسافرين إلى البصرة فأوصيك بإجراء
حديث مع تلك العجوز السيدة كارديو ترينتش صباح غد. فولي إنك
متلهفة على زيارة البصرة قبل التحاقك بتلك الحفريات التي تتظاهرين
بالعمل فيها. أسألك عن فندق هناك، وستخبرك فوراً أن عليك أن
تقضي في الفضيحة، وسوف ترسل برقية إلى السيدة كلايتون. وربما
وجدت هناك إدوارد هناك. لقد تحدثت عائلة الفصل كلايتون بهذا
للزوار، وكل من يمر هناك يقيم عندهم. وفيما عدا ذلك لا أستطيع
إعطائك أية نصيحة باستثناء نصيحة واحدة: إذا ما حدث أي مكروه،
وإذا ما شئت هنا تعرفينه ومن الذي كلّفك بما تقومين به فلا تحاولي
إبراز بطولتك. فولي كل ما عندك فوراً.

قالت فكتوريا بامتنان: شكراً جزيلاً لك. إنني جبانة جداً أمام
الأكم، وإذا ما قُدر لأحد أن يعذبني فأعشى أن لا أصمد.

- لن يُحْمَلُوا أنفسهم عناء تعذيبك، إلا إذا دخل عنصر سادي
في الموضوع. إن التعذيب وسيلة عفى عليها الزمن. وخزعة أبرة صغيرة
تجيبين بعدها على كل شيء، بصدق ودون أن تدركي ذلك. إننا نعيش
في عصر العلم، ولذلك كم أُرِدُّ منك تبني أفكار مثالية حول مسألة
السرية. إذ إنك لن تخبريهم بشيء لا يعرفونه أصلاً. لا بد أن تنفتح
أعينهم عليّ بعد هذه الليلة، وعلى السير روبرت كروفتن في

- وماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟

- هذا ما ينبغي أن أتذكره لك. يُفترض بك - نظرياً - أن نكتفي
ما نفعلينه من الجميع. أما عملياً!

رفع حاجبيه حيرة وأكمل قائلاً: إن من شأن ذلك أن يجعله
في خطر، ولكنني فهمت أنه كان ذا سجل جيد في القوة الجوية.
لا أظن الخطر سيفلحه. غالباً ما يكون الرأيان أفضل من رأي واحد.
إنه يظن - إذن - أن في «عصن الزيتون» ذلك حجت يعمل شيئاً مريباً؟
هذه نقطة مثيرة... مثيرة جداً

- لماذا؟

قال: «لأننا نرى ذلك أيضاً»، ثم أضاف قائلاً: مجرد نصيحتين
وذاعبتين. الأولى (إن سمحت لي بقولها) هي أن لا تخترعي كذبات
كثيرة مختلفة. إذ سيصعب تذكرها والإبقاء بمتطلباتها أعراف أنك
موهوبة في هذا الجانب، ولكن دعي الأمور بسيطة، هذه هي
نصيحتي.

قالت فكتوريا بتواضع يقتضيه الحال: سأذكر ذلك. وما هي
النصيحة الأخرى؟

- دعي أذنك مصغيتين دوماً لأي ذكر لشابة تُدعى آنا شيل.

- ومن هي؟

- لا تعرف الكثير عنها، وسنبدا أن نعرف عنها المزيد.

* * *

الفصل الخامس عشر

قالت السيدة كارديو تريتش: طبعاً ينبغي أن تقضي لي
القصصية. هراء ما تقولينه يا عزيزتي... لا يمكنك الإقامة في فندق
المطار. سبعمد أسرة كلايتون بك. لقد عرفتهم لسنوات طويلة.
سنرسل برقية ويمكنك بعدها السفر بقطار الليلة، وهم يعرفون
الدكتور باونسفوت حق المعرفة.

احمرّ وجه فكتوريا؛ إذ أن أسقف لانغو (الذي أصبح لاحقاً
أسقف لانغاو) يختلف تماماً عن الدكتور باونسفوت الحقيقي بشحمه
ولحمه!

كان لرحلة القطار كل سحر التجربة الجديدة، وفي محطة
الوصول استقبلتها سيارة القاصلة وقادتها إليها. دخلت السيارة عبر
بوابات ضخمة إلى حديقة جميلة حتى انتهت إلى أسفل دوج يقضي
إلى الشرفة التي تحيط بالمزمل. وخرجت السيدة كلايتون من الباب
لستقبلها بابتسامة ونشاط قائلة: إننا سرورون لرؤيتك. إن البصرة
جميلة حقاً في مثل هذا الوقت من السنة، ولا ينبغي لك أن تتركي
العراق دون رؤيتها، ومن حسن الحظ أنه لا يوجد الكثيرون هنا في
هذه الأيام بالذات. أحياناً لا تعرف كيف نفعل لتستطيع تأمين إقامة

الناس هنا، ولكن لا يوجد أحد الآن باستثناء موظف السيد رايتون،
وهو شاب رائع تماماً. لقد فانتك -بالمناسبة- داية ريتشارد بيكر؟
لقد غادر قبل أن أنلني برقية السيدة كارديو تريتش بقليل.

لم تعرف فكتوريا من هو ريتشارد بيكر، ولكن بدا من حسن
الحظ أن يغادر في هذا التوقيت بالذات.

- لقد ذهب إلى الكويت لمدة يومين، والكويت مكان ينبغي
أن تشاهده. حسناً، ما الذي تفضليه في البداية... حقاً أم كوب
قهوة؟

قالت فكتوريا بامتنان: بل الحتم من فضلك.

- وكيف حال السيدة كارديو تريتش؟ هذه غرفتك، والحنام
هناك. حل هي صديقة قديمة لك؟

- آه، لا. لقد قابلتها قبل فترة فقط.

- وأظنها نisht تاريخك منذ أول ربيع ساعة، أليس كذلك؟
إنها نثرارة فظيعة كما أظنك عرفت. لديها ما يشبه الجنون لمعرفة
كل شيء عن كل شخص، ولكن رفاقها ممتعة، وهي لاهية ورق
من الطراز الأول. أأنت متأكدة أنك لا ترفعين بشيء من القهوة أو
غيرها أولاً؟

- نعم، شكرًا لك.

- حسناً، سأراك لاحقاً إذن. هل لديك كل ما تحتاجينه؟

استعدت السيدة كلايتون كمنحلة سجيده، وغسلت فكتوريا

وجهاً ومسطت شعرها بكل عناية. من حسن الحظ أن إدوارد يعرفها باسمها الثاني جونز. وربما لا يدهشه إضافة اسم باونسفوت. متاني الدهشة من وجودها في العراق، وبالنسبة لهذا الأمر كانت فكتوريا تأمل أن تتمكن من الانفراد به حتى ولو للحظة واحدة.

وضعت هذه الفكرة نصب عينها، فالتفت بهدوء خارجة لتأخذ مكانها على الشرفة بحيث تستطيع رؤية إدوارد بمجرد عودته من أي حمل هو مشغول فيه... وهو على الأغلب مصارعة رجال الجمارك لتخليصه على متاديق الكذب.

كان أول الواصلين رجلاً طويلاً ذا وجه يبدو عليه طول التفكير، وفيما هو يصعد الدرج ذهبت فكتوريا إلى زاوية الشرفة. وهناك رأت إدوارد بالفعل يدخل من خلال باب المديقة الذي يغضي إلى منحى النهر. وعلى طريقة جوليت، انكأَت فكتوريا على سياج الشرفة وأطلقت هيساً مطولاً تسترعي به انتباه إدوارد. أما إدوارد فقد أدار رأسه بعيداً ونظر حوله. نادته فكتوريا بصوت متخفص: هت! هنا...

رفع إدوارد رأسه وبدأ على وجهه تعبير دهشة مطلقة، فهتف قائلاً: يا إلهي! فتاة منطقة تشيرنغ كروس!

- هلى. انتظري! أنا نازلة.

أسرعت فكتوريا على الشرفة ونزلت الدرج واستدأبت إلى زاوية المنزل حيث بقي إدوارد واقفاً طامعاً وعلى وجهه أمارات الدهشة. يادورها قائلاً: لا يمكن أن أكون ثملاً. هذا أنت حقاً؟

أجابته بسعادة: نعم، هذه أنا.

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وكيف جئت؟ لقد ظننت أنني لن أراك ثانية أبداً.

- وأنا ظننت ذلك أيضاً.

- إنها حقاً أشبه بمعجزة، كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

- بالطائرة.

- طبعاً بالطائرة، وإلا لما وصلت إلى هنا بهذه السرعة. ولكن احبني أية فرصة واثقة أنت بك إلى البصرة؟

- القطار.

- إنك تتعمدين إغاطني أيتها الشقية. يا إلهي! إنني سعيد لرؤيتك. ولكن كيف وصلت إلى هنا حقاً؟

- لقد خرجت من إنكلترا مع امرأة كسرت ذراعها... أمريكية تدعى السيدة كليب. وقد عُرضت عليّ هذه الوظيفة في اليوم التالي للقاء بك، وكنت قد تحدثت عن بغداد، وأنا كنت قد سمعت لندن ببعض الشيء، ولذلك قلت لنفسى: لماذا لا أخرج لرؤية العالم؟

- أنت حقاً شديدة الأريحية يا فكتوريا. أين هذه المرأة كليب؟

هنا؟

- لا! لقد ذهبت إلى ابنة لها قرب كركوك. كانت وظيفتي مرافقتها في سفرها فقط.

- ما الذي تفعلينه الآن إذن؟

- ما زلت أرى العالم. ولكن الأمر يتطلب بعض الجهد والوقت والدوران. لذلك أردت رؤيتك قبل أن تلقي بحضور الآخرين، أعني أنني لا أريد أي إشارة منهورة إلى كوني طابعة اختزال ففدت عملها، كما كنت حين رأيته آخر مرة.

- بالنسبة لي أنا فساهتمد ما نقولنه من نفسك كائنًا ما كان. أنا جاهز لسماع التعليمات.

- الفكرة هي أنني الأسة باونسفوت جونز. وعمي عالم آثار بارز ينقب عنها في مكان قصي هنا، وسأضم إليه قريباً.

- وهذا كله غير صحيح، أليس كذلك؟

- بالطبع. ولكنها قصة جيدة الحبكة.

- آه، نعم... قصة مثارة. ولكن ماذا لو التقيت مع العجوز باونسفوت وجها لوجه؟

- لا أظن ذلك محتملاً. إن علماء الآثار - حسب معلوماتي - إذا بدؤوا بالبحر يستمرون فيه كالمجانين دون توقف.

- نعم، أشبه بكتاب الأثر. أظن أن في ذلك الكثير من الصدق. وهل للسيد باونسفوت ابنة أخ حقيقية؟

- وما أدراني بذلك؟

- آه، أنت لا تنقسمين دور أحد بعد ذاته إذن، وهذا يجعل الأمر أسهل.

- نعم، فمن شأن الرجل أن يكون له الكثير من بنات الإخوة

والأخوات في نهاية الأمر. أو أنني قد أقول - عند الطوارئ - إنني مجرد ابنة عم له ولكنني اعتدت أن أتأديه بعثتي.

قال إدوارد بإعجاب: إنك تفكرين بكل شيء - أنت - حقاً - فتاة مدعشة يا فكتوريا. لم أقابل قط فتاة مثلك. لقد ظننت أنني لن أراك لسنوات طويلة، وعندما أراك ستكونين قد نسيت كل شيء، عني، وما أنت الآن هنا.

سببت لها النظرة المعجبة المتراضعة التي نظر بها إدوارد إليها رضا شديداً. قال لها: ولكنك متعجبة جداً، أليس كذلك؟ أعني أنك لم تأتي لتحصلي على إرث أو ثروة أو ما شابه ذلك؟

قالت فكتوريا ببطء: أنا أبعد ما أكون عن الموارث والثروات! نعم، سأكون بحاجة إلى عمل، وقد ذهبت - في الحقيقة - إلى مقر عملك المسمى "مكتب الزيتون" ورايت الدكتور رايتون وطلبت منه عملاً، ولكنه لم يبد استجابة كبيرة... أعني لتأمين عمل يراتب.

- ذلك الشحاذ العجوز بخيل جداً بماله. فكرته هي أن يأتي الجميع ويعملوا حياً في العمل.

- أظنه دعيماً يا إدوارد؟

- لا، لا أدري ماذا أظن. لا أرى كيف يمكن أن يكون غير نزيه... فهو لا يربح مالاً من نشاطه، وحسبما أرى فإن كل تلك الحماسة الرهيبة لا بد أن تكون حقيقية.

- من الأفضل أن ندخل. يمكننا أن نتحدث لاحقاً.

حضت السيدة كلايتون: لم أكن أعلم أنك وإدوارد متعارفان.

ضحكت فكتوريا وقالت: آه، إننا صديقان قديمان، إلا أننا فقدنا الاتصال بعضنا ببعض في الواقع. لم أكن أعرف أن إدوارد موجود في هذا البلد.

سأل السيد كلايتون (وهو الرجل نفسه الذي رآته فكتوريا بصعد الدرج): كيف كان تقدم العمل هنا الصباح يا إدوارد؟ هل حققت أي تقدم؟

- إنها تبدو مهمة صعبة جداً يا سيدي. إن صناديق الكتب موجودة هناك، وهي كلها حاضرة وصحيحة، ولكن الإجراءات الشكلية للتخليص عليها تبدو بلا نهاية.

ابتسم كلايتون وقال: أنت جديد على أساليب التأخير الشرقية.

قال إدوارد موضحاً: إن الموظف المعني يبدو دائماً غائباً في يوم الحاجة إليه. ورغم أن الجميع لطفاء ومتعاونون، إلا أن شيئاً لا يحدث كما يبدو.

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون على سبيل المواساة: ستخرجها في نهاية الأمر. كان قرار الدكتور رايلي بإرسال شخص لمتابعة الموضوع شخصياً قراراً حكيماً، ولأنا لقيت الكتب هنا لأشهر.

وبما أن المعاملات تتوقف في ساعات الظهيرة، فقد خرج إدوارد وفكتوريا بعد الغداء للتجول ورؤية المدينة. وقد أحببت

فكتوريا بالنهر المسمى شط العرب، بما يحده من سبكات النخيل، وأحببت أيضاً حب الشكل الجميل للقوارب الحربية بمقدماتها العالية الشبيهة بقوارب البندقية وقد رُبطت في النهر. ثم ذهب الاثنان إلى السوق وشاهدوا صناديق العروس التي تُصنع في الكويت والمرصعة بأشكال غنية من النحاس، وغير ذلك من البضائع.

وعندما قتل الاثنان عائدين إلى القنصلية، وكان إدوارد يحضر نفسه لهجوم جديد على دائرة الجمارك، عندها فقط سألت فكتوريا فجأة: إدوارد، ما هو اسمك؟

حدثني إليها وقال: ماذا تعنين يا فتى، عليك يا فكتوريا؟

- أعني اسمك الأخير. ألا تذكر أنني لا أعرفه؟

- حقاً؟ آه، نعم، أطلقك لا تعرفينه. إنه غورينغ.

- إدوارد غورينغ. إنك لا تعرف كيف شعرت بأنتي مغفلة حين ذهبت إلى «عصن الزيتون» أريد السؤال عنك وأنا لا أعرف شيئاً باستثناء إدوارد.

- هل كانت هناك فتاة سمراء؟ ذات شعر طويل ملفوف؟

- نعم.

- تلك هي كاترين. إنها لطيفة جداً. لو أنك قلت إدوارد لعرفتني على الفور.

قالت فكتوريا بشيء من صبط النفس: نعم، أحببتها كانت متعرف.

- إنها فتاة في غاية اللطف. ألا تظنين ذلك؟

- آه، تماماً...

- ليست جميلة عملياً، ولكنها في غاية التعاطف.

- حقاً؟

كان صوت فكتوريا قد غدا الآن جليداً تماماً، ولكن الظاهر أن إدوارد لم يلاحظ شيئاً.

- لا أعرف -حقاً- ماذا كنت سأفعل دونها؛ فقد وضعني في صورة العمل، وأخرجتني من مأرق كنت سأبدو منفلاً فيها. أنا وأنت أنكما ستصبحان صديقتين حميمتين.

- لا أحسب أننا سنجد فرصة لذلك.

- آه، يلى؛ سوف أحصل لك على عمل في مشروعتنا.

- وكيف ستتمكن من ذلك؟

- لا أدري، ولكنني سأتمكن من ذلك بشكل ما. سأقول لرائيون المحور أمة طابعة رائعة أنت... إلى آخر تلك المعروفة.

- ولكنه سرعان ما سيكتشف أنني لست كذلك.

- ومع ذلك لمساعدتك إلى «فصل الزيتون» بشكل أو بآخر. لن أسمح لك بأن تبقي جواله على هواك. وإلا لكان الخبر التالي الذي سأسمعه هو أنك انجهدت إلى بورما أو مجاهل أفريقيا. لا يا عزيزتي

فكتوريا، سأضعك أمام ناظري تماماً. إنني لا أثق بك مقدار حبة خردل، فأنت مغرمة جداً بروية الدنيا.

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: "أيتها الأحمن! ألا تدري أن الخيول الجامحة ليس من شأنها أن تزحزحي من بغداد". أما بصوت عال فقالت له: حسناً، سيكون من الممتع تماماً الحصول على عمل في «فصل الزيتون».

- ما كنت لأضف ذلك بالممتع. فالأمر كله في غاية الجدية، بالإضافة إلى كونه عملاً سخيفاً جداً.

- أما زلت ترى أن فيه شيئاً غير طبعي؟

- آه، كانت تلك مجرد فكرة طائشة خطرت لي.

- كلا، لا أظنها كانت مجرد فكرة طائشة. أظنها فكرة صحيحة.

التفت إليها بحدة وقال: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

- شيء سمعته... من صديق لي.

- من هو؟

- مجرد صديق.

قال إدوارد متذمراً: يبدو أن اللفظات من أمثالك الكثير من الصدقات.

أخفت رضاها السعيد و سألت: إدوارد، هل يوجد من يُدهي

بوضوح وطوراً بإبهام. وليسب غامض لم تكن فكتوريا قادرة على أن تروي أحداثاً حقيقية بشكل درامي مؤثر. كان سردها متشراً ناقصاً وكأنها تروي قصة متحلة مُخترعة. وعندما انتهت من سردها نظر إليها إدوارد بارتياق وقال: أنت على ما برام يا فكتوريا؟ أهني هل أصابك ضربة شمس أو... حلم أو شيء آخر؟

- كلا بالطبع.

-- لأن هذا يبدو أمراً يستحيل حدوثه تماماً.

قالت فكتوريا وقد تحست: ولكنه حدث.

- وهذه القصة الميلودرامية عن القوى العالمية والمنشآت السرية الغامضة في قلب البت أو بلوشستان. أعني أن هذا كله لا يمكن أن يكون صحيحاً. إن أمراً كهذا لا تحدث.

- هذا ما يقوله الناس دوماً قبل أن تحدث.

- بالله عليك أيها الشقية... أليس تخترعين ذلك كله؟

صاحت فكتوريا متزعجة: كلا!

- وقد جئت إلى هنا للبحث عن شخص يدعى لوفارج وامرأة تدعى آنا شيل...

قاطبته قائلة: وهي امرأة سمعت بها أنت شخصياً. لقد سمعت بها، أليس كذلك؟

- لقد سمعت الاسم... نعم.

- كيف؟ وأين؟ في «غصن الزيتون»؟

سكت إدوارد لضع دقائق ثم قال: لا أدري إن كان ذلك يعني شيئاً. كان مجرد أمر... غريب...

- هيا، أخبرني.

- اسمي يا فكتوريا، إنني أختلف عنك. أنا لست على درجة ذكالك. إنني أشعر فقط. أشعر بطريقة غريبة بأن الأمور غير طبيعية على نحو ما... ولا أدري لماذا أحس بذلك. أنت تحددين الأمور وتستنتجين منها حقائق، أما أنا فليس لي من الذكاء ما يجعلني أقوم بذلك. إنني أشعر بطريقة مبهمة فقط بأن الأمور غير طبيعية، ولكنني لا أدري لماذا.

- أنا أيضاً أشعر بذلك أحياناً، كمحالة السير روبرت على الشرفة.

- من هو السير روبرت؟

- السير روبرت كروفتن لي. كان مسافراً على متن الطائرة معنا. وهو متججج جداً ومفرور، ولكنه شخصية باوزة كما تعلم. وعندما رأته جالساً على الشرفة في فندق نيو تحت أشعة الشمس اتناهي شعور غريب - كالذي فكرته - بأن في الأمر خطأ ما، دون أن أعرف ماهيته.

- لقد طلب منه رايليون إلقاء محاضرة في «غصن الزيتون» كما

أظن، ولكنه لم يستطع. أظنه عاد بالطائرة صباح أمس إلى القاهرة
أو دمشق أو مكان آخر.

- حسناً، أكمل حديثك عن آنا شيل.

- آه، آنا شيل... لم يكن في الأمر شيء في الواقع؛ مجرد
ملاحظة من إحدى الفتيات.

قالت فكتوريا على الفور: كاترين؟

- أظنها كانت كاترين بالفعل، تذكرت الآن.

- لقد كانت كاترين بالطبع؛ ولهذا لم تشأ أن تخبرني بالأمر.

- هراء، هذا زعم سخيف تماماً.

- حسناً، ماذا كانت تلك الملاحظة؟

- قالت كاترين لإحدى الفتيات: 'عندما تأتي آنا شيل يمكننا
التقدم. عندها سنتلقى أوامراً منها... ومنها فقط'.

- هذا في غاية الأهمية يا إدوارد.

حسبها إدوارد قائلاً: تذكرني أنني لست واقفاً حتى من أنه هو
الاسم الذي ذكر.

- ألم نر الأمر غريباً في ذلك الوقت؟

- نعم، لم أَرُه غريباً بالطبع. ظننت أنها مجرد امرأة قادمة

لترأس العمل؛ مجرد واحدة من تلك النساء القديرات. أنت واقعة
من أنك لا تتخيلين الأمر كله يا فكتوريا؟

وقبل أن نرعبه ينظرها سارع إلى الاعتذار قائلاً: حسناً،
حسناً، إلا أن عليك أن تعترفي بأن القصة كلها تبدو غريبة بالفعل.
إنها كقصص الرعب والإثارة... يدخل شاب ويدمدم بكلمة لا نعتي
شيئاً... ثم يموت، إنها لا تبدو قصة حقيقية.

قالت: 'أنت لم نر الدماء'، ثم ارتعدت قليلاً، فقال متعاطفاً:
لا يد أنها شكلت لك صدمة رهيبة.

- لقد صدمني ذلك بالفعل. وتأتي أنت لتتوَّج ذلك وتُسألني
إن كنتُ اخترعُ القصة كلها.

- أنا أسف، ولكنك ماهرة قليلاً في اختراع الأمور... كشأن
أسقف لانغو وغير ذلك!

- آه، كان ذلك مجرد حيوية فناة شابة، أما هذا الأمر فهو
جديّ يا إدوارد، جدّي حقاً.

- ماذا بالنسبة لذلك الرجل... هل اسمه داكين؟ هل أقنعك
كرجل يعرف ما الذي يتكلم عنه؟

- نعم، لقد كان مُقنعاً جداً. ولكن، اسمع يا إدوارد... كيف
عرفت...

قطعت حديثها صبيحة من الشرفة: 'هيا نعالا... الشاي جاهز
بانتظاركما'، فردت فكتوريا: 'إننا قادمان'.

ما حدث يبدو مصطنعاً غير حقيقي. لقد وصلت هي (فكتوريا جونز، الطالبة المتعمورة في لندن) إلى بغداد، وراحت رجلاً يُقتل أمام عينيها تقريباً، ثم أصبحت محبلة سرية أو شيئاً بهذه المستوى من الإثارة، ثم التفت - أخيراً - بالرجل الذي أحبته، الفتحة في حديقة استوائية توفّر فيها أشجار النخيل.

وطاف في خيالها مقطع شعري من أبيات الطفولة:

كم ميلاً إلى بابل؟

إنها سمون،

أنتطح الوصول هناك على ضوء الشموع؟

تعم، والعودة ثالثة أيضاً.

ولكنها لم تعد ثالثة... كانت ما تزال في بابل. ربما لن تعود أبداً... هي وإدوارد في بابل؟

سؤال ما أرادت طرحه على إدوارد... هناك في الحديقة، هي وإدوارد... تسأل إدوارد... ولكن السيدة كلايتون نادت... وقد طار ذلك من ذهنها... ولكنها ينبغي أن تتذكر... لأنه كان سؤالاً مهماً... لم يكن للامر أي معنى. نخيل... إدوارد... أنا شيل... وبرت كروفت... كي... كل شيء غير طبعي على نحو ما... لو استطاعت فقط أن تتذكر...

امرأة ثاني بانجهاها في سر أحد الفنادق... امرأة في بدلة جيدة التفصيل... كانت هي نفسها... ولكن عندما اقتربت المرأة رأت أن الوجه وجه كاثرين. إدوارد وكاثرين... هراء! قالت لإدوارد: تعال

قالت السيدة كلايتون لزوجها وهي تراقبهما يقتربان من الدرج: إن وراء الأكمة ما وراءها! شايان لطيفان... ربما لم يكن لديهما مال أبداً. هل أقول لك رأيي يا جيرالد؟

- بالتأكيد يا عزيزتي! إنني مهتم دوماً بسماع أفكارك.

- أظن أن تلك الفتاة قد جاءت من إنكلترا لتتنصم إلى عمها في حفلاته لسبب وحيد وبسيط هو ذلك الشاب.

- لا أكاد أظن ذلك يا روزا. لقد ذهبت تماماً لرؤية بعضهما بعضاً.

- ها! هذا لا يعني شيئاً. أظن أنه هو الذي إندهش لزوجتها.

مز جيرالد كلايتون رأسه عتياً عليها وابتمت. فقالت: إنها ليست من نوعية العامين بالأنارة، فالعاملات بهذا الحقل عادة ما يكنّ جديات ويضعن نظارات... وغالباً ما يكنّ سمحات.

- يا عزيزتي، لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة.

ذهبت فكتوريا إلى فراشها في تلك الليلة وهي تحت وطأة مشاعر متضاربة. لقد وصلت إلى ما كانت تسعى إليه؛ فقد وجدت إدوارد ولكنها ارتعدت لتفكيرها بريد الفعل الحتمي. لقد ألح عليها شعور بهبوط الرقب وتباطؤ الحدث، بغض النظر عما تفعله.

كان عدم تصديق إدوارد لقصتها السبب - جزئياً - في جعل كل

معي، سجد السيد لوفارج...، وغصة كان هناك، مرتدياً قفازات صفراء رفيعة بلون الليمون وله ثنية صغيرة مدنية سوداء.

لقد ذهب إدوارد الآن وغدت وحيدة، ينبغي أن تعود من بابل قبل أن تنطفئ الشموع وتدخل في الظلام.

من الذي قال ذلك؟ العنف... الرعب... الشر... دماء على ستره حاكبة بالية. كانت تركض... تركض... في ممر أحد الفنادق... وكانوا يركضون خلفها.

ثم استبظت فكتوريا لاهة.



قالت السيدة كلايتون: فهوة؟ كيف تحيين البيض؟ مخفوقاً؟

- هذا رائع.

- تبدين شاحبة. هل تشعرين بسرور؟

- لا، ولكني لم أتم جيداً هذه الليلة. لا أدري لماذا، فالسرير مريح جداً.

- هل لك أن تفتح لنا الحدياع يا جيرالد؟ إنه وقت نشرة الأخبار.

دخل إدوارد في نفس الوقت الذي كانت الأبواب تنطلق فيه لبدء نشرة الأخبار:

قدم رئيس الوزراء ليلة أمس تفصيلات جديدة في مجلس العموم حول التخفيضات في المستودعات بالدولار.

اعتن نغهر من القاهرة أن جثة السير روبرت كروفتن في قد أُنشئت من النيل (وصفت فكتوريا فمجانها بحدّة على المائة، فيما أطلّقت السيدة كلايتون شهقة) وكان السير روبرت قد غادر فندقه بعد وصوله بالطائرة من بغداد ولم يعد إليه في تلك الليلة، وكانت قد مضت على قتله أربع وعشرون ساعة عندما تم العثور على جثته، وقد نتجت الوفاة عن طعنة في القلب وليس عن الخوف. وقد كان السير روبرت جولة مشهوراً، وقد عُرف برحلاته في الصين وبلوشتان، وقد أُلّف عدة كتب.

حضت السيدة كلايتون: لقد قُتل! أظن أن القاهرة أسوأ من أي مكان الآن. هل تعرف أي شيء عن هذا كله يا جيرالد؟

- عرفت أنه كان مفقوداً يبدو أنه تلقى رسالة سُلمت له بإيد فغارو الفندقي بسرعة مشياً على الأقدام دون أن يقول إلى أين ذهب

قالت فكتوريا لإدوارد بعد الإفطار عندما كانا بمفردهما: أرايت؟ الأمر كله صحيح بدأ الأمر بذلك الرجل، كارمايكل، والآن السير روبرت كروفتن في. أشعر الآن بالأسف لأنني وصفته بالتبجح، فليس هذا من الأدب في شيء. كل اناس الذين يعرفون أو

يختمون شيئاً عن هذا الأمر الغريب تتم إزاحتهم عن الطريق. إدوارد،
هل نظن أنني سأكون التالية على القائمة؟

- بالله عليك لا تُظهري مثل هذا السرور بالفكرة يا فكتوريا! إن
إحسانك بالدراما قوي جداً. لا أرى سبباً يدفع أحداً لخصيتك، لأنك
لا تعرفين شيئاً... ولكن أرجوك، أرجوك، أن تكوني حريصة.

- ستكون حريصين نحن الاثنين، فلقد ورعُتُك في الأمر.

- آه، لا بأس بذلك، فهو يخفف عليّ هذه الرتبة.

- نعم، ولكن انتبه لنفسك.

ثم ارتعدت فجأة وقالت: إنه أمر عظيم! لقد كان مليئاً بالحياة.
أعني السير روبرت... وما قد مات الآن. إنه لأمر مخيف حقاً!

* * *

الفصل السادس عشر

سأل داكين: هل وجدتِ فتاك؟

أومات فكتوريا بالإيجاب، فسألها: وهل وجدتِ شيئاً آخر؟

هزت فكتوريا رأسها نافية بشيء من الألم، فقال داكين: حسناً،
هونّي عليك، وتذكّري أن النتائج في هذه اللعبة قليلة وتأتي في فترات
متباعدة. ربما كان بإمكانك التقاط شيء ما هناك... لا أحد يدري،
ولكني لم أضع حساباتي على هذا الأساس أبداً.

- أأستطيع الاستمرار في المحاولة؟

- هل تريدون الاستمرار؟

- نعم، أريد. بظن إدوارد أن بوسعه الحصول على عمل في
في «مخبر الزيتون»، ولو أبقيت عيني وأذني مفتوحة فربما عثرتُ
على شيء، أليس كذلك؟ إنهم يعرفون شيئاً عن أنا شيل هناك.

- هذا أمر مشير يا فكتوريا، كيف عرفت ذلك؟

كررت فكتوريا ما قاله لها إدوارد... حول ملاحظة كاثرين التي

قالت فيها إنهم سيتلقون الأوامر من آنا شيل عند قدومها.

قال داكين: هذا أمر مثير تماماً.

- من هي آنا شيل؟ لا بد أنكم تعرفون شيئاً عنها... أم أنها مجرد اسم؟

.. إنها السكرتيرة الخاصة لمصرفي أمريكي... رئيس مؤسسة مصرفية دولية. وقد حادرت نيويورك وجاءت إلى لندن قبل نحو عشرة أيام، ثم اختفت منذ ذلك التاريخ.

- اختفت؟ أعني أنها ماتت؟

- إن كانت قد ماتت فإن جثتها لم يُعثر عليها.

- ولكنها ربما تكون قد ماتت، أليس كذلك؟

- آه، بلى، ربما.

- هل كانت... قادمة إلى بغداد؟

- ليست لديّ فكرة عن ذلك. يبدو من ملاحظات هذه الشاية كاثرين أنها كانت فاعلة، أو لنقل إنها جاءت بالفعل... إذ ليس لدينا حتى الآن سبب يدهونا للاعتقاد بأنها ماتت فعلاً.

- ربما استطعتُ معرفة المزيد في «معرض الزيتون».

- نعم، ربما استطعت... ولكن ينبغي أن أحذرك مرة أخرى بوجود التزام المحذر الثام يا فكتوريا. إن المنظمة التي تعملين ضدها

شرسة جداً ولا ترحم، ولا أرغب أبداً في رؤية جثتك طافية على نهر دجلة.

ارتعدت فكتوريا قليلاً وتمتمت: مثل السير روبرت كروفتن لي. أعلم أنه في ذلك الصباح عندما كان موجوداً في الفندق هنا كان في حالة شيء غريب... شيء أدهشني. أتمنى لو أستطيع تذكر طبيعة ذلك الشيء.

- ماذا نعلمين بكلمة غريب؟

قالت: «أعني... مختلف»، ثم هزت رأسها بانزعاج جواباً على نظراته المسائلة وقالت: ربما تذكرت لاحقاً، ولكن لا أظن ذلك مهماً على أية حال.

- كل شيء قد يكون مهماً.

- إن حصل لي إدوارد على وظيفة فإنه يرى أن عليّ العثور على غرفة أقيم فيها كالتفتيات الأخريات.

- من شأن ذلك أن يثير شكوكاً أقل، كما أن نادق بغداد غالية جداً. يبدو أن لفتاك عقلاً راجعاً.

- أتريد أن نراه؟

هز داكين رأسه ناعياً بإصرار وقال: كلا، أخبريه أن يبقى بعيداً عني دوماً. من المؤسف أنك ستكتوبين مريضه شبهة بسبب الظروف التي أحاطت بموت كارمايكل في تلك الليلة، ولكن لا يوجد أبداً ما يربط إدوارد بتلك الحادثة ولا بي أنا... ولهذا الأمر قيمة بالغة.

بدأت فكتوريا تقول: عناصر الشرطة الذين جاؤوا...

فقاطعها داكين قائلاً: آه، ولكنهم جاؤوا فيما بعد... جاؤوا من الشارع. أحسب أنهم تلقوا إشارة ما، ولكنهم لم يقوموا بالطعن. لا بد أن الطمعة كانت على يد شخص يعرفه كارمايكل جيداً ويثق به، أو على يد شخص اعتبره كارمايكل بسيطاً لا يؤبه له. لو كنت أعرف فقط!

* * *

إن تحقيق إنجاز ما يجلب معه -عادةً- ذلك الإحساس بالارتقاء ويتناول الأحداث. لقد رأيت فكتوريا في قدومها إلى بغداد وفي عثورها على إدوارد برنامجاً ساعراً، أما الآن وقد حصلت على مرادها فقد أصبحت تتساءل -في لحظات نادرة من مساءلة النفس- عما دفعها لفعل ما فعله!

لقد كان لإدوارد -بطريقة أو بأخرى، بقوة التصميم المجردة أو بقوة الإقناع- دور أساسي في حصول فكتوريا على وظيفة بأجر زهيد في «غصن الزيتون»، وكانت تمضي ليلٌ رقتها في غرفة مظلمة يضئها مصباح كهربائي وتطبع على آلة طابعة قديمة رسائل وملاحظات وبيانات حول البرنامج العاطفي الساذج لهذه المنظمة. كان إدوارد قد أحس بأن في المنظمة شيئاً غير طبيعي، وبد أن السيد داكين يتفق مع وجهة النظر تلك. أما هي فقد كانت هنا لتكتشف ما تستطيع، ولكن لم يوجد -بقدر ما نراه- ما يمكن اكتشافه! فقد كانت أنشطة «غصن الزيتون» غارقة في صلب السلام العالمي، وقد

- كنت أنوي سؤالك عن طعن كارمايكل عملياً؟ أكان قاتله شخصاً تبعه إلى هنا؟

قال داكين ببطء: كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

- لا يمكن؟

- لقد جاء إلى هنا في «ثقة»، وهي نوع من القوارب الصغيرة المحلية، ولم يكن أحد يتبعه. إننا نعرف ذلك لأنني كنت شخصاً يراقب النهر.

- إذن فقد كان القاتل شخصاً... من الفندق؟

- نعم يا فكتوريا، والأنتكي أنه كان شخصاً من جناح محدود في الفندق... لأنني كنت -شخصياً- أراقب الدرج ولم يصعد أحد عبره.

راقب وجهها المنحير ثم قال بهدوء: هذا لا يعطينا كثيراً من أسماء المشتبه بهم؛ أنت وأنا والسيدة كاردبر تريتش وماركوس وأخواته، وبعض الخدم العجائز الذين خدموا هنا لسنوات طويلة... يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم، ومع ذلك فلا يرجح هذا لسبب وجهه جيداً.

- ما هو؟

- لقد كان كارمايكل في أوج نيقظه وحذره... كان يعلم أن لحظة الذروة في مهته تقترب، وكان رجلاً ذا غريزة حادة جداً في تحسس الخطر. كيف خذله تلك الغريزة؟

سواء النفس وسعة الأفق". وحاولت فكتوريا أن تبدو متلهفة مسخية، فيما مضى الدكتور وايتون قائلاً: "ينبغي لك أن تحيي العمل... أن تحيي الموضوع الذي تعملين فيه وأن تتطلمي للمستقبل المضيء. انحصين حقاً بكل ذلك يا طفلي العزيز؟"

تمثلت فكتوريا بعبارة موافقة من قبيل المجاملة واستدارت للخروج. ثم تذكرت أنها نسيت الورقة المطبوعة فعدت ثانية، ولقد أزعجتها قليلاً النظرة التي رأتها في عيني الدكتور وايتون. كانت نظرة حادة متشككة، وتساءلت -بكثير من عدم الارتياح- عن مقدار مراقبة الدكتور وايتون لها من كتب وعن رأيه الحقيقي فيها.

كانت التعليمات التي تلقفتها من السيد داكين محدودة ودقيقة جداً. لقد قال الدكتور وايتون لها أن تستمر بعض الأعمال في الاتصال به إن كان لديها ما تريد إيصاله له، وفكرت -بمرارة- بأنها لم تجد حاجة لمثل هذا الإجراء حتى الآن. كان كل عملها هو القيام بوظيفة ذات أجر زهيد تؤذيها دون اهتمام، ولم تكن ترى إدوارد إلا في فترات متباعدة، إذ أن الدكتور وايتون كثيراً ما كان يرسله إلى أماكن بعيدة نائباً. وقد عاد لقراءه الآن من رحلة إلى إيران، وخلال غيابها كانت قد أجرت لقاء واحداً وغير كافٍ مع داكين. كانت التعليمات التي تلقتها تقضي بأن تذهب إلى فندق تيو وسأل إن كانت قد تركت خلفها حشرة صوفية في الفندق. وبما أن الجواب كان بالنفي فقد ظهر ماركوس وقادها مباشرة إلى المصطبة المطلة على النهر لتناول الشاي، وخلال ذلك دخل داكين الفندق قادماً من الشارع كالمنكعب طوّح له ماركوس ودهاء للانضمام إليهما. وفيما كان داكين يرتشف

تم عقد تجمعات عديدة قدم فيها عصر الليون ومعه أطعمة فضيحة، وكان يُتَراض فكتوريا في تلك التجمعات أن تلعب دور المضيفة فتختلط بالحضور وتُعرف الناس بعضهم ببعض وتغزو الشعور العام الجيد بين أشخاص من جنسيات مختلفة كانوا يميلون إلى التحديق بعضهم إلى بعض بشيء من العدائية ويلتهمون ما لديهم من طعام وشراب.

كانت قد تركت فندق تيو وأخذت مكانها مع بعض العاملات الشابات في المنظمة من جنسيات مختلفة في بيت على الضفة الغربية للنهر. ومن بين أولئك الشابات كانت كاثرين، وبدا لفكتوريا أن كاثرين نرافها بحين الرية، ولكنها لم تستطع الجزم فيما إذا كان ذلك نتيجة لشك كاثرين في أنها (أي فكتوريا) جاسوسة أم أن المسألة تتعلق فقط بكسب عواطف إدوارد. كانت تميل إلى هذا الاحتمال الأخير؛ فقد كان معروفاً أن إدوارد هو الذي فاز بالوظيفة لفكتوريا، وقد رعتها أعين كثيرة بشيء من الحسد والتفوق.

ومع أن منظمة "فصن الزيتون" نفسها بدت بريئة تماماً، إلا أن فكتوريا أحست بشعور محدد بأن رئيسها ومؤسسها كان من صنف مختلف؛ فقد انتهت -في مناسبة أو مناسبة- لنظرة الدكتور وايتون المتاملة تستمر عليها، ومع أنها راجحت تلك النظرة بأكثر أساليبها براءة، إلا أنها شعرت برغبة مفاجئة أشبه بالغفوب. ومرة سألها عندما استدعيت إليه لمشرح خطأ مطبعي: "أرجو أن تكوني سعيدة بالعمل معنا؟"، فقالت: "أه، نعم؛ سعيدة حقاً يا سيدي"، ثم أضافت قائلة: "إنني أسفة لأنني أرتكب كل هذه الأخطاء"، فقال: "نحن لا نأبه للأخطاء، لا فائدة لنا من آلة لا روح فيها؛ إننا نحتاج الشباب، نحتاج

كوبه سرعان ما تم استدعاء ماركوس لأمر ما، وظل الاثنان هناك متقابلين على المائدة الصغيرة.

وبشيء من الخشية اعترفت فكتوريا بأنها لم تنجح في مهمتها، ولكن ذاكين طمأنها بعطف قائلاً: يا طفلي العزيزة، إنك لا تعرفين حتى ما تبحثين عنه، أو حتى إن كان يوجد ما يمكن العثور عليه هناك. ما هو انطباعتك - عموماً - عن «الحسن الزيثون»؟

قالت فكتوريا يتمهل: إنها منظمة غامضة تماماً.

- وماذا عن رايتون؟ أهو حقيقي صادق؟

- أظنه حقاً كذلك...

ولكن صوت فكتوريا كان يوحى بالشك، وقد فكرت قائلة لنفسها: نعم، الأمر كله يتركز حول رايتون. ففي أول لقاء لإدوارد مع قبل أسابيع في لندن كان الدكتور رايتون هو السبب في ملاحظات إدوارد الغامضة حول «الريبة» التي تحيط بهذا الأمر. وقررت - فجأة - أنه لا بد من وجود حدث معين أو كلمة معينة أيقظت ذلك التامل وعدم الارتياح لدى إدوارد؛ فهي ترى أن تلك هي الطريقة التي تعمل بها أذهان الناس. إن شكوك المرء الغامضة لا تكون عادة نتيجة إحساس غريزي، بل تكون دائماً نتيجة سبب معين. ولو أنها استطاعت الآن حمل إدوارد على العودة بتفكيره إلى الوراء والتذكر لأمكنهما معاً أن يقعا على الحقيقة أو الحادث الذي أثار شكوك إدوارد. وفكرت فكتوريا أن عليها - ينسب الطريقة - أن تحاول تذكر ذلك الشيء الذي أدهشها إلى ذلك الحد عندما خرجت إلى الشرفة

في فندق نيو ووجدت السير روبرت كروفتن لي جالساً هناك في الشمس. صحيح أنها كانت تتوقع رجوعه في السفارة وليس في فندق نيو، ولكن ذلك لم يكن كافياً لتفسير ذلك الشعور القوي الذي أحسست به وجعلها ترى أن جلوسه هناك أمر غير واقعي أبداً! سوف تستجمع أحداث ذلك الصباح مرة بعد مرة، وبينتي أن يتم حث إدوارد على استرجاع الفترة الأولى لارتباطه بالدكتور رايتون. سوف تقول له ذلك عندما تغرد به في المرة القادمة، ولكن لم يكن من السهل الانفراد به أبداً. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: لقد كان من الأفضل لي - لفلة رويتي لإدوارد - لو بقيت في [نكتلر]!

ولكن سرعان ما ثبت - بعد وقت قصير جداً - أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فقد جاء إليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق وقال: يرغب الدكتور رايتون بطباعة هذه الأوراق فوراً من فضلك يا فكتوريا. انتبهي بشكل خاص للصفحة الثانية، فقها أسماء غريبة ربما كانت صعبة بعض الشيء.

نهدت فكتوريا وأدخلت ورقة في الآلة الطابعة وشرعت تطبع بأسلوبها السريع المعتاد. لم يكن خط الدكتور رايتون صعب القراءة كثيراً، وكانت تهين نفسها لأنها ارتكبت من الأخطاء عدداً أقل مما ترتكبه عادة. نغمت جانباً الورقة الأولى وضمت لطباعة الثانية.. وأدركت على الفور معنى أمر إدوارد لها بالانتباه لهذه الصفحة؛ فقد كانت هناك ملاحظة صغيرة أرففها إدوارد في رأس الورقة الثانية: "أذهبي في نزعة على الأقدام على طول حافة دجلة خلف بيت ملك علي في نحو الحادية عشرة من صباح غد".

كان اليوم التالي يوم جمعة، يوم العطلة الأسبوعية، وقد ارتفعت معنويات فكتوريا بشكل هائل. سرندي سترنها المخضراء، كما أن عليها أن تغسل شعرها. إن مرافق البيت الذي نسكنه نجعل من الصعب عليها أن تغسل شعرها بنفسها. تمنمت بصوت عالٍ: وهو بحاجة للغسل فعلاً.

وقعت كاثرين رأسها بارتباب (وكانت تعمل في كومة من الببائات والمغلفات)، وقالت من مكانها على المكتب الآخر: ماذا قلت؟

سارعت فكتوريا إلى تكوير قصاصة الورق التي كتبها إدوارد وقالت بشكل هادي: شعري بحاجة إلى غسل ولا أدري أين أذهب.

- إنني أعرف فتاة أرمينية تغسل الشعر بشكل جيد ومناشئها نظيفة. سأخذك إليها.

- هذا لطف بالغ منك يا كاثرين.

- سنذهب غداً؛ فهو عطلة.

- كلا، ليس غداً.

- لماذا؟

وقعت عليها نظرة ارباباب، وشعرت فكتوريا بازدياد ضيقها وكراهيتها لكاثرين. قالت: "أفضلُ الخروج في نزعة على الأقدام... لاستنشاق بعض الهواء؛ فالمرء محصور كثيراً هنا". ثم طُيبت سطرّاً بسرعة خائفة... ثم ما لبثت أن انزعجت إذ وجدت أنها داست المفتاح

الخطأ فكتبت سطرّاً كاملاً من إشارات التمجيب والأرقام والأقواس. أخرجت الورقة من الآلة واستبدلت بها ورقة جديدة وانكتبت على عملها حتى أنجزته وأخذته للدكتور رايبون.

ألقى الدكتور نظرة على الأوراق وتمتم قائلاً: "شبيراز في إيران وليست في العراق... كما أنك أخطأت لي تهجئة كلمة المراق". وهذه المدينة اسمها واسط وليس وسط... شكراً لك يا فكتوريا". ثم عاد فتأداها وهي تغادر الغرفة وقال: فكتوريا، هل أنت سعيدة هنا؟

- آه، نعم يا دكتور رايبون.

كانت عيناه السوداوان تمتح حاجبيه الكثيرين مركزيين تبحثنان. شعرت بالاضطراب يتصاعد لديها. قال: أخشى أننا لا ندفع لك الكثير.

- هذا لا يهم؛ إنني أحب العمل.

- أتمنيته حقاً؟

- آه، نعم. يشعر المرء أن هذا النوع من النشاط قيّم فعلاً.

- يربح نفس هذه الأيام في طابعات الاختزال في بغداد أظن أنني قادر على العثور لك على موقع أفضل من موقعك هنا - ولكنني لا أريد أي موقع آخر.
- وبما كان من الحكمة أن تأخذني موقعاً آخر.

اوتعدت فكتوريا قليلاً.

- نعم، هذا ما قلته. مجرد كلمة تحذير... ونصيحة.

كان في نيته شيء ينذر قليلاً بالخطر. فبحث فكتوريا عينيها أوسع من ذي قبل وقالت: إنني لا أفهم حقاً يا دكتور رايتون.

- أحياناً يكون من الأحكم للمرء أن لا يورط نفسه في أمور لا يفهمها.

شعرت بأنها وثيقة تماماً من وجود الخطر هذه المرة، ولكنها استمرت في التحديق به بعينين بريئتين كقطعة صغيرة. سألتها: لماذا جئت للعمل هنا يا فكتوريا؟ من أجل إدوارد؟

نورد وجهها غضباً وقالت بسخط: كلا بالطبع.

أوما الدكتور رايتون برأسه وقال: إن أمام إدوارد طريقاً طويلاً، وستمضي سنوات كثيرة جداً قبل أن يصبح في موقع يمكن معه أن يكون ذا فائدة لك. لو كنت مكانك لكففت عن التفكير به. كما يمكنك الحصول على وظائف جيدة حالياً كما قلت لك، مع راتب جيد ومستقبل واعد... وهي وظائف تجعلك وسط أناس من نوعيتك.

رأت فكتوريا أنه كان يراعيها حتى الآن. أكان هذا اختياراً؟ تأملت متفاهرة باللهفة: ولكنني مولعة حقاً بالعمل في «غصن الزيتون» يا دكتور رايتون.

رفع كنفه بلامبالاة، وخرجت من عنده، ولكنها كانت تشعر بعينه مركزة على ظهرها وهي تغادر البرفة. لقد أثارت هذه المقابلة شيئاً من الاضطراب عندها. هل حدث شيء أثار شكوكه؟ هل عثر أنها قد تكون جاسوسة دُشَّت في منظمة «غصن الزيتون» لكشف أسرارها؟ لقد جعلها صوته وأسلوبه تشعر بخوف كريب. وقد أغضبته ملاحظته بأنها قد جاءت لتكون بقرب إدوارد وأنكرتها بقوة. ولكنها أدركت الآن أن ظن الدكتور رايتون أنها جاءت إلى هذا المكان من أجل إدوارد أسلم وأمن بكثير من شكه أن لداكين علاقة بهذا الأمر. وعلى أية حال، ربما اعتقد الدكتور رايتون فعلاً أن سبب مجيئها هو إدوارد، وذلك بسبب الخجل الغبي الذي بدا عليها... وهكذا يكون كل شيء قد انتهى على أفضل حال.

ومع ذلك كله فقد أوت في تلك الليلة إلى فراشها وفي قلبها غصة خوف صغيرة مقبلة.

* * *

الفصل السابع عشر

نبت - في اليوم التالي - أن من السهل تماماً على فكتوريا أن تخرج بمفردها بعد التزود ببعض الإيضاحات. كانت قد استفسرت عن بيت الملك علي وعلمت أنه بيت ضخم مبني على النهر تماماً في مكان قريب عند الضفة الغربية منه.

لم يكن قد أتبع لفكتوريا - حتى ذلك اليوم - من الوقت ما يسمح لها باكتشاف ما حولها من مناطق، ولذلك فقد أحست بدهشة فرحة عندما وصلت إلى آخر الشارع الضيق ووجدت نفسها عند ضفة النهر. استدارت يميناً ومشيت ببطء على طول حافة الضفة، ولم يكن سيرها يخلو من بعض الخطورة أحياناً، فقد تأكلت الضفة في بعض المواضع ولم يتم إصلاحها أو بناؤها. وكان لأحد البيوت درج أمامه ينحدر نزولاً بحيث يعد المرء نفسه في النهر إذا ما بالغ في نزوله في ليلة مظلمة. نظرت فكتوريا إلى الماء أسفل منها، ثم انعطفت مع حافة النهر، ثم ما لبث الطريق أن أصبح واسعاً ومعتداً، ورأت أن للبيوت على يمينها ما يمنح شعوراً لطيفاً بالغموض بحيث لا تنفص عن طبيعة أو هوية ساكنيها. ثم وصلت بعد ذلك إلى حدائق نخيل كثيفة، وعلى يسارها كانت قد مرّت بدرج غير مستو يقضي

نزولاً إلى النهر، فيما جلس عربي في قاربه البدائي وأخذ يشير بيديه وينادي، وحسبت أنه يريد سؤالها إن كانت تريد عبور النهر. وقدّرت فكتوريا أنها قد أصبحت الآن - دون شك - مقابل فندق تيو، رغم أنه كان من الصعب تمييز الفوارق في الأساليب المعمارية من هذا الجانب من النهر حيث بدت جانبي الفنادق شبيهة بعضها ببعض بعد ذلك وصلت إلى طريق يمتد في أشجار النخيل ويُفضي إلى بيتين عاليين لكل منهما شرفة عالية، وخلف البيتين كان هناك بيت ضخم مبني بحيث يطل على النهر تماماً وله حديقة مسيجة، وكان الطريق المسحاذي لضفة النهر يعبر إلى داخل البيت الذي كان بيت الملك علي بالتأكيد.

وبعد بضع دقائق كانت فكتوريا قد عبرت مدخله ووصلت إلى طريق يتعد عن النهر ووقفت عنده سيارة. كانت سيارة خوية قديمة بعض الشيء، وبجانبها وقف إدارد الذي يادها قائلاً: جيد، لقد وصلت... اصعدي.

سألك فكتوريا وهي تدخل السيارة القديمة فرحة: أين ستذهب؟

التفت إليها السائق الذي بدا كومة من الثياب الكثة تدب فيها الحياة ويأتمن لها بفرح. قال إدارد: ستذهب إلى بابل. لقد آن لنا أن نمتنع بهرم عطلة.

انطلقت السيارة برجفة عيفة وأخذت تلخط بجنون على الطريق المرصوفة بحجارة ناعنة. صاحبت فكتوريا: إلى بابل؟ ما أجمل ذلك. حقاً إلى بابل؟

الآن مينة مهجورة. وعندما انتهت الجولة على الآثار جلس الاثنان قرب أسد بابل ليأثلا طعام الرحلة الذي جاء به إدوارد، أما الدليل فقد ابتعد وهو يتسم بصحة ويخبرهما - بكل نشديد - بوجوبه رؤيتهما المنحرف فيما بعد.

قالت فكتوريا كالمحالة: أهييب علينا رؤية المنحرف؟ إن التحف الم محفوظة بالمعب مع شروحاتها لا تبدو لي حفيبة أبدأ لب ما. لقد ذهبت مرة إلى المنحرف البريطاني، وكانت تلك الشجرة فظيعة ومنعية جداً لطول الوقوف على القدمين.

- الماضي محل دوعاً... المنفيل أهم بكثير منه.

قالت فكتوريا وهي تشير بشعرتها باتجاه منظر عام للأجر المكون: إنه ليس مملاً؛ فهو يثير إحساساً بال... بالعظمة. أكنت تحب لو كنت ملكاً لبابل يا إدوارد؟

سحب إدوارد نفساً عميقاً وقال: نعم، كنت سأحب ذلك. لقد كان الشاعر يلتون محقاً تماماً، «أن تحكم في جهنم أفضل من أن تخدم في الجنة».

- وهدند ستسمى كل شيء عني!

- يا طفلي المسكين! نقي أن قلبي سيظل معلقاً بطابعة لندنية صغيرة لا تستطيع نهضة أية كلمة طريفة.

طلبت فكتوريا جبينها فجأة؛ لقد أعادت كلمات إدوارد إلى ذهنها تلك المقابلة الغريبة لها مع الدكتور رايبون. قصت عليه قصة

انعطفت البارة ياراً ومضى الركب على طريق معبد جيدة وواسعة، فيما قال إدوارد: نعم، ولكن لا تنفمي الكثير. إن بابل لم تعد كما كانت من قبل، إن كنت تهمني.

لم يكن الطريق الواسع (الذي بدأ معبدًا بشكل جيد) بمستوى الآمال التي عُقدت عليه، فرغم أنه ما زال واسعاً إلا أنه قد أصبح الآن مليئاً بالحفر وآثار العجلات. صاح إدوارد: سيبدو أسوأ فيما بعد.

وفيما كانت أجسامهم تهتز بعادة مع اهتزاز البارة ارتفع الفار سحياً حولهم، وجاءت شاحنات مليئة بالناس فتجاوزت سيارتهم بسرعة وقوة، غير أهية لكل التحذيرات التي أطلقها بوق السيارة. وبعد ذلك عبر المركب حدائق مسيجة، ومجموعات من النساء والأطفال والحصير، وكان ذلك كله جديداً على فكتوريا وجزءاً من سحر الرحلة إلى بابل وإدوارد إلى جانبها.

وصلوا إلى بابل في غضون ساعتين وقد نالت منهم الرضوض. وقد خاب أمل فكتوريا قليلاً برؤية أكوام لا معنى لها من الطين الخرب والأجر السعالي بالنار؛ فقد كانت تتوقع شيئاً من قبيل الأعمدة والأقواس التي رأتها في صور لمدينة بعلبك. ولكن - شيئاً - بدأت غيبة أملها تراجعت وهما يمشيان خلف دليلهما السياحي بصعوبة فوق أكوام من الأجر المشوي. أصغت بأذن واحدة فقط لشروحاته المسببة، وعندما مضى الثلاثة في طريق المركب إلى بوابة هشتار، مع ما تبعد صور الحيوانات المحفورة حالياً على الجدران من ارتفاع، أحست فكتوريا - فجأة - بعظمة الماضي تسيطر عليها، مع رغبة بمعرفة شيء عن هذه المدينة الواسعة الشامخة التي تمتد

المقابلة، فبدأ أكثر انزعاجاً لذلك مما توقعت وقال: هذا أمر خطير
يا فكتوريا، خطير حقاً. حاولي أن تذكرتي لي ما قاله بالضبط.

حاولت فكتوريا جهدها لتستعيد الكلمات نفسها التي
استخدمها رايتون، ثم قالت: ولكني لا أفهم لماذا أزعجك الأمر
إلى هذا الحد.

بدأ إدوارد شاردأ وهو يقول: ماذا؟ لا تفهمين؟ يا فتاتي
المعززة، ألا تدركين أن ذلك يعني أنهم انتهبوا ذلك. إنهم يحذرونك
لضرورة الانتماء من طريقهم. إنني غير مرتاح لذلك يا فكتوريا..
غير مرتاح أبداً، ولا أريد رؤيتك وقد ضرب رأسك وألقيت في
دجلة يا عزيزتي.

وفكرت فكتوريا كم هو غريب أن يكونا جالسين وسط آثار
بابل يناقشان فيما إذا كان من المحتمل أن يتم قريباُ ضربها على
رأسها وإلقاؤها في دجلة. وفكرت -حالمة- وعينها شبه مغمضتين
قائلة لنفسها: "لن أثبت أن أصحو لأجد نفسي في لندن أحلم حلماً
ميلودرامياً رائعاً حول بابل الخطيرة". ثم أغضت عينها كلياً وفكرت
قائلة لنفسها: ربما كنت الآن في لندن، ولن يلبث المنية أن يرث قريباً
لأنهض وأذهب إلى مكتب السيد غرينولتز...

وعند تلك الفكرة الأخيرة فتحت عينها ثانية بسرعة لتأكد من
أن إدوارد موجود قريبها بالفعل (وما هو ذلك السؤال الذي أردت
طرحه عليه في البصرة عندما قاطعونا فنسيت السؤال؟). لم يكن ذلك
حلماً. كانت الشمس تشع بقوة تبهر الأبصار بطريقة أبعد ما تكون
عن شمس لندن، وكانت آثار بابل باهتة تحت أشعة الشمس، وفي

خلفية المشهد انتصبت أشجار النخيل بلونها الداكن، وجانها
جلس إدوارد وظهريه يكاد يكون بانجهاها. كم هو رائع شعره الذي
ينمو ليبلغ قليلاً عند رقبته، وبياضها من رقبة جميلة وقد اسمرت
واكتسبت اللون البرونزي من الشمس... رقبة لا يشوبها أي عيب أو
أثر، إن لكثير من الرجال رقاباً تحمل دماءً وبثوراً في موضع احتكاك
ياقات قمصانهم... رقبة الصبر روبرت -مثلاً- المصاوبة بدُملة بدأت
تنتفخ لتفوها.

فجأة انتصبت فكتوريا في جلستها وقد كنت صبيحة كادت
تخرج من فمها، وأصبحت أحلام اليلظة في خبر كان. كانت شديدة
الأنفعال. وقد انتفخ إدوارد مشائلاً وقال: ما الأمر؟

- لقد تفكرتُ لتوي... بخصوص السير روبرت كروفتن ني.

وفيما ظل إدوارد ينظر إليها نظرة تساؤل، غضت فكتوريا
لشرح ما تعنيه، والحقيقة أنها لم تتمكن من شرح قصدها بكثير من
النوضوح. قالت: لقد كانت دُملة... على رقبته.

قال إدوارد وقد أخذته الحيرة: دُملة على رقبته؟

- نعم، في الطائفة! لقد جلس أمامي، وقد سقط غطاء الرأس
الملمع بردائه إلى الخلف فرايتها... أعني الدُملة.

"ولماذا لا تكون له دُملة؟ إنها مؤلمة، ولكنها موجودة لدى
الكثير من الناس

- نعم، موجودة بالطبع. ولكن النقطة هي أنه في ذلك الصباح
على الشرفة لم تكن ثمة.

- لم يكن له ماذا؟

- لم تكن له دُمْلَة. آه، حاول يا إدوارد أن تفهم الموضوع. كانت له في الطائفة دملة، وفي فندق تيو لم تكن له دملة. كانت رقبته صبيحة تماماً ليس فيها أي أثر... كرفيتك الآن.

- حسناً، أحسبها قد نُقِيت.

- آه، لا يا إدوارد. هذا غير ممكن؛ لم يكن ذلك إلا بعد يوم واحد، وكانت الدملة قد بدأت تنتفخ لتوها في اليوم السابق. لم يكن ممكناً أن تنفخ بهذه السرعة ودون ترك أي أثر. أنرى ما الذي يعنيه ذلك؟ نعم، لا بد أن يعني أمراً واحداً... وهو أن الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن السير روبرت أبداً.

ثم أومات برأسها بحماسة، فيما نظر إدوارد إليها وقال: أنت مجنونة يا فكتوريا، لا بد أنه كان السير روبرت؛ أنت لم تري أي فارق آخر لديه.

- افهمي يا إدوارد؛ فأنا لم يُنَخَّ لي أبداً النظر إليه بشكل صحيح. لم أنظر إلا إلى... إلى الأثر العام لمظهره. القبة... والرداء الواسع... وموقفه المتبجح المفرور، إنه رجل من السهل جداً تمثيل شخصيته واتصالها.

- ولكن كان من شأنهم أن يعرفوا ذلك في السفارة...

- ولكنه لم يُقِم في السفارة، أليس كذلك؟ بل جاء إلى فندق تيو. وكان الذي استقبله أحد الموظفين الصغار الفاسقير في إنكلترا.

- ولكن لماذا؟

- بسبب كارمايكل طبعاً. كان كارمايكل قادماً إلى بغداد لمقابلته... لكي يخبره بما اكتشفه. إلا أنهما لم يلتبا من قبل، ولذلك لم يكن من شأن كارمايكل أن يعرف بأنه ليس الرجل الصحيح... ولن يكون حذراً بما فيه الكفاية. وبالطبع فإن السير روبرت الزائف هو الذي طعن كارمايكل! آه، يا إدوارد... هذا يوضح كل شيء!

- إنني لا أصدق حرفاً من ذلك. هذا جنون. لا تنسي أن السير روبرت قد قُتل في القاهرة فيما بعد.

- نعم، وقد جرى الأمر كله هناك. إنني أعرف الآن. آه، ما أقطع ذلك يا إدوارد! لقد رأيت ذلك يحدث.

- رأيته يحدث؟ هل جئت يا فكتوريا؟

- لا، إنني أبعد ما أكون عن الجنون. اسمعني فقط يا إدوارد. فقد حدث طرף على باب غرفتي... في الفندق في القاهرة. أو أنني ظننت - على الأقل - أنه بابي، ففتحت الباب وأطلت منه، ولكن انطرق لم يكن على بابي بل على الباب المجاور، باب السير روبرت كروفتن لي. كان الطارق إحدى المضيفات أو الخادومات أو سكرتيرة ما شئت. سألته إن كان يوسع الحضور إلى مكتب شركة الطيران... في نهاية السير وقد خرجت من غرفتي بعد ذلك تماماً وعبرت باباً عليه لافتة تشير إلى أنه مكتب الطيران. ثم انفتح الباب وخرج السير روبرت منه. فكرت - وقتها - أنه ربما نلتس خبراً جعله يحس بشكل مختلف. أفهمي يا إدوارد؟ لقد كان ذلك حقاً، وكان البديل ينتظر

جاهزاً، وبمجرد أن دخل الغرفة غريو، على رأسه وعرج الآخر ليمثل دوره، وأحسب أنهم ربما احتفظوا به في مكان ما في القاهرة وذلك بتخديره طوال الوقت، ثم قتلوه في الملاحظة المناسبة عندما عاد الرجل الآخر إلى القاهرة.

- إنها قصة رائعة، ولكن المصراحة -ها فكتوريا- أنك نختر هين ذلك كله. لا يوجد ما يدهم ذلك.

- الذلعة...

- آه، ثياباً للذلة!

- وبعض الأمور الأخرى.

- ما هي؟

- لافتة مكتب الطيران على الباب. لم تعد موجودة هناك فيما بعد. لقد تذكرت أنني احترت عندما وجدت مكتب الطيران في الجانب الآخر من قاعة الدخول. هذا أمر، ويوجد أمر آخر؛ تلك المضيفة التي قرعت بابه. لقد رأيتها بعد ذلك... هنا في بغداد... والآنك أنتي رأيتها في «غصن الزيتون» في أول يوم ذهبت فيه هناك. فقد دخلت وتحدثت مع كاترين، وفكرت يوماً بأنني رأيتها من قبل.

ثم سكنت لحظة وقالت: وهكذا ينبغي أن تعرف -ها إدوارد- أن الأمر ليس غريباً مني.

قال إدوارد ببطء: كل الأمور تعود لتعصب في «غصن الزيتون»!

- ماذا عن السيد داكين؟ أينهي علي إخباره بهذا؟

- نعم، بالطبع. ولكن انتظري يوماً أو يومين؛ فربما توفرت لدينا معلومات إضافية نسير على هديها

بعد أن تعصبست فكتوريا (نتيجة مكشفتاتها) لم تجد صعوبة في اليوم التالي في تحية كاترين بفيض من الود. قالت إنه لمن شديد اللطف من كاترين أنها دلتها على مكان تغسل شعرها فيه؛ فغسرها بأعش الحاجة إلى الغسل (وكان هذا صحيحاً تماماً؛ فقد عادت من بابل وقد أصبح شعرها الأسود بلون الصدا الأحمر متناً علق به من زغال).

قالت كاترين وهي تنظر إلى شعر فكتوريا بشيء من الرضا الممتشي: نعم، إنه يبدو فظيماً، أؤكد خرجت -إذن- في تلك الزوبعة الرومية بعد ظهر أمس؟

- لقد استأجرت سيارة وذهبت لزوية بابل. كانت رحلة مثيرة جداً، ولكن الزوبعة اشتدت في طريق العودة حتى كادت تخنقني وتعصيني

- بابل ممتعة، ولكن عليك الذهاب إليها مع شخص يفهمها ويسكن أن يحدثك عنها بشكل جيد. أما بالنسبة لشعرك فساخذك اللبنة إلى تلك الفتاة الألمانية. وسوف تغسله لك بأسهل من أفضل الأنواع.

وعندما غادرتا «غصن الزيتون» في تلك الأمسية كانت الفتاتان على أحسن ما تكونان الصداقة. دخلت كاثرين وخرجت في العديد من الأذفة الضيقة، ثم طرقت - أخيراً - على باب متواضع ليس عليه ما يدل على أن عمليات تجميل أو تصفيف شعر تتم خلفه. ومع ذلك فقد استقبلتهما شابة دميعة تبدو عليها الكفاة وتكلم إنكليزية بطيئة متأنية وقامت باقتياد فكتوريا إلى مغسلة نظيفة جداً لتلصص حنثياتها وتنتشر حولها زجاجات مختلفة من غسل الشعر وملائناته. ثم غادرت كاثرين وسلمت فكتوريا رأسها ليُدَيّ الأتسة أنكورميان الماهرتين ومصرعان ما خدا شعرها كتلة من الرغبة الكثيفة.

- والآن، انحنى إذا سمحت...

انحنى فكتوريا فوق المشيلة، وانهمر الماء فوق شعرها وغرغرها نزولاً في ماسورة المياه. وفجأة داهمت أنفها رائحة زكية ولكنها تبعث على الشئيان، وذكرتها الرائحة بالمستشفيات بشكل ما. كانت لفافة مبللة من القماش تُطبق بقوة على أنفها وفمها، وصارعت بكل قوتها وهي تتلوى وتستدير، ولكن القبيضة الحديدية ألبقت على الكمامة في مكانها. بدأت تختنق، ودار رأسها، وطرقت سمعها صوت هادر... وبعد ذلك سادت العتمة، عميقة نقيطة.

* * *

الفصل الثامن عشر

عندما استعادت فكتوريا وعيها شعرت بمرور وقت طويل جداً. هاجت في ذهنها ذكريات مضطربة .. اهتزاز جسمها في سيارة... أحاديث عالية ومشاجرات باللغة العربية... أضواء نومض في عينيها... نوبة غثيان فظيعة. ثم تذكرت - على نحو غامض - تمادها على سرير وأحدهم وهو يرفع ذراعها والوخزة المؤلمة للآبرة، ثم المزيد من الأحلام المضطربة والعتمة، وخلف ذلك إحساس متعاطف بالمجيلة التي تصاحب حالة الطوارئ.

أما الآن فقد أصبحت أخيراً - على نحو غائم - بأنها هي نفسها من جديد... فكتوريا جونز. وقد حدث لها شيء ما، منذ وقت طويل طويل... منذ أشهر، وربما منذ سنوات... وربما كان ذلك منذ أيام فقط.

بابل، أشعة الشمس... الغبار... الشعر... كاثرين. كاثرين بالطبع، وهي تنبسم بعينها الماكترين. لقد أخذتها كاثرين لكي تغسل شعرها، وبمعدا... ما الذي حدث؟ تلك الرائحة الفظيعة المقرزة... الكلوروفورم بالطبع. لقد خدروها بالكلوروفورم وأخذوها... إلى أين؟

الشيء. وكان ثمة طفل يلعب بكرة وذراعاه مليئة بالأريطة، وهو يهني بصوت عال يفرح من ألفه ليلهدو متحمساً كموسيقى القرب.

صرلت فكتوريا انتباهها بعد ذلك إلى الباب الذي كان ضحماً ثقيلاً. ذهبت إليه دون كبير أمل وعالجته، فوجدته مغفلاً، فمادت وجلست على طرف السرير. ترى أين هي؟ من المؤكد أنها ليست في بغداد. وما الذي سفعله الآن؟

لغت انتباهها - بعد لحظات - أن سؤالها الأخير هذا لا معنى له في الواقع؟ فالأحرى أن تسأل نفسها ما الذي سفعله الآخرون بها؟ وتذكرت - وقد انتابها إحساس مزيج في قمة محدثتها - نصيحة السيد داكين لها بأن تقول كل ما تعرفه. ولكن ربما كانوا قد حصلوا منها على كل ذلك وهي محدرة.

ومع ذلك علفت فكتوريا إلى تلك النقطة بقرح مقصود... فكرة أنها ما تزال حية. فإن استطاعت أن تبقى على قيد الحياة حتى يجدها إدوارد... ماذا سيفعل إدوارد عندما يكتشف أنها اختفت؟ هل سيذهب إلى السيد داكين؟ هل سينصرف بمفرده؟ هل سيخيف كاثرين ويجبرها على الكلام؟ هل سيترك بكاثرين أصلاً؟ ومع ازدياد محاولات فكتوريا لتخيل صورة مُطمئنة لإدوارد في حالة التصرف والمبادرة كانت صورة إدوارد تلاشى شيئاً فشيئاً لتصبح أقرب إلى تجريد لا ملامح له. ما مدى ذكاء إدوارد؟ هذا هو حقل لب القضية، فقد كان إدوارد محبوباً وذو سحر، ولكن هل يمتلك عقلاً راجحاً؟ ذلك أن من الواضح أنها تحتاج العغل في محتنتها الحالية.

من شأن السيد داكين أن يمتلك عقلاً راجحاً ولكن هل

حاولت فكتوريا الجلوس بحذر. بدا أنها نائمة على سرير صرير فاس جداً. كان رأسها يولسها وتشر بالذوار. كما أنها ما تزال نحس بالنعاس، بنعاس فظيع تلك المؤخرة، وخزة الإبرة. لقد كانوا يهدونتها.. كانت ما تزال نصف محدرة.

حسنًا، إنهم لم يقتلوا على أية حال (لماذا؟). هذا أمر حسن على الأقل. وفكرت فكتوريا نصف المهددة بأن أفضل شيء هو العودة للنوم، وسرعان ما فعلت ذلك.

عندما أفاق مرة أخرى شمعت أن ذهنها أكثر سفاء. كان الوقت نهاراً الآن، وكان بمقدورها أن ترى أين هي. كانت في غرفة صغيرة ولكن سقفها عالٍ جداً وقد طُليت بطلاء أزرق شاحب يبعث الضيق في النفس، وكانت أرضيتها من الخشب المصقول، وكانت الأثاث الموجود يقتصر على سرير الذي تنام عليه، وقد أُلقيت بطانية فذرة عليها، وثمة طاولة مقلعة عليها طست صيني سقط طلاءه، وتحتها سطل نحاسي، وكانت على الجدار نافذة عليها من الخارج شبك خشبي.

نهضت فكتوريا مترنحة عن سريرها وهي تشعر بهداع شديد وحالة غريبة وتقدمت من النافذة، وكان بوسعها أن ترى بوضوح من خلال الشبك الخشبي حديقة تنسب خلفها أشجار التخليل. كانت الحديقة جميلة بالمقاييس الشرقية، مع أن من شأن ملاك إنكليزي أن ينظر إليها باستخفاف. كان فيها الكثير من أشجار البرقال، وبعض أشجار الكالينوس التي يعلوها الغبار، وشجيرات أخرى ذابلة بعض

مستوفى لديه الحماصة؟ أم أنه سيكتفي بشطب اسمها من دفتر عقده؟ أو يكتب أمام اسمها بخط منمّم «رحمها الله؟» فهي بالنسبة للسيد داكين لا تعدو أن تكون -في نهاية الأمر- واحدة من آلاف غيرها. يجازفون فإن خانهم الحفظ لا يَحْتَرِ ذلك إلا من سوء طالعهم، كلا، لم تستطع تصور السيد داكين يلوم بصميلة إنفاذ، فلقد حدّرها على أية حال.

كما أن الدكتور رايتون قد حدّرها أيضاً (هل حدّرها أم هددها؟...)، وسحين رفضت الخضوع للتهديد لم يتأخر كثيراً تنفيذ التهديد! كررت فكتوريا مع نفسها بإصرار على رؤية الجانب الإيجابي من الأمور: "ولكنني ما أزال حية".

اقترب صوت خطّ في الخارج، ثم جاء صوت إدارة المفتاح في قفل صدئ. أصدر الباب صريراً من مفاصله وانفتح، وفي فتحة ظهر رجل عربي يحمل صينية قديمة من النك عليها أطباق. وقد بدا الرجل في مزاج جيداً فقد ابتسم ابتسامة عريضة ونطق ببعض العبارات غير المفهومة باللغة العربية، وأخيراً وضع الصينية وفتح فمه وأشار إلى مجرى الطعام في صدره وغادر الغرفة بعد أن أقفل الباب خلفه من جديد.

اقتربت فكتوريا من الصينية باهتمام، فوجدت طبقاً كبيراً من الأرز، وشيئاً أخبى بأوراق الكرب الملفوفة، ورغيف خبز عربي كبيراً. وكان على الصينية أيضاً إبريق ماء وكأس.

بدأت فكتوريا بشرب كأس كبير من الماء، ثم شرعت بالأرز، ثم الخبز، ثم أوراق الملفوف التي كانت مليئة بلحم مفروم ذي

طعم غريب بعض الشيء. وعندما أنهت كل ما في الصينية شعرت بحسن كبير.

حاولت جهدها لتفكر بالأمور بوضوح. لقد تم تخديرها بالكلووروفورم واختطافها. منذ متى حدث ذلك؟ لم تكن واثقة أبداً من الإجابة على هذا السؤال، ولكنها خضعت -من تكرار نومها وصحوها- أن ذلك كان منذ عدة أيام. وقد تم إخراجها من بغداد... إلى أين؟ وهنا -أيضاً- لم تكن لديها وسيلة لمعرفة الإجابة. وبسبب جهلها باللغة العربية لم يكن بمقدورها حتى طرح أسئلة لم تستطع العثور على مكان أو اسم أو تاريخ.

تبع ذلك عدة ساعات من الملل القاتل. وفي ذلك المساء ظهر حارسها مرة أخرى ومعه صينية طعام، وقد جاءت معه -هذه المرة- امرأتان، كانتا ترتديان ملابس سوداء وتخفیان وجهيهما. لم تدخلتا الغرفة، بل بقيتا خارج الباب مباشرة، وكانت إحداهما تحمل طفلاً بين ذراعيها. وفتناً هناك نضحكان ضحكاً مكتوماً، فلقد كان وجود امرأة أوروبية مسجونة هنا أمراً مثيراً بالنسبة إليهما.

تكلّمت فكتوريا معهما بالإنكليزية والفرنسية، ولكنها لم تلق جواباً إلا الضحك المكتوم، ورأت أن من الغريب أن لا نستطيع التفاهم مع بنات جنسها. قالت ببطء وصعوبة إحدى العبارات التي سبق وتعلّمتها: الحمد لله.

وقد كوفئت على لفظها لهذه العبارة بسيل فرح من الكلام العربي؛ فقد أومأت المرأتان برأسيهما بقوة. وتحركت فكتوريا نحوهما، ولكن الخادم العربي (أو كأنها ما كانت صفته) سارع إلى

سد الطريق عليها، ثم أمر المرأتين بالتراجع وخرج هو أيضاً وأفلح الباب ودام. ولكن قيل أن يفعل ذلك نطق كلمة واحدة عدة مرات: **بُكَرَة... بُكَرَة... بُكَرَة**، وكانت تلك كلمة سمعتها فكتوريا من قبل، وهي تعني غداً.

جلست على سريرها لكي تفكر في الأمور بعمق. غداً؟ غداً؟ سيأتي أحد أو سيحدث شيء ما. غداً سينتهي سجنها (أم تراه لمن ينتهي؟)... ربما تأتي مع نهاية سجنها نهايتها هي أيضاً؛ وبأخذ مجمل الوضع بالمعبران لم تأبه فكتوريا كثيراً لفكرة الغد. شعرت -غريباً- أنه سيكون من الأفضل كثيراً لها أن تكون غداً في مكان آخر.

ولكن هل كان ذلك ممكناً؟ أعطت كل انتباهها لهذه النقطة لأول مرة. ذهبت أولاً إلى الباب وتفحصته. من المؤكد أن شيئاً لا يمكن فعله بخصوص الباب؛ فهذا ليس من الأفعال التي يمكن للمرء فتحها ببدوس شعر... هذا إن كان بمقدورها حقاً أن تفتح أي قفل يدبوس شعر، الأمر الذي تشكك به كثيراً.

بقيت النافذة. وسرعان ما وجدت أن النافذة تعطي أملاً أكبر بكثير مما يعطيه الباب؛ فقد كان الشبك الخشبي الذي يغطيها في المراحل الأخيرة من الهشاشة والعطب، فإذا ما افترست أنها تستطيع كسر فتحة تخرج منها في الخشب الهش، فلأنها لا تكاد تستطيع القيام بذلك دون إحداث أصوات كثيرة من شأنها أن تجذب الانتباه لها. والآنكى من ذلك هو أن الغرفة التي سُجنت بها تقع في الطابق العلوي، مما يعني أن عليها إما أن تجد حبلًا تتدلى منه أو أن تجازف بالغفز مما قد يعرضها لالتواء في الكاحل أو كسر آخر. وفكرت

فكتوريا أن المجهود في الروايات أن يصنع السر حبلًا من شرائف السرير، ثم نظرت بارتياح إلى ذلك الشرشف القطني السميك وإلى البطانية القديمة فلم يبد أن آيا منها يناسب غرضها، وليس معها ما تستطيع به قص الشرشف إلى شرائع طويلة. ومع أنها كانت تستطيع تمزيق البطانية فإن تعفُّها يجعل الثقة في إمكانية تحملها لوزن فكتوريا أمراً مستبعداً.

قالت بصوت عالي: **تباً**، وقد افنتت -أكثر فأكثر- بفكرة الهرب. أحسنت من كل ما رآته بأن سجناتها كانوا أناساً ذوي عقلية بسيطة جداً يظنون معها أن مجرد إقفال باب الغرفة عليها يعني نهاية الأمر. لن يتوقعوا هروبها بسبب بسيط هو أنها أسيرة ولا تستطيع الهرب. إن من حقنها بالمخدر وأحضرها إلى هنا (كائنات من كان) ليس موجوداً هنا الآن... هذا ما كانت وثيقة منه. إن من حقنها أو من حقنتها أو حقنوها يتوقع حضورهم بـ**بُكَرَة**. لقد تركوها في منطقة بعيدة في عهدة أناس بسيطاء من شأنهم أن يطبعوا الأوامر، ولكن ليس من شأنهم الانتباه للمكر وسعة الحيلة، ويُفترض أنهم لا يفقدون الملكات الخلاقة التي يمكن أن تتوفر لشابة أوروبية يفترسها خوف شديد من الفناء.

قالت لنفسها: سأخرج من هنا بطريقة ما!

جاءت إلى الطاولة وأكلت من الوجبة الجديدة التي أحضرت لها. فمن الأفضل أن تحافظ على قوتها. كان يوجد أرز مرة أخرى، وبعض البرتقال، وبعض قطع اللحم التي طُبخت بحرف برنقالي اللون.

أكلت كل ما في الصينية، ثم شربت ماء. وعندما أعادت الإبريق إلى الطاولة اهتزت الطاولة قليلاً وانسكب شيء من الماء على الأرض. وسرعان ما أصبحت الأرض -في تلك البقعة بالذات- عبارة عن طين سائل. وبينما نظرت فكتوريا إلى ذلك عطلت لعقلها المصعب دائماً فكرة.

كان السؤال هو: هل تُرثد المفتاح في الباب من الخارج أم

لا؟

كانت الشمس تغرب الآن، وسرعان ما سيحل الظلام. ذهبت إلى الباب فبحثت أمامه ونظرت من الثقب المصخم للمفتاح فلم ترَ أي نور من خلاله. كان ما تحتاجه الآن شيئاً يمكنها أن تدفع به المفتاح... قلم رصاص أو طرف قلم حبر. كم هو مزيج أن يأخذوا حقيبتها منها. نظرت حولها مقلبة الجبين. لم يكن هناك من أدوات المائدة إلا ملعقة ضخمة، وهي لا تنفع حاجتها الحالية، رغم أنها قد تفيد لاحقاً. جلست فكتوريا لتفكر وتحتال لنفسها، وسرعان ما هفتت بفرح وقامت فترعت حذاءها واستطاعت نزع بطانته الجلدية الداخلية، ثم ألقت البطانة بإحكام فوجدتها قاسية بما يكفي. عادت إلى الباب فركعت أمامه وأدخلت اللفافة بقوة في فتحة المفتاح، وكان من حسن حظها أن المفتاح المصخم لم يكن محكم الثبات في موضعه داخل القفل، وبعد بضعة دقائق استجاب لمحاولاتها ووقع خارج الباب دون أن يصدر صوتاً عالياً في وقعه على أرض طينية.

وفكرت فكتوريا في أن عليها أن تسرع الآن قبل أن يتلاشى تماماً ضوء النهار. أحضرت إبريق الماء وصبت قليلاً من الماء بحذر

أسفل إطار الباب مقابل النقطة التي فذرت أن المفتاح قد سقط فيها. بعد ذلك استخدمت الملعقة كما استخدمت أصابعها في كشط وإزاحة بقعة الطين التي نتجت. وشيئاً فشيئاً، ويسكب الماء مرات عديدة على الطين، استطاعت أن تحفر ثغرة صغيرة تحت الباب. تمددت وحاولت الإطلال منها، ولكن لم يكن من السهل رؤية شيء أبداً. ثم رفعت كُمّ قبضتها وحاولت إدخال يدها في الثغرة فوجدت أن بالإمكان إخراج يدها وجزء من ذراعها خارج الباب. تمسست الأرض خارج الباب بأصابع مثلهمة إلى أن لمست يراش أحد أصابعها شيئاً معدنياً في النهاية. ها قد حددت مكان المفتاح، ولكنها لم تكن قادرة على إخراج ذراعها بما يكفي لتناوله. وبعد محاولات عديدة (كادت أن يئس معها غيظاً) استطاعت أن تمسكه بأصابعها، ثم سحبه من خلال الفتحة الطينية إلى داخل الغرفة.

جلست فكتوريا على مؤخرة قدميها وكلها إعجاب بعقيرتها. أمسكت المفتاح بيدها التي ملأها الوحل، ثم نهضت وأدخلته في القفل. انتظرت لحظات حتى انطلقت جوفة كلاب تنبح في الجوار وأدارت المفتاح، واستجاب الباب لدفعها وانفتح قليلاً، فاطلَّت منه بحذر لترى أنه يقضي إلى غرفة صغيرة أخرى لها باب مفتوح في الجانب الآخر. انتظرت لحظة ثم خرجت من الباب على رؤوس أصابعها. كان لهذه الغرفة البخارجية فتحات كبيرة في السقف وفتحة أو اثنتان في أرضيتها، وكان بابها يقضي إلى أعلى درج طيني خشن ملحق بطرف البيت يؤدي نزولاً إلى الحديقة.

كان هذا هو كل ما أودت فكتوريا رؤيته. عادت عنى رؤوس

أصابها إلى غرفة سجنها، ولم يكن من المحتمل أن يأتيها أحد مرة أخرى هذه الليلة، ولذلك سوف تنتظر إلى أن يحل الظلام ثم تخرج.

وقد لاحظت امرأة آخر. ففرب الباب الخارجي كان ثمة قطعة سوداء من القماش البالي مكرمة هناك. ورأت فكتوريا أنها عباءة قديمة سيكون مفيدة في إخفاء ملابسها الغريبة. ولم تعرف فكتوريا كم من الوقت انتظرت هناك. بدأت ساعات لا تنهي بالنسبة إليها، وأخيراً لحقت الأصوات المحلية المختلفة، وتوقفت آلة غراموفون بعيدة عن إطلاق الأغاني العربية، وسكنت الصبغات المائية وضحكات النساء الحادة وبكاء الأطفال.

أخيراً لم تعد تسمع إلا أصوات عواء بعيدة حسبها أصوات بنات آوى، ونبوات نباح الكلاب فجأة بين الحين والآخر، وهو ما تعرف أنه سيستمر طوال الليل. قالت لنفسها وهي تنهض: حسناً، إلى العمل!

بعد لحظة من التفكير أقفلت باب سجنها من الخارج وأبقت المفتاح في القفل، ثم نهضت طريقها عبر الترفة الخارجية وأخذت تلك القطعة المكممة من القماش الأسود وخرجت إلى أعلى الدرج الطيني كانت السماء مغمرة، ولكن القمر لم يبلغ بعد قمة السماء، بل كان هناك من الضياء ما يكفي فكتوريا لروية طريقها. نزلت الدرج بهدوء ثم توقفت قبل نحو أربع درجات من نهايته. فقد كانت هنا على مستوى السياج الطيني الذي يحيط بالحديقة. فإذا ما استمرت في نزول الدرج سيتعين عليها أن تمر بمحاذاة البيت. كان بوسعها سماع

الشخير من الغرف في الطابق السفلي. وبما كان من الأفضل أن تذهب عن طريق هذا السياج، فقد كان سياجاً عريضاً يمكن السير عليه.

استأثرت هذا الخيار الأخير ومضت بسرعة وحذر إلى حيث كان الجدار يستدير بزاوية قائمة، وهناك رأت في الخارج ما بدا لها حديقة نخيل، وكان الجدار في أحد مواضعه مهدماً، شقت فكتوريا طريقها هناك ونزلت الجدار بنصف ونصف وتعلق ونصف فترة، وبعد لحظات كانت تسير بسرعة بين أشجار النخيل باتجاه ثغرة في الجدار البعيد. خرجت إلى زقاق ضيق يداي أصفر من أن تمر به سيارة، ولكنه يصاح لمرور العمير. وكان على جانبي الزقاق جداران من الآجر الطيني، وهرعت فكتوريا تقطع الزقاق بكل ما أوتيت من سرعة.

وهنا بدأت الكلاب تنبحها بكل شدة، وجاءها من أحد الأبواب كلبان أبرشان يزمرجان، فما كان منها إلا أن انقضت قبضة من الحجارة والحصى ورمتهما بها، فصاح الكلبان وابتعدا راكضين، وأسرعت فكتوريا. استدارت عند منعطف لتجد نفسها وسط ما بدا أنه الشارع العام. وكان الشارع غيباً مرصوفاً تحف به البيوت الطينية للقريه التي تبدو جميعها باهتة اللون في ضوء القمر. كانت أشجار النخيل تطل من فوق الجدران، والكلاب تزمجر وتنبح وقد أخذت فكتوريا نفساً حقيقاً وركضت، واستمرت الكلاب بالنباح، ولكن أحداً من البشر لم يهتم لاحتمال وجود قاطعة طريق في هذا الليل. وسرعان ما وصلت فكتوريا إلى فضاء رحب فيه جدول مياه موحلة وفوقه جسر مقوس أصابه اليبس، وبعد الجسر بدا أن الطريق أو المسعى الزاوي يمتد عميقاً في أرض لا حدود لها. واستمرت فكتوريا في الركض حتى تقطعت أنفاسها

مختلف الألوان الحمراء والقرمزية التي كانت تولف أشكالا بدعة من الظلال. كان ذلك جميلاً ومغيباً وقالت فكتوريا لنفسها: أعرف لأن معنى أن يقول المرء إنه وحيد في هذه الدنيا!

كانت يقع من الأعشاب الصغيرة باهتة اللون تنتشر هن وهناك. بالإضافة إلى بعض الأشراك الجافة. وفيما عدا ذلك لم يكن ثمة أثر للمخضرة أو دليل على الحياة لم يكن هناك سوى فكتوريا جونز، كما لم يكن هناك أي أثر للقرية التي هربت منها كان الطريق الذي جاءت منه يستد رجوعاً إلى ما بدا أنه أرض خلاء لا نهاية لها. وقد بدا لها أمراً لا يُصدق أن تكون قد قطعت كل هذه المسافة بحيث غابت القرية تماماً عن مجال البصر. وانتهابا -للحظات- شوق للعودة يلحجه الذعر والرعب... شوق لأن تستعيد بشكل أو بآخر صلتها مع أبناء البشر!

ثم هادت فسيطرت على نفسها، فقد أرادت الهرب. وهربت، ولكن ليس من المحتمل أن تنتهي مشكلاتها لمجرد أنها وضعت بيتها وبين سجنائها بضعة أميال. إن من شأن سيارة -مهما كانت قديمة وخربة- أن تقطع تلك الأميال بكل سهولة وسرعة. وبمجرد اكتشاف أمر هروبها سيقوم أحدهم بالبحث عنها، فكيف عساها نخبتين أو نخفتين؟ لا يوجد ببساطة. أي مكان يمكن الاختباء فيه لم نزل نحمل معها تلك الجبابة السوداء البالية، وما قد جريت الآن أن تلف نفسها بين طياتها ونسحبها لتغطي وجهها، دون أن نعرف كيف بدا شكلها، إذ لم تكن معها مرآة لعلها إن نرعت حذاءها الأوروبي وجواربها ومشت حافية القدمين، لعلها تستطيع تهادي الكشاف أمرها. كانت تعرف أن من شأن امرأة عربية فاضلة ترتدي المخمار

أصبحت القرية الآن بعيدة عنها إلى الخلف، وتوسط القمر السماء. وإلى يمينها وشمالها وما بين يديها لم يكن هناك إلا الأرض المحجرة الحمراء، أرض لم تتعدها يد إنسان وليس فيها أثر يدل على أي عمران بشري. بدت الغلالة مسطحة سهلية، ولكنها لم تكن تخلو في الواقع من مرتفعات ومنخفضات بسيطة، ولم تعرف فكتوريا إلى أين تنطوي هذه الغلالة، كما لم تكن تعرف الكثير من النجوم حتى تعرف -على الأقل- في أي اتجاه تسير. كان في هذه الأرض الشاسعة أمر غامض يبعث الرعب، ولكن كان من المستحيل العودة، ولم يكن أمامها سوى أن تستمر.

توقفت لحظات لتلتقط أنفاسها وتُطعّن نفسها بالنظر إلى ما خلفها والتأكد من أن أحداً لم يكتشف هروبها. ثم انطلقت من جديد تحشي شبات قاطعة ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة باتجاه المسجول، وبرز القمر أخيراً ليجد فكتوريا شتعة ناعمة متورمة القدمين تكاد تكون على شفير الانهيار العصبي. تأكدت من خلال ملاحظة الضوء في السماء بأنها تتجه نحو الجنوب الغربي بشكل عام، ولكن بما أنها لا تعرف أين هي فإن هذه المعلومة لم تكن ذات فائدة تذكر لها.

كان أمامها إلى جانب الطريق شبه نلة أو ثوب صغير. تركت فكتوريا الطريق الترابي واتجهت إلى ذلك الثوب الذي كانت حواله شديدة الانحدار، فتسلقتها وصولاً إلى قمته. ومن هناك كان بوسعها أن ترى المنظر العام للمنطقة حولها، وعادها شعورها بالذهر الذي لا تفسير له، فقد كان الخواء في كل اتجاه. كان المنظر جميلاً في ضوء الصباح الباكر، والتمتعت الأرض والأفق بظلال باهتة من

أن تحظى بكل الحصانة الممكنة مهما ساءت حالتها أو بلغ فقرها،
ويعتبر منتهى سوء الأخلاق أن يمد أي رجل لمضايقتها ولكن هل
سيخدع ذلك التكرار أحياناً غريبة ربما انطلقت خلفها سيارة للبحث
عنها؟ إنها - على أية حال - القرصة الوحيدة أمامها

كانت قد نالت من التعب ما لا تستطيع معه متابعة المسير
حالياً، وكانت تحس بعطش شديد أيضاً، ولكن كان من المستحيل
التحور على حل لذلك؛ ولذا قررت أن الأفضل شيء هو أن تضطجع
في ظل تلك التلة، فبوسمها من هناك أن تسمع صوت أية سيارة
قادمة، ويمكنها أن تخفي نفسها بالانخفاف إلى مؤخرة التلة بحيث
تبقى بعيدة عن أنظار من يأتي في هذا الطريق... ومن جهة أخرى فإن
ما كانت بحاجة ماسة إليه هو العودة إلى الحضر، والطريقة الوحيدة
التي وأنها لتحقيق ذلك هي إيقاف سيارة يقودها أوروبيون والطلب
منهم نقلها معهم.

ولكن عليها أن تتأكد من أن أولئك الأوروبيين ليسوا من
الأوروبيين غير المرغوب فيهم. ولكن كيف عساها تتأكد من هذه
النقطة؟ ظلت تفكر في هذه النقطة حتى غلبها النوم على غير توقع
منها، وقد أتممتها الرحلة الطويلة والإرهاق العام. وعندما أفاق
كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. شعرت بالحر والتشنج
والدوار، وكان عطشها قد أصبح الآن عذاباً مفضياً. أطلقت أنه
من شغافها الجافة المبررة، وعندما تجمدت فجأة وأصغت؛ فقد
سمعت صوتاً ضعيفاً (ولكنه مؤكد) لسيارة. رفعت رأسها بحذر شديد
فراحت أن السيارة لم تكن قادمة من جهة القرية، بل ذاهبة باتجاهها،
وذلك يعني أنها ليست سيارة كطائرة. كانت السيارة ما تزال نقطة

سوداء بعيدة تماماً عند نهاية الطريق الترابي. تمددت فكتوريا لتخفي
نفسها قدر الإمكان واستمرت في مراقبة السيارة. ولكن تبينت لو أن
يديها منتظراً مقرباً

اختفت السيارة لدقائق معدودة في متخلف من الأرض، ثم
عادت للظهور وهي تتسلق مرتفعاً غير بعيد. كان فيها سائق عربي
والى بجانبه رجل بملايس غريبة. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "الآن
علي أن أقرر". أكانت تلك فرصتها؟ هل ترفض نزولاً إلى الطريق
وتفوح للسيارة لتوقفها؟

وبينما كانت تستعد للقيام بذلك أنفأها وإزع مفاجئ أوقفها،
فماذا لو افترضت، مجرد افتراض، أن هذا هو العدو؟ كيف يمكنها
أن تخمن ذلك؟ من المؤكد أن هذا الطريق مهجور تماماً، إذ لم تمر
أية سيارة أخرى، ولا شاحنة، ولا حتى قافلة حمير. ربما كانت هذه
السيارة متجهة للقرية التي هربت منها الليلة الماضية... ماذا عساها
تفعل؟ كان من المفزع أن تضطر لاتخاذ قرار خطير كهذا في غضون
لحظات فقط. إن كان هذا هو العدو فإنها النهاية، ولكن إن لم يكن
العدو فربما كان أمليها الوحيد للنجاة؛ لأنها إن استمرت في التجول
على غير هدي فربما ماتت عطشاً. ماذا عساها تفعل؟

وبينما كانت تفكر مشغولة لا تستطيع اتخاذ قرار تغير صوت
السيارة المفجلة، فقد خففت سرعتها ثم انعطفت وخرجت عن الطريق
فوق الأرض المليئة بالأحجار لتنتجبه نحو التلة التي تجلس فكتوريا
خلفها. لقد رأها! إنهم يبحثون عنها!

انزلت نزولاً من الملجأ الذي احتضت به وزحفت حوز

مؤخرة التلة متباعدة عن السيارة المقبلة، ثم سمعتها تتوقف، وسمعت صوت صفق بابها بعد نزول أحدهم منها. بعد ذلك قال أحدهم شيئاً بالعربية، ولم يحدث شيء. وقجاجة، ودون أي إنذار، ظهر رجل أمام نظرها. كان يمشي حول التلة صاعداً إلى منتصفها، وكانت حينها تبحثان في الأرض، وكان يحنى -من وقت لآخر- لينطق شيئاً عن الأرض. ولئن كان يحدث عن شيء فإن ذلك الشيء لم يكن أبداً فثاماً ندعى فكتوريا جونز! وفوق ذلك فقد بدا إنكليزياً لا يمكن للمعين أن يخطئه.

تهدت فكتوريا بارتياح وجاهدت لتنف على قدميها وتقدمت من الرجل الذي رفع رأسه ونظر إليها دهشاً. قالت: آه، من فضلك... إنني في غاية السعادة لحضورك.

بقي يحديق إليها، ثم بدأ قائلاً: من تكونين ياها عليك... آنت إنكليزية؟ ولكن...

رمت فكتوريا عن نفسها العباء بنوبة من الضحك وقالت: إنني إنكليزية طبعاً، وهل يمكنك -رجاء- أن تعيدني إلى بغداد؟

- لست ذاهبة إلى بغداد، بل لقد جئت منها لنري. ولكن ما الذي تفعليه -برثك- هنا وحيدة في وسط الصحراء؟

قالت فكتوريا لاهة: لقد اختطفت. ذهبت لأغسل شعري لمخدروني بالكولورفورم، وعندما صحت وجدته نفسي في بيت عربي في قرية هناك.

ثم أشارت نحو الأفق، فقال لها: في منديلي؟

- لا أعرف اسمها. هربت ليلة أمس، ومشييت طوال الليل، ثم اختبأت خلف هذه التلة خشية أن تكون عدواً.

كان متظاهراً ينظر إليها وعلى وجهه تعبير شديد الغرابة. كان رجلاً أشقر الشعر في نحو الخامسة والثلاثين، يبدو عليه شيء من التعالي، وإذا تكلم تكلم يحدث أكاديمي دقيق. وضع الآن نظارته على عينيه وحديق إليها من خلال النظارة وعليه سيماء التفزز، وأدركت فكتوريا أن هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة مما كانت تقوله، وتحولت مشاعرهما -فوراً- إلى سخط غاصب وقالت: إنها صحيحة تماماً، بكل كلمة فيها!

بدأ الغريب أبعد من أي وقت مضى عن تصديسها، ثم قال بتبرة برود: أمر رائع جداً.

انتاب فكتوريا اليأس، كم هو مؤسف أن لا تمتلك قوة الإقناع عندما تحكي الحقائق المجردة، وهي التي تستطيع دوماً أن تجعل الكذب يبدو مقبولاً. لقد كانت تروي الحقائق الفعلية بشكل سيء يفقر إلى الإقناع. قالت للرجل: وإذا لم يكن معكم ما أشربه فأنني سأهلك عطشاً... وسأموت عطشاً على أية حال إن أنت تركتني هنا وذهبت.

قال الغريب يتشجج: من الطبيعي أن لا أحلم بفعل شيء كهذا، إذ لا يناسب امرأة إنكليزية أبداً أن تبه وحدها في البراري. يا إلهي! إن شتيك مشتقتان تماماً... يا عبور.

- نعم؟

ظهر السائق عند طرف التلة، وعند تسلمه التعليمات باللغة العربية هرع نحو السيارة ليجود -بعد لحظات- حاملاً حافظة ماء ضخمة كروية الشكل وكأساً من البلاستيك.

شربت فكتوريا بشراهة ثم قالت: أوه! هكذا أفضل.

قال الإنكليزي: اسمي ريتشارد بيكر.

- وأنا فكتوريا جونز.

ثم أرادت استعادة ما خسره من ثقة الإنكليزي وتحويل تكذيبه لها إلى انتباه واحترام فقالت: باونسفوت جونز. إنني ملتزمة بعمي الدكتور باونسفوت جونز في موقع حفرياته.

قال بيكر وهو ينظر إليها باستغراب: يا للمصادفة الغريبة! إنني في طريقي إلى موقع الحفريات أنا الآخر. إنها لا تبعد عن هنا إلا نحواً من خمسة عشر ميلاً. إنني الشخص المناسب الذي أرسلته العناية الإلهية لإقداذك، أليس كذلك؟

لعل القول إن فكتوريا قد فوجئت يكون تهويماً لحقيقة صدمتها؛ فلقد أَسْقَطَ في يدها تماماً، إلى الحد الذي لم تعد معه قادرة على النظر بأية كلمة. تبعت ريتشارد بخنوع وصمت إلى السيارة وركبت إليها. وقال ريتشارد وهو يُجلسها في المقعد الخلفي بعد إزاحة الكثير من الأغراض: أظنك أنت عالمة الأجناسي. لقد سمعتُ أنك قادمة، ولكنني لم أتوقع وصولك في مثل هذا الوقت المبكر.

وقف لحظة يرتب شظايا القحار التي أخرجها من جيبه، والتي أدركت فكتوريا الآن أنها هي التي كان يلتقطها عن الأرض عند التلة،

ثم أشار إلى التلة وقال: يبدو من المحتمل أنه كان تلاً أثرياً، ولكن ليس فيه ما يوحى بالقيمة كما أرى. معظم ما فيه من أواني العهد الآشوري المتأخر... وشيء من آثار البارثيين وغيرهم. ثم ابتسم وأضاف قائلاً: إنني سعيد إذ أرى أن عزيزتك الأثارية غادتك -رغم متاعبك- لتفحص هذا التل الأثري.

فتبحت فكتوريا فمها ثم هادت فأغلقت، ثم انطلقت السيارة.

ما الذي يمكنه قوله في نهاية المطاف؟ صحيح أن أمرها سينكشف بمجرد وصولهم إلى مقر البعثة الآثارية... ولكن الأفضل بالتأكد أن يتكشف أمرها هناك وتُعترف بفنيها مكفَّرة عما ابتدعته من قصص من أن تُعترف للسيد ريتشارد بيكر وسط هذا التيه اللامتناهي. إن أسوأ ما يمكن أن يفعلوه لها هو إعادتها إلى بغداد. وفكرت فكتوريا (التي لا تتوب أبداً) أنها ربما استطاعت التفكير بعذرٍ ما قبل الوصول إلى هناك، وقد بدأ خيالها التشبث عمله مباشرة: فقدان مؤقت للذاكرة؟ لنقل إنها سافرت مع فتاة طلبت منها أن... ولكن لا، يبدو أن الأمر مهبط من رواية كاملة هذه المرة. ولكنها كانت تفضل -بالتأكيد- أن تفرغ مكنزات صدرها للدكتور باونسفوت جونز من أن تقضي بها إلى ريتشارد بيكر بالطريقة المتعالية التي يرفع فيها حاجبيه ويألكاره الصريح للنصبة الدقيقة الصحيحة التي روتها له.

قال السيد بيكر وهو يلتفت في كرسبه الأمامي: إننا لا ندخل مندلي تماماً، بل نتعطف عن الطريق لندخل الصحراء بعد نحو ميل

من هنا. يكون من الصعوبة أحياناً العثور على النقطة تلك في غياب
الشواخص.

وسرعان ما قال شيئاً لعبود قائمعتف السيارة بعدة من الطريق
الترابي وانجحت مباشرة إلى صمت الصحراء ، وقد قام ريتشارد بيكر
بتوجيه السائق بإشارات منه دون أن ترى فكتوريا وجود شواخص
يستعين بها... وكانت السيارة تذهب تارة إلى اليمين وتارة إلى
الشمال. وسرعان ما أطلق ريتشارد صيحة ارتياح وقال: إننا نملك
الطريق الصحيح الآن.

لم يكن بوسع فكتوريا رؤية أي طريق. ولكنها أخذت تلاحظ
-بين الحين والآخر- وجود آثار عجالات لا تكاد تُرى. وبعد قليل
اجتازت السيارة آثار عجالات أوضح قليلاً، وما أن اجتازتها حتى
صاح ريتشارد وأمر عبود بالتوقف، ثم قال لفكتوريا: ها هنا منظر
مثير لك لم تره من قبل طالما أنك جديدة على هذا البلد.

كان هناك رجلان يقتربان من السيارة، وكان أحدهما يحمل
مقعداً خشبياً قصيراً على ظهره، فيما حمل الآخر جهازاً خشبياً
كبيراً يحجم البياض. حياهما ريتشارد، ورداً عليه نحيته بكل ترحيب
وسعادة، ثم أخرج ريتشارد لفافات تبغ وزعها عليهما، وبدأ أن جو
صدقة دافئة يسود الجميع. ثم التفت ريتشارد إليهما وقال: هل تعبين
السيئما؟ ينبغي أن تشاهدي هرضاً إذن.

تحدث مع الرجلين فابتسما بفرح، ونصبا المقعد وأشارا
لفكتوريا وريتشارد بأن يجلسا عليه. ثم ركباً الجهاز المستدير على
قاعدة ما، وكان فيه فتحتان للنظر من خلالهما، وحالما نظرت

فكتوريا منهما صاحبت قائلة: إنه صندوق المعجائب!

- بالضغط، نسخة بدائية منه.

وكرزت فكتوريا عينيها على لتحني النظر المغطانتين بالزجاج،
وبدا أحد الرجلين يدبر ذراعاً ملحقاً بالآلة، فيما أخذ الآخر يغني
نشيداً فيه بعض الرثابة. سألت فكتوريا: ما الذي يفعله؟

ترجم لها ريتشارد فيما مضى الرجل في غنايته يقول: تعال وجهز
نفسك للكثير من المعجائب والممتعة... تجهز لرقعة عجائب الزمان.

وولت فكتوريا من الفئحة صورة بدائية الألوان لزوج بحصودون
القمح، فيما شرح لها ريتشارد ترجمة: «فلاحون في أمريكا». ثم جاء
شرح لصورة أخرى: «زوجة الشاه الأكبر للعالم الغربي». فيما ابسمت
الإمبراطورة يوجيني وعشت بخصلة من شعرها. ثم ظهرت صورة
لقصر الملك في مونتني نيفرو، وصورة أخرى للاستعراض العظيم.

وتتابع بعد ذلك مجموعة غريبة متنوعة من الصور لا يجمعها
جامع، ويتم الإعلان عنها أحياناً بأغرب التعابير: زوجة الأمير
خليج النرويج، متزلجون في سويسرا... كل ذلك نوالى لتستكمل
هذه اللوحة الغريبة عن الأيام البعيدة الخوالي. ثم أنهى الرجل عرضه
بالكلمات التالية: وهكذا أتيانا لكم بمعجائب الدنيا القديمة وفرايتها
في أماكن أخرى بعيدة، فلنكن مساهمتكم سخية بمستوى المعجائب
التي رأيتوها، لأن كل هذه الأمور حفيضة.

وانتهى العرض، وأشرق وجه فكتوريا سعادة وقالت: كان هذا
حقاً رائعاً! ما كنت لأصدق وجوده.

بسرعة أمراً يصعب فهمه كثيراً. كما أنهم يرون طريقتنا في الدخول مباشرة في الموضوع طريقة تفتقر تماماً للتهديب والأدب إذ ينبغي عليك دوماً أن تجلسي وتبدئي بتقديم الملاحظات العامة نحواً من ساعة قبل ذلك!

- سيكون ذلك هرباً إن طبقناه في مكاننا في لندن؛ بذلك يهدر المرء الكثير من الوقت.

- نعم، ولكن ذلك يفودنا من جديد إلى نفس السؤال: ما هو الوقت؟ وما هو الهدر؟

أخذت فكتوريا تتأمل في هذه النقطة، فيما يدا أن السيارة مستمرة في تقدمها في هذه المساحة بأكبر قدر من الثقة. قالت أخيراً: أين هذا المكان؟

- تل أنشؤ؟ إنه بعيد في وسط الصحراء. سوف نرين الزقزوق بعد قليل، ولكن حتى ذلك الحين انظري إلى شمالك. هناك... حيث أشير

- هل هذه غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً.

- بل هي جبال، جبال كردستان التي تغطيها الثلوج. لا نستطيعين رؤيتها إلا عندما يكون الجو صافياً جداً.

اجتاح فكتوريا شعور بالرهبة والفتنة أشبه بالعلم، وتحت لم كان يوسمها أن تستمر في مثل هذه الرحلة إلى الأبد. لو أنها فقط لم تكن تلك الكذابة التعبية! انكسرت كطفل لفكرة السكاشفة الكريمة

وفيما كان أصحاب السينما المتفلة يسيرون بفخر نهضت فكتوريا عن المقعد الذي كان ريتشارد يجلس على طرفه الآخر مما أدى إلى اختلال توازن ريتشارد ووقوعه أرضاً بشكل محرج. اعتذرت فكتوريا دون أن تسمح لذلك بتفويض لرحلتها. ولما ريتشارد بمكافأة الرجلين اللذين عادوا بعد عبارات الوداع اللطيفة وبعد أن عبر الطرفان عن اهتمام كل منهما بالآخر والدعوة بالتوفيق من الله لكل منهما ثم عاد ريتشارد وفكتوريا إلى السيارة وانطلقا السائق في الصحراء. سألت فكتوريا: إلى أين يذهبان؟

- إنهما يسافران في طول البلد وعرضه. لقد قابلتهما أول مرة في الأردن وهما يقطعان الطريق بين البحر الميت وعشان، وهما الآن ذاهبان إلى كربلاء دون شك، وهما يذهبان عبر طرق فرعية لا تستخدم كثيراً بحيث يقدمان عروضهما في القرى البائية.

- ألا يقلهما أحد في سيارته في تلك العزقات؟

ضحك ريتشارد وقال: قد لا يقلون ذلك. لقد عرضت مرة على رجل عجوز أن أحمله بسيارتي، وكان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد ماشياً. سألته كم ستأخذ منه الرحلة براه فأجابني أنها ستستغرق نحو شهرين، فطبتت منه أن يصعد السيارة ليكون في بغداد في وقت لاحق من ذلك المساء. ولكنه شكرني ورفض العرض، فالوصول بعد شهرين سببته أكثر إن الوقت لا يعني شيئاً هنا، وبمجرد أن يفتتح المرء بذلك فإنه يجد رهبة غريبة بالأمم

- نعم! يوسعي تخيل ذلك.

- إن العرب يجدون في بغداد صبرنا والجحنا على إنجاز الأمور

التي تنتظرها. ترى أي نوع من الرجال هو الدكتور باونسفوت جونز؟
طويل ذو لحية طويلة بيضاء ونظفية صرامة قاسية؟ ولكن لا بأس،
مهما كانت درجة انزعاج الدكتور باونسفوت جونز فإنها استطاعت
التخلص من كاترين والدكتور رايتون وطمعن الزيتون.

قال ريتشارد: "ما قد وصلنا"، ثم أشار أمامه، فظفرت فكتوريا
لترى شيئاً لم يبد لها إلا كشامة في الألف الهبيد. قالت: يبدو على
بعد أميال كثيرة.

- آه، لا، لم نبق إلا أميال قليلة الآن، وسترين.

وبالفعل تطورت الشامة بسرعة مذهلة لتصبح كتلة صغيرة
في البداية، ثم تلة صغيرة، ثم أصبحت -أخيراً- تلاً أثراً ضخماً
مهيئاً. وعلى أحد جوانب التل امتد بناء طويل من الحجر الطيني. قال
ريتشارد: هذا مقر البعثة.

ثم تقدمت السيارة وهم يلوحون وسط نباح الكلاب، فيما
اندفع الخدم بأثوابهم البيضاء لتحياتهم بوجوه بشوشة. وبعد تبادل
التحيات قال ريتشارد: الواضح أنهم لم يتروا حضورك بهذه
السرعة، ولكنهم سيعدون لك سربك، وسيهتدون لك ماء حاراً على
الفور. أحسب أنك تودين الاستحمام والراحة؟ الدكتور باونسفوت
جونز خرج إلى التل، وأنا ذاهب إليه. سولب بعثني بك إبراهيم.

ثم مضى بعيداً، فيما لحقت هي بإبراهيم إلى البيت وهو
يبسّم. يدا البيت مظلماً من الداخل في بداية الأمر لمن يدخل من
الخارج حيث الشمس الساطعة. وعبر الاثنان غرفة معيشة فيها بعض

الطاولات الكبيرة والكراسي القديمة، ثم قادها إبراهيم حول باحة
لندخل غرفة صغيرة ليس لها إلا نافذة صغيرة واحدة. وكان في
الغرفة سرير وخزانة أدراج قديمة وطاولاة عليها إبريق ووهاء ماء
كبير وأمامها كرسي. ابسّم إبراهيم وأرما لها برأسه، ثم أحضر لها
إبريقاً ضخماً فيه ماء حار موصل المنظر ومنشفة خشنة الملمس، ثم
عاد باهتسامة اعتذار حاملاً معه امرأة صغيرة حلقتها بحرص في سمار
صدي في الجدار.

كانت فكتوريا مبتنة لفرصة الاستحمام التي رأتها. كانت قد
بدأت تدرك -لنوعها- مدى تعبها وإنهاكها ومقدار انساخ جسمها
بالأقربة التي لصفت به. وقالت لنفسها وهي تتقدم نحو المرأة:
أحسبي سأبدو مخيفة تماماً.

ثم حذقت إلى صورتها المتعكسة للتحفظات لا تكاد تفهم
شيئاً... هذه لم تكن هي... ليست هذه فكتوريا جونز!

ثم أدركت أخيراً بأن ملامحها الدقيقة اللطيفة -رغم أنها ملامح
فكتوريا جونز نفسها- إلا أن شعرها كان الآن أشقر بلاتينيا!

* * *

- تقول إنها ابنة أخيك.

- ابنة أخي؟

جاءه الدكتور باونسفوت ليعود بعقله من تأملاته في الجدران الطينية، ثم قال بارتياح وكأنه يُحتمل أن تكون له ابنة أخ قد نسي أمرها: لا أظن أن لدي ابنة أخ.

- فهمت أنها جاءت للعمل معك هنا.

أشرق وجه الدكتور باونسفوت وقال: آه، بالطبع، هذا يعني أنها فيرونيكا.

- أظنها قالت فكتوريا.

- نعم، نعم، فكتوريا. لقد كتب لي إيميرسن عنها من كامبريدج. فهمت أنها فتاة قديمة جداً... عالمة بالأجناس. لا أرى سبباً يدعو المرء لأن يصبح عالم أجناس، أترى أنت سبباً؟

- لقد سمعتُ أن عالمة أجناس سافرت في طريقها إليك.

- ليس لدي شيء يتطلب اختصاصها حتى الآن، ولكننا ما نزال في البداية طبعاً. لقد فهمت أنها لن تأتي قبل مضي أسبوعين تقريباً، ولكنني لم أفكر رسائلها بإيمان، ثم أضعت الرسالة، ولذلك فإني لا أتذكر حقاً ما قالت. ستصل زوجتي في الأسبوع القادم... أو في الأسبوع الذي يليه... ثرى مادة فعلتُ برسالتها؟ ولقد ظننتُ أن فينيسيا ستأتي معها، ولكن ربما فهمتُ الأمر كله خطأ بالطبع. حسناً،

الفصل التاسع عشر

وجد ريتشارد الدكتور باونسفوت جوتز في موقع الحفريات يجلس القرفصاء قرب رئيس عماله وينظر - بحذر - جداراً مستخدماً متفرد صغير. حيا الدكتور جوتز زميله بأسلوب واقعي قائلاً: مرحباً بصغيري ريتشارد، ها قد ظهرت إذن. كانت لدي فكرة بأنك ستصل يوم الثلاثاء، لا أدري لماذا؟

- واليوم هو الثلاثاء.

قال الدكتور باونسفوت دون اهتمام: أوه حقاً الثلاثاء؟ تعال هنا وانظر ماذا تری بشأن هذا. جدران سليمة جداً تظهر ونحن لم نحفر بعد سوى ثلاثة أقدام. يبدو لي أنه يوجد بعض أثر لطلاء هنا. تعال وأعطني رأيك... يبدو لي الأمر واعدأ جداً.

قفز ريتشارد إلى الخندق، واستمع الأثاريان لمدة ربع ساعة بحديث متخصص جداً، ثم قال ريتشارد: بالمناسبة، لقد أحضرتُ فتاة.

- آه، حقاً؟ فتاة من أي نوع؟

حسناً... أظن أن يومئذ أن نستفيد منها؛ فالكثير من الفحاريات ستظهر معنا.

- هل في تلك الفئة أي شيء غريب؟

نظر الدكتور باونسفوت إليه وقال: غريب؟ بأي معنى؟

- أعني هل تعرّضت لانهيار عصبي أو ما شابه ذلك؟

- أذكر أن إيمير من قال - بالفعل - إنها كانت تدرس بكل جد، لنيل شهادة أو درجة أو شيء من هذا، ولكنني لا أظنه قال شيئاً عن انهيار عصبي. لماذا تسأل؟

- لقد التقعّثنا عن جانب الطريق وهي تتجول هناك بمفردها تماماً. وجدتها هناك عند ذلك التل الأثري الصغير الذي ذهبت إليه على بعد ميل قبل أن تترك الطريق العام...

- نعم، تذكرت. أتلمح أنني وجدت في ذلك التل مرة قطعة من حجر نوزو. من الغريب جداً العثور عليها في هذا البعد جنوباً.

ولكن ريشارد رفض الانجرار إلى موضوعات أثرية ومضى بإصرار قائلاً: لقد روت لي قصة أغرب من الخيال. قالت إنها ذهبت لتغسل شعرها فقام بعضهم بتخديرها بالكوروفورم واعتطفوها وأخذها إلى متدلي وسجنها في بيت هناك، وإنها هربت في منتصف الليل... هراء عجيب ما سمع امرؤ مثله.

هو الدكتور باونسفوت جونز رأسه حيرة وقال: لا يبدو ذلك محتملاً أبداً؛ فالبلد هادئ جداً ولم يسبق له أن كان يمثل هنا الألمان.

- بالغبطة. يبدو واضحاً أنها اخترعت القصة كلها؛ ولهذا سأنتُ إن كانت قد عانت من انهيار عصبي. لا بد أنها من تلك الفتيات العصبيات وربما سببت لنا الكثير من المتاعب.

قال الدكتور باونسفوت متحاثلاً: آه، أظنها ستهدأ وتستقر. أين هي الآن؟

قال ريشارد: تركتها لتسبح وتصلح من أمرها. ثم تردد لحظة وقال: إنها لا تحمل معها أية أمتعة أبداً.

- حقاً؟ هذا أمر فظيع فعلاً. أتحسب أنها تتوقع مني إهانتها ملاهي؟

- سيمعن عنها تدبير أمرها كيفما اتفق ريثما تذهب الشاحنة في الأسبوع القادم. إنني أتحسب ما الذي كانت بصده... وهي تتجول وحيدة وسط تلك المتاحة.

قال الدكتور باونسفوت بنموهي: الفتيات مدهشات هذه الأيام. يظهرون في كل مكان؛ وهو ما يشكل إزعاجاً عظيماً إذا ما كنت تريد إنجاز أعمالك. ربما خطر لك أن هذا المكان أبعد وأثني من أن يتردد عليه الزوار، ولكنك ستدهش إن علمت كيف تظهر السيارات والناس هنا في الوقت الذي لا وقت لديك لخدمتهم. يا إلهي، لقد توقف الرجال عن العمل. لا بد أنه وقت الغداء. من الأفضل أن نعود إلى البيت.

وجدت فكتوريا - بعد انتظارٍ قلبي - أن الدكتور باونسفوت جونز

قالت فكتوريا وهي تبتسم بسعادة: لا بأس بذلك.

تبعتها الدكتور باونسفوت قائلاً: لا أتر لمقابر تمارسين من خلالها اختصاصك. تظهر الآن لدينا بعض الجدران الرائعة وكميات من قطع الفخار ظهرت في الخنادق البعيدة. وربما اكتشفنا بعض المقام لاحقاً. ولكننا نحتاج لك ما يشغلك بشكل ما. هل نستطيعين التصوير؟

قالت فكتوريا بحذر: "أعرف شيئاً عنه"، وأحسنت بالارتياح لذكر شيء لديها خبرة عملية فيه بالفعل.

- حسناً جيد. أنتستطيعين تعميض الأفلام؟ أنا متخلف في هذا المجال... ما زلت أستمع الألواح. غرفة التعميض المظلمة بداية بعض الشيء. وأنتم الشباب الذين اعتدتم على الأجهزة المتحركة غالباً ما تجدون هذه الظروف البدائية مزعجة تماماً.

- لن أهتم لذلك.

بعد ذلك عادت إلى مخازن البعثة فأخذت فرشاة وللمعجونات للأسنان وإسفنجة وبعض مساحيق التجميل.

كان ذهنها ما يزال مشوشاً حائراً وهي تحاول أن تفهم بالضبط حقيقة مركزها. من الواضح أنهم أخطؤوا فحبوها فناء أخرى تدعى فينيا من المفترض أن تأتي لتنضم للبعثة، وهي عالمة بالأجناس. ولم تكن فكتوريا تعلم حتى معنى علم الأجناس! لو أنها عثرت فقط على قاموس هنا أو هناك. إذ أن عليها أن تبحث عن معنى ذلك العلم. لا يفترض أن تصل الفناء الأخرى قبل مضي أسبوع على

أبعد ما يكون عما تخيلته. كان رجلاً خفيف الجسم ممكناً ذاً رأس شبه أصليع وعينين لا تتفكان ترمشان، وقد أدهشها جداً أنه تقدم منها يدين معدودتين قائلاً: أهلاً، أهلاً يا فينيا... أعني فكتوريا. هذه مفاجأة بكل معنى الكلمة. لقد دخل في روعي أنك لن تأتي حتى الشهر القادم، ولكنني سعيد برؤيتك، سعيد فعلاً. كيف حال إمبرسن؟ أرجو أنه لا يعاني من الربو كثيراً؟

استجمعت فكتوريا حواسها وملكانها المشتتة وقالت بحفر إن الربو لم يكن بهذا السوء مؤخراً.

- إنه شديد المرحس على لف رقبته كثيراً، وهي غلطة كبرى، وقد قلت له ذلك. إن أولئك الأكاديميين الذين يقيمون طووال الوقت في جامعاتهم يشغلون كثيراً بصحتهم لكي يفي المرء سلباً عليه أن لا يفكر بالأمر حسناً. أرجو أن نستقري هنا. ستأتي زوجتي في الأسبوع القادم... أو الذي بعده... لقد كانت مريضة بعض الشيء. هل أن أعتز على رسالتها حقاً. لقد أخبرني ويشارد أن أمتنك قد هبطت طريقها. كيف ستديرين أمرك؟ إذ لا نستطيع إرسال الشاحنة حتى الأسبوع القادم.

- أظنني سأندبر أمري حتى ذلك الحين.

فهقه الدكتور باونسفوت وقال: لا نستطيع أننا وويشارد أن نعبرك الكثير. بالنسبة لفرشاة الأسنان لا توجد مشكلة؛ إذ يوجد أكثر من عشرة في مخازننا... وماذا بعد؟ بعض مساحيق التجميل، وبعض الجوارب والمناديل الاحتياطية. ولا يوجد الكثير غير ذلك.

يُضطر لتجملعه طويلاً في كل الأحوال؛ إذ متعود له قجاة وقد بُعثت من عالم الموتى... غير أنها بُعثت شقراء لا سمراء محمرة.

وقد أعادها ذلك إلى اللغز القائل: لماذا همدوا إلى صبيغ شعرها؟ رأيت فكتوريا أن لذلك سبباً دون ريب، ولكنها لم تستطع تخمين هذا السبب أبداً إنها - والحالة هذه - سرعان ما منظرها بمظهر غريب جداً عندما يبدأ شعرها بالنمو بلونه الأسود عند الجذور. ولكن فكتوريا قالت لنفسها: لا بأس، أنت حية أرزقي؟ ولست أرى سبباً يسمني من التمتع بما أنا فيه قدر استطاعتي... لأسبغ واحد على الأقل، كانت متعة كبيرة حقاً أن تكون مع بعثة أثونة وترى كيف تعمل مثل هذه البعثات، لو أنها فقط تستطيع النجاة من العازق وعدم لفضح نفسها.

ثم تجد دورها مهلاً بشكل عام؛ إذ ينبغي التعامل بحذر مع الأحاديث التي تناول الناس والكتب المنشورة. وأصناف الطعام المختلفة، والأصاليب المصايرية ومن حس العظ أن الناس يقدرون دوماً شخصاً حسن الإصغاء. وقد كانت فكتوريا مستمعة ممتازة للمرجلين. وقد بدأت - وهي تتحسن طريقها بكل احتراص - تلتقط مفردات المهنة وعباراتها بسهولة كبيرة.

وعندما كانت تجد نفسها بممردها في البيت كانت تقرأ سراً بشكل محموم، وكانت هناك مكتبة أثارية جيدة ساعدت فكتوريا في تعلم شيء عن الموضوع بسرعة. وعلى غير توقع منيها وجدت فكتوريا الحياة شيقة تماماً. كان يؤثر لها بالشاي صباحاً، ثم تخرج إلى موضع الحفريات فتساعد ريتشارد في مسئلة التصوير.

الأقل. حسناً إذن، من الآن وحتى مضي أسبوع، أو حتى ذهابت تلك السيارة أو الشاحنة إلى بغداد، ستكون فكتوريا هي فيبياء وستقوم بدورها بأفضل ما تستطيع، رغم المصاعب؛ لم يساورها الخوف من الدكتور باونسفوت جونز الذي بدا سعيماً غامضاً عاماً في طرحه، ولكنها كانت تحس بالارتباك والقلق من ريتشارد بيكر، لقد كرهت تلك الطريقة المتأمله التي ينظر بها إليها وساورتها فكرة تقول إنه سرعان ما سيكشف ادعاءاتها إن لم تكن في غاية الحذر. وقد كان من حسن حظها أنها عملت لفترة قصيرة كسكرتيرة طابعة في معهد الآثار في لندن، ولذلك فإن لديها حصيلة متناثرة من المفردات والجميل التي ستكون مفيدة الآن. ولكن ينبغي عليها أن تحذر أشد الحذر من ارتكاب خطأ حقيقي فاضح. ورأت أن من حسن الحظ أن الرجال يملكونهم دوماً إحساس بالفضوق على النساء بحيث أن أي خلطة ترتكبها لن ينظر إليها الرجال على أنها حدث مريب بقدر ما يرون فيها دليلاً على مدى سخف وغفواء النساء جميعاً.

ستكون هذه الفترة فترة راحة أحست فكتوريا أنها في أمر الحاجة إليها، ذلك أن اختطافها التام سيكون مريعاً لخاطفتها؛ لقد هربت من سجنها، ولكن سيكون من الصعب جداً عليهم تتبع ما حدث لها بعد ذلك. فسيارة ريتشارد لم تمر في متدلي، بحيث لا يمكن لأحد أن يخمن بأنها الآن في تل أسود. نعم، سيرون أنها تبخرت في الهواء، وربما استنجدوا - على الأرجح - أنها ماتت... تاهت في الصحراء وماتت جوعاً وإعياء.

حسناً، فليظنوا ذلك، وإن كان من المؤسف - طبعاً - أن يظن إدوارد ذلك أيضاً؛ ولكن لا بأس، عليه أن يتحمل ذلك، فهو لن

وتحاول تجميع ولصق قطع الفخار المكسور، وتراقب الرجال وهم يعملون، وتجب لمقدار خبرة وحذر المسؤولين عن استخراج الأنار، وتستمتع بأعاني وضحكات الصبية الصغار الذين يركضون لتفريغ قفصهم من التراب في مكب الأتربة. وقد اتضنت تمييز الفترات التاريخية، والمستويات المختلفة التي يجري بها الحفر، وتعرفت على ما تم من عمل في الموسم الماضي. كان الأمر الوحيد الذي تخشاه هو ظهور مدافن أثناء الحفر! إذ لم نستطع - من كل ما قرأته - أن نكون فكرة عما ينتظر منها فعله كعالمه أجناس ممارسة! وقالت فكتوريا لنفسها: إذا ما ظهرت لدينا عظام أو قبور فسيتمين علمي الوقوع فريسة للزكام شديد... كلا، بل لتوبة آلام شديدة في الكبد... وألزم فراشي!

ولكن لم تظهر أية قبور، بل ظهرت - بدل ذلك - جدران أحد القصور ببطء. وقد افتتحت فكتوريا ولم تفتح لها فرصة إظهار أية قابلية أو مهارة خاصة. ولكن ريتشارد بيكر ظل ينظر إليها بشيء من التساؤل أحياناً، وكانت تحسن بنفذه المكتوم، ولكن طريقة تعامله ظلت ودودة مرحة، وقد أعجب فعلاً بهما منهن! قال لها يوماً: إنه لأمر جديدي عليك تماماً أن تخرجي من إنكلترا! أنذكر كم كنت منفجلاً في أول موسم سافرت له.

- منذ متى كان ذلك؟

ابتسم وقال: منذ وقت طويل. منذ خمسة عشر عاماً تقريباً.

- لا بد أنك تعرف هذا البلد جيداً.

- لم يقتصر عملي على هذا البلد وحده. سوريا... وإيران أيضاً.

- إنك تتكلم العربية بشكل ممتاز! أليس كذلك؟ لو ألبسوك لباساً عربياً فهل تستطيع إيهامهم بأنك عربي؟

هز رأسه تقياً وقال: آه، لا... هذا يحتاج لمجهود كبير. وإنني أشك في أن إنكليزياً قد استطاع أبداً إيهام العرب بأنه عربي... أهني لفترة معقولة.

- ولورنس؟

- لا أحسب أن لورنس استطاع إيهامهم أبداً بأنه عربي. كلا، الرجل الوحيد الذي أعرفه ولم يكن بالإمكان تمييزه عن أهل البلد هو صاحب لي ژلد عملياً في هذه المناطق. كان والده قنصلاً في كاشغار وفي أماكن ثالثة أخرى، وكان يتحدث كل اللهجات المحلية منذ طفولته، وأظنه حافظ عليها لاحقاً.

- وماذا حدث له؟

- لم أره منذ أن تركنا المدرسة. لقد كنا في مدرسة واحدة وقد اعتدنا أن نسميه الفقير، لأنه كان يستطيع الجلوس ساكناً تماماً وكأنه في غيشة غريبة. لا أدري ماذا يفعل الآن... مع أن بوسعي أن أحسن تخميناً لا يبعد كثيراً عن الصواب.

- ألم تقرأ أبداً بعد المدرسة؟

- الغريب أنني صادفته قبل أيام فقط... وكان ذلك في البصرة. كان أمراً عربياً بمجملة.

- غريباً؟

- نعم، فأنا لم أميزه إذ كان يرتدي زياً عربياً، كوفية وقمطاناً
مقلماً وسنرة عسكرية قديمة، وكان يحمل سبعة من مسابيح الكهرمان
تلك التي يحملونها أحياناً، وكان يقطعني حباتها بين أصابعه بشكل
يوحي بالثقة، إلا أنه كان يستخدم -في الواقع- شيفرة عسكرية بتلك
الأصوات؛ شيفرة مورس. وكان بتلك الطلقة يبعث برسالة... لي
أنا!

- وماذا قالت الرسالة؟

- ذكر فيها اسمي... أو بالأحرى لقبني أيام المدرسة، ولقبه،
وبعداً ندائه للوقوف بجانبه قائلاً إنه يتوقع مشكلات.

- وهل حدثت مشكلات؟

- نعم؛ فعينما نهض ليخرج من الباب قام رجل عادي يوحي
شكله بأنه ناجر متجول وأخرج مدساً. وضربت أنا يده... وهرب
كارمايكل.

- كارمايكل؟!

الفتت إليها بسرعة للثيرة التي ذكرت بها الاسم وقال: كان هذا
اسمه الحقيقي. لماذا... هل تعرفينه؟

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "كم سيبدو الأمر غريباً إن قلت
له إن الرجل مات في سريري". ولكنها قالت ببطء: نعم، كنت
أعرفه.

- كنت تعرفينه؟ لماذا... هل...

- نعم؛ لقد مات.

.. متى مات؟

قالت: "في بغداد، في فندق تيو"، ثم أضافت بسرعة: ولكن
ثم التكتم على الأمر... لا أحد يعرف بذلك.

أوما برأسه يبطء وقال: فهمت. كان منخرطاً في هذا النوع من
النشاط، ولكنك...

نظر إليها ثم قال: كيف عرفت بذلك؟

- تورطت في الأمر... صدقة.

رماعها بنظرة طويلة منأملة، فسأته فجأة: أكان لقبك في
المدرسة هو الشيطان؟

بدا مذهولاً وقال: الشيطان؟ لا، كانوا يسمونني بومة... لأنني
كنت أضع نظارات لامعة دوماً.

- ألا تعرف أحداً يسمونه الشيطان... في البصرة؟

هز ريشارد رأسه بالنفي وهو يرافها من كتف. كانت تفكر
مقطعة الجبين؛ ثم ما لبثت أن قالت: لبيك تخبرني بما حدث في
البصرة بالضبط.

- لقد أخبرتك.

- لا، أعني أين كنت أنت عندما حدث كل ذلك؟

- آه، فهمت. كان ذلك في غرفة الانتظار في القنصلية. كنت أنتظر رؤية كلايتون، القنصل.

- ومن كان هناك غير هذين الاثنين - كارمايكل وذلك التاجر المتحول؟ هل كان هناك غيرهما؟

- كان ثمة اثنان آخران، رجل أسمر نحيل فرنسي أو سوري، وعجوز أظنه إيراًياً.

- والتاجر أخرج مسدساً فأوقفه، فخرج كارمايكل... كيف خرج؟

- استدار - بداية - باتجاه مكتب القنصل، وهو عند النهاية الأخرى من الممر وخلعه حذيقه...

قاطعته قائلة: أعرف؛ لقد أقصت هناك بضعة أيام. والحقيقة أن ذلك كان يعد مغادرتك مباشرة.

قال: "أكان ذلك حقاً؟"، ثم عاد ليراقبها عن كثب... ولكن فكتوريا لم تكن متنبهة لذلك. كانت تتخيل الممر الطويل في القنصلية، ولكن بباب مفتوح عند نهايته... مفتوح على أنشجار خضراء وشمس مشرقة.

قال ريتشارد: وكما كنت أقول، فقد اتجه كارمايكل في ذلك الاتجاه في البداية، ثم استدار بعدها واندفع في الاتجاه الآخر إلى الشارع... وكان ذلك آخر ما رأيته منه.

- وماذا من التاجر المتحول؟

رفع ريتشارد كفيه حيرة وقال: لقد فهمت أنه روى قصة مهلهلة حول رجل حاجمه وسطاً على ممتلكاته في الليلة السابقة، قائلاً إنه تخيل أن السائق هو ذلك العربي في القنصلية، ولم أسمع المزيد عن الأمر لأنني سافرت إلى الكويت.

- من كان يقم في القنصلية في ذلك الوقت؟

- رجل يدعى كروسي من العاملين في النفط، ولا أحد غيره. آه، نعم، أظن أن شخصاً آخر كان هناك، وقد أتى من بغداد لتخليص كيب أو شيء من هذا القبيل، ولكني لم أقابله ولا أذكر اسمه.

رددت فكتوريا مع نفسها اسم كروسي، وتذكرت الكابتن كروسي يجسمه القصير المربوع وحديثه المتقطع. كان شخصاً عادياً تماماً، رجلاً مستقيماً ليس لديه الكثير من البراعة وسعة الحيلة. وكان كروسي قد عاد إلى بغداد في الليلة التي جاء فيها كارمايكل إلى فندق تيو. أيمكن أن يكون كارمايكل قد عاد أدراجه فجأة في ذلك المسمر في القنصلية واتجه إلى الشارع بدل الدخول على القنصل لأنه رأى كروسي في الطرف الآخر من الممر؟

كانت مستغرقة في التفكير بتفسير ذلك، وقد جفلت مع شيء من الشعور بالذنب إذ فهمت بصرها فرأت ريتشارد يراقبها بتمعن. سألتها قائلاً: لماذا تريد من معرفة كل ذلك؟

- إنني مهتمة بالأمر فقط.

- هل من أسئلة أخرى؟

- هل تعرف أحداً باسم لوفارج؟

- لا، لا يمكنني تذكر اسم كهذا. أهو رجل أم امرأة؟

- لا أدري.

كانت تتساءل عن كروسي. كروسي؟ الشيطان؟

في تلك الليلة، عندما تمت فكتوريا للرجلين ليلة سعيدة وعضت إلى طراشها، قال ريشارد للدكتور باونسفوت جوتز: إنني أتساءل إن كان بومبي إلقاء نظرة على تلك الرسالة التي جاءتك من إيميرسن. أرغب في أن أرى ما قاله بالضبط عن هذه الفتاة.

- بالطبع يا صديقي العزيز، بالطبع. إنها موجودة في مكان ما هنا. أذكر أنني كتبتُ بعض الملاحظات على ظهرها. لقد أسهب في مدح فيرونيكا إن لم نخفي الذاكرة... قال إنها شديدة الحرص. تبدو لي فتاة رائعة، رائحة تماماً. كما أنها كانت شجاعة إذ لم تفعل ضجة كبرى بسبب فقدان متاعها. لقد كان من شأن أغلب الفتيات أن يطلبن نفلهن دون إبطاء ليغداد لشراء ملابس جديدة. إنها فتاة بسيطة غير معقدة. بالمناسبة، كيف حدث أن فقدت أمتعتها؟

قال ريشارد بحياد بارد: ثم تخديرها بالكلوروفورم، واحتفظها، وسجنها في بيت محلي.

- نعم، يا إلهي! لقد قلتُ لي ذلك من قبل... تذكرتُ الآن، وهي قصة غير ممكنة. وهي تذكرني... بماذا تذكرني؟ أه، نعم؛

تذكرني باليزابيث كانغ. لعلك تذكر كيف خرجت علينا بقصة مستحيلة التصديق بعد أن فقدناها لمدة أسبوعين. كان في الأدلة التي ساقتها تخطيط مشير جداً... إن كانت هي القضية نفسها التي أفكر فيها. وقد كانت فتاة ذميمة جداً بحيث لم يبذ من المرجح وجود رجل في القضية. أما فكتوريا الصغيرة... أو فيرونيكا... لا أستطيع أبداً تذكر اسمها بشكل صحيح... فإنها فتاة جميلة جداً، ويُحتمل كثيراً أن يكون في نفسيها رجل ما.

قال ريشارد بيرود: كانت ستبدو أجمل لو لم نصبغ شعرها.

- وهل نصبغه؟ يا لاتساع معرفتك بهذه المسائل!

- وماذا بشأن رسالة إيميرسن يا سيدي؟

- طبعاً، طبعاً... لا أدري أين وضعتها. ولكن ابحت حيث شئت؟ فأنا حريص على العثور عليها على أية حال، بسبب تلك الملاحظات التي كتبها على ظهرها، وبسبب رسمة رسمتها عليها لتلك السجعة الدائرية.

الفصل العشرون

لعمري أن يحسبها أنت مباشرة من كتاب «دبنوفاز».

احمر وجه فكتوريا قليلاً وفروت أن نعمد -عند إنقاذ ثقافتها الموسوعية- إلى بعض التغيير في التصوحي التي قرأتها لقد كانت نظرة ريتشارد المتسائلة من خلف نظارته تتركها أحياناً. قالت بانسلام: سأبذل ما لي وسعي.

قال ريتشارد: إننا ندفع إليك بكل المهارات الصعبة.

ابست فكتوريا نقوله. والحقيقة أن أنشطتها خلال الأيام الخمسة الماضية قد أدهشتها كثيراً. فقد حُفِضت أعلاماً باستخدام ماء ثم ترشيحه عبر الفلتر ونحت ضوء مشكاة بدائية واكثة اللون فيها شمعة تطفئ دوماً في أخرج الأوقات، وكانت طاولة غرفة التحميط المظلمة عبارة عن علبه كروتون كبيرة، وكان عليها -وهي تعمل- أن تقعي أو تجنو على ركبتيها. أما غرفة التحميط نفسها فقد كانت موضع تدبر ريتشارد وسخريته، وقد أكد لها الدكتور باونسفوت أن بانتظارها المزيد من المفاجآت السارة القادمة.

لقد أثارت قُفُف الفخار المكسور في البداية سخريتها ودهشتها (رغم حرصها على عدم إظهار ذلك). إذ ما الفائدة من كل هذه القطع الخشنة من الفخار؟ ولكن عندما وجدت -بعد ذلك- الأجزاء المنفردة التي تجمع هذه الشظايا، ولصقتها بعضها ببعض، ودعمتها ضمن صناديق من الرمل... بدأت -عندها- تهتم بما تفعله. تعلمت تمييز الأشكال والأنماط الأثرية، ووصلت أخيراً إلى أن حاولت أن تخيل لماذا وكيف كانت تلك الأدوات تستخدم قبل نحو ثلاثة آلاف عام. وفي المنطقة الصغيرة التي تم العثور فيها على بيوت صغيرة

في عصر اليوم التالي أطلق الدكتور باونسفوت جونز زفرة ملل عندما تنهى إلى مسامعه صوت ضيف لسيارة تقرب، وسرعان ما حدد موقع السيارة التي كانت تدور الصحراء باتجاه النيل

قال بحقد: وُؤار، ويأتون في أسوأ الأوقات أيضاً! أريد الإشراف على معالجة تلك القطعة التي تشبه الوردية والتي عثروا عليها في الزاوية الشمالية الشرقية، إذ ينبغي معالجتها بالسيليكون. لا بد أنهم بعض البلهاء الذين أتوا من بغداد لشغلنا بالكثير من الثروة الاجتماعية، ويتوقعون أن نرهبهم موقع الحفريات كله.

قال ريتشارد: هنا تكمن الفائدة من فكتوريا. أنسميني يا فكتوريا؟ عليك أن تشرفي بنفسك على جولة لهم في الموقع.

أجابت فكتوريا: ربما كانت المعلومات التي أقدمها لهم مفهومة كلها، فأنا حقاً قليلة الخبرة كما تعلم.

قال ريتشارد لرحاً: بل أحسبك تتقدمين بشكل رائع في الحقيقة، تلك الملاحظات التي أبدتها هذا الصباح عن الأجر المحدث يمكن

بسيطة لأشخاص عاديين قامت فكتوريا بتخيل تلك البيوت كما كانت في الأساس، بالناس الذين عاشوا فيها، بحاجاتهم وممتلكاتهم الصغيرة وأعمالهم، وبآمالهم ومخاوفهم. وبما أن فكتوريا كانت ذات خيال خصب، فقد كانت الصور تنهض في مخيلتها بسهولة. وفي ذلك اليوم الذي عثروا فيه على إناء فخاري صغير محترق في أحد الجدران وبدخله أكثر من ستة أفرط ذهبية انفعلت فكتوريا أبها انفعال، وقال ريتشارد -وهو ينسم- إن ذلك ربما كان مهراً لابنة صاحب البيت.

صحون مليئة بالحنطة، أفرط ذهبية تم ادخالها لتكون مهراً، إيز من العظم، مطاحن يدوية وأجران، تماثيل صغيرة وتماثيل... كل ما يمثل الحياة اليومية، ومخاوف وآمال مجتمع من الناس البسطاء العاديين. قالت فكتوريا لريتشارد: هذا ما أجده ساحراً جداً، فقد كنت أحسب دوماً أن الآثار لا تعدو أن تكون قصوراً ومقابر ملكية.

ثم أضافت بابتسامة غريبة صغيرة: ملوك بابل 1 ولكن ما أحب كثيراً في هذا الأمر كله هو أنه يحدثك عن أناس عاديين بسطاء.... أناس مثلي.

كانت تفكر في هذه الأمور وهي نواقب الزائرين بصعدان جانب التل، وذهب ريتشارد لاستقبالهما وتبعته فكتوريا. كانا رجلين فرنسيين مهتمين بالآثار، وكانا يفومان بجولة تشمل سوريا والعراق. وبعد تحيات المجاملة أخذتهما فكتوريا في جولة على موقع الحفريات ورددت عليهما -بطريقة بغيضة- طيبة ما يجري من عمل. ولكن بما أنها كانت فكتوريا التي لا تستطيع مغالبة طبعها،

فقد أضافت تزويقات مختلفة من عندها، مبررة ذلك لنفسها بضرورة جعل الأمر أكثر إثارة.

لاحظت أن لون أحد الرجلين كان مستقماً تماماً، وكان يحزن نفسه جزءاً دون كبير اهتمام، ثم ما لبث أن طلب أن تعذره فكتوريا لأنه يريد العودة للمنزل، إذ أنه لا يشعر بأنه على ما يرام منذ صباح ذلك اليوم... والشمس تزيد حاله سوءاً.

ثم غادر باتجاه بيت البقعة، وشرح لها الأخير بصوت منخفض أن علة صاحبه تكمن في معدته مع الأسف، وأن طعام بغداد لم يناسبه كما يبدو، ولذلك ما كان عليه أن يخرج في هذه الرحلة اليوم.

انتهت الجولة وبقي الفرنسي يتحدث لفكتوريا، وأخيراً نودي الرجل، واقترح الدكتور باونسفوت جونز -بكل إصرار الضبافة الأصلية- ضرورة بقاء الزائرين لتناول الشاي قبل المغادرة. ولكن الفرنسي اعترض ذلك بدعوى أن عليهما أن لا يتأخرا في الرحيل حتى يحل الظلام وإلا فإنهما لن يجدا طريقهما أبداً، وقد قال ريتشارد بيكر فوراً إن ذلك صحيح تماماً. وهكذا تم استدعاء الرجل المريض من البيت وانطلقت السيارة بأقصى سرعة.

دمدم الدكتور باونسفوت جونز قائلاً: "أحسب أن هذه لا تعدو أن تكون البداية، وستتبع علينا الزوار الآن في كل يوم - ثم أخذ قطعة كبيرة من الخبز العربي ودهنها بمربي الخوخ بكثافة.

ذهب ريتشارد إلى غرفته بعد تناول الشاي، فقد كانت لديه

وسائل يريد الإجابة عليها وأخرى يريد كتابتها استعداداً للذهاب إلى بغداد في اليوم التالي. وفضأة قطب جيئة، فرغم أنه لم يكن امرأ شديد الترتيب فيما يخص المظاهر الخارجية، إلا أن له في ترتيب ملابسه وأوراقه طريقة لم تكن تتغير أبداً. وقد لاحظ الآن أن كل درج من أدواجه قد تم العبث به، وكان متأكد أن ذلك لم يكن من فعل الخدم لا بد - إذن - أنه ذلك الزائر المريض الذي امتثل هذراً ليعود إلى البيت وقش كل أغراضه يعود. تأكد من عدم فقدان شيء من أغراضه، كما لم يتم لمس ماله. ما الذي كانوا يبحثون عنه إذن؟ نجدهم وجهه وهو يفكر فيما يتطوي عليه الأمر.

ذهب إلى غرفة الآثار ونظر في الدرج الذي يحتوي على الاختام وطباعتها، ثم صدرت منه ابتسامة أقرب إلى التكبيرة... إذ لم يتم لمس شيء أو أخذه. ذهب إلى غرفة المعيشة، وكان الدكتور باونسفوت خارجاً في الباحة مع رئيس العمال، ولم تكن هناك إلا فكتوريا غارقة في كتاب تقرأه.

قال ريتشارد دون مقدمات: لقد فش شخص ما غرقتي.

رفعت فكتوريا بصرها مدحوشة وقالت: لماذا؟ ومن نشئها؟

- ألم تكوني أنت؟

قالت فكتوريا بسخط: أنا؟ بالطبع لا. ولماذا سألني أعبت بأغراضك؟

نظر إليها بإمعان ثم قال: لا بد أنه ذلك الغريب الذي ادعى المرض وجاء إلى البيت

- هل مرق شيئاً؟

- لا، لم يفتقد شيء.

- ولكن لماذا تقدم أي امرئ...

قاعنها ريتشارد قائلاً: حسب أنك ربما كنت تعرفين الجواب.

- أنا؟

- ذلك أنك اعترفت بأن أموراً غريبة قد حدثت لك.

- آه، هذا ما تعنيه... نعم.

بدا وكأنها قد جعلت قليلاً، ثم قالت ببطء: ونكتني لا أرى شيئاً يجعلهم يشعرون غرقتك أنت. فليس لك علاقة بال...

- لماذا؟

لم تجبه فكتوريا لبضع لحظات. بدت غارقة في أفكارها، ثم قالت أخيراً: إنني آسفة، ماذا قلت؟ لم أكن متنبهة.

لم يكرر ريتشارد سؤاله، بل سألها بدلاً ذلك: ماذا تقرنين؟

- ليس لدى المرأة خيارات كثيرة للمرأة قصص خفيفة هنا لا يوجد إلا قصة مدينتين والكبرياء والهيبة وقليل غيرهما. إنني أقرأ قصة مدينتين.

- ألم تغريها من قبل؟

- أبدأ؛ كنت دوماً أرى أن من شأن تشارلز ديكنز أن يكون مملاً.

- يا لهذه الفكرة!

- ولكنني أجدها ممتعة جداً.

- إلى أين وصلتِ فيها؟

ثم نظر من فوق كتبها وقرا من الرواية: «ثم عدت المرأة الحائكة واحداً».

- إنني أراها امرأة مخيفة جداً.

- السيدة دوفارج؟ نعم، شخصية مثقفة. مع أنني كنت أشك دوماً في قدرة المرأة على الاحتفاظ بسجل للأسماء عن طريق الحياكة، ولكنني لست حائكة بالطبع لأجزم بذلك.

قالت فكتوريا وهي تفكر في المسألة: أظن ذلك ممكناً. تقوم بغرزة عادية وغرزة معقوفة، ثم تقوم بغرزات مبتكرة، ثم غرزة خاطئة بين العينين والآخر، أو تغفل غرزات معينة، وكل غرزة تقوم مقام حرف أو اسم. نعم، يمكن القيام بذلك... وهي عملية تمويه بالطبع، بحيث يبدو الأمر وكأن الحائكة لا تنفخ الحياكة وترتكب أخطاء فيها...

فجأة، وبالتماخ حي كالتماخ البرق، تمثل لذهنها أمران في وقت واحد وكان لهما تأثير الانفجار عليها: اسم... صورة ذهنية تذكرتها. الرجل بوشاحه الأحمر الخشن الذي حيكت بدوياً، وقد

أطبق عليه بديه... الوشاح الذي سارعت لالتقاطه لاحقاً ودسّه في أحد الأذراج. ومع ذلك الاسم دوفارج. ليس لوفارج.. بل دوفارج، السيدة دوفارج!

عادت إلى نفسها على صوت رينشارد وهو يقول لها بلطف: أوجد مشكلة؟

.. لا... لا، لقد كنت أفكر فقط في شيء ما.

- فهمت.

فكرت فكتوريا في أنهم سيذهبون جميعاً إلى بغداد غداً. غداً ستنتهي فترة امتحانها، فلقد مرّ أكثر من أسبوعٍ نعمت فيه بالأمان والسلام والوقت الذي تستعيد به رباطة جأشها. وقد استمتعت بهذا الوقت... استمتعت به كثيراً. وخاطبت نفسها قائلة: «ربما كنتُ جبانة، نعم ربما كان ذلك هو السبب». كانت قد تحدثت عن المغامرات بفرح، ولكنها لم تحبها كثيراً عندما جاءتها. كرهت ذلك الصراع ضد الكلوروفورم، وذلك الاختناق البطيء، ولقد خافت كثيراً في تلك الغرفة العلوية عندما قال ذلك العربي: «مكررة».

وها هي الآن مضطرة للعودة إلى ذلك كله؛ لأنها كانت موظفة لدى السيد دابكن وتتقاضى منه أجرأ، ولا بد لها أن تفعل ما يبرو ذلك الأجر وتظهر بمظهر شجاع! بل ربما كان عليها أن تعود حتى إلى «فصن الزيتون»، ارتعدت قليلاً إذ تذكرت الدكتور رايتون ونظيره الغامضة الياسفة. لقد حذرهما..

ولكن ربما لا يكون لزاماً عليها أن تعود إلى هناك. ربما قال

السيد داكين إن من الأفضل أن لا تعود، خاصة وقد عرفوا الآن بأمرها. ولكن سبتين عليها العودة إلى مكان سكنها لأخذ أمتعتها؛ لأن الوشاح الأحمر كان ملقى في حقيبتها دون اهتمام. كانت قد حشرت كل شيء في الحقائق عندما غادرت إلى البصرة، وبمجرد أن تسلم ذلك الوشاح إلى السيد داكين ربما تنتهي مهمتها، وربما قال لها كما يقولون في الأفلام: آه، عمل جيداً فكتوريا!

رغمت بصرها لترى ريتشارد يراقبها، ثم قال: بالمناسبة، هل ستكونين قادرة على الحصول على جواز سفر لك غداً؟

- جواز سفرى؟

فكرت فكتوريا في الموقف. كان أمراً يلائم طبيعتها أنها لم تحدد -بعد- خطة عملها فيما يخص وجودها ضمن البعثة الأثرية. وربما أن فيرونیکا الحقيقية (أو فينيسيا) سوف تعمل من إنكلترا قريباً فمن الضروري الانسحاب يهدوء، ولكن المشكلة التي لم تكن قد طرحت نفسها أمامها بعد هي إن كانت ستكتفي بالاغتراف بباطلة أو ستعترف بمكرها وتبدي الندم المطلوب، أم ستقرر أمراً آخر. كانت فكتوريا تميل دوماً إلى تبني موقف خلاصته أن أمراً ما سيستجد.

قالت كمن يكسب الوقت: حسناً، لمست متأكدة من ذلك.

شرح لها قائلاً: إنه ضروري، لشرطة هذه المحافظة، فهم يسجلون رقمه واسمك وعمرك وعلاماتك الفارقة وغير ذلك من تلك التفاصيل، ولكن بما أننا لا نملك الجواز فلأنني أرى أن علينا

إرسال اسمك وأوصافك لهم. وبالمناسبة، ما هو اسم عائلتك؟ لقد كنت أناديك فكتوريا دوماً

استجبت فكتوريا قواعها بشجاعة وقالت: هيا، لا تنذالك أنت تعرف اسم عائلتي كما أعرفه أنا.

- هذا ليس صحيحاً تماماً.

انثنت استباحتها للأعلى لتمطي لشكله شيئاً من الغسوة، ثم قال: أنا أعرف اسم عائلتك بالفعل، ولكنني أظن أنك أنت التي لا تعرفينه.

- إنني أعرف اسمي بالطبع.

- إذن سأحدثك أن تقولي لي... الآن.

أصبح صوته فجأة قاسياً لادعاً، وقال: لا فائدة من الكذب؛ لقد انتهت اللعبة، وقد كنت ذكية جداً فيها؛ فقد درست دروسك جيداً وأديبت ملاحظات توحى بالثقافة والعلم... ولكن هذا النوع من الاحتمال لا يمكن الاستمرار فيه طوال الوقت. لقد نصبت لك مصائد ووقعيت فيها. لقد انطلق لك مقاطع على أنها من كتب، وكانت هراء بعضاً، ولكنك تقبلها.

توقف قليلاً ثم أضاف: أنت لست فينيسيا سافيل. فمن أنت؟

- لقد قلت لك من أنا في أول مرة التيفيتك بها. أنا فكتوريا جونز.

- ابنة آخ الدكتور باونسفوت جونز؟

حك! ولكن ينبغي أن نتعرف أن القصة كانت تبدو مستهجنة جداً لآل ولطفة.

- ولكنك مستعد لأن تراها ممكنة الآن، لماذا؟

قال ريتشارد ببطء: لأنك إن كنت متورطة - كما نقولين - بحادث مثل كارمايكل... فربما كانت القصة صحيحة.

- من هناك بدأ الأمر كله.

- من الأفضل أن تخبرني بالقصة كلها

نظرت لكتوريا إليه بامعان ثم قالت: إنني أستاذ إن كان يوصي الوثوق بك.

- سيحان من يقرب الأحوال وأساساً على عقب! هل تدريكين بأن شكوكاً قوية كانت تراودني بأنك زومت نفسك هنا باسم مستعار لتحصلني على معلومات مني أنا؟ وربما كان هذا فعلاً ما فعلته.

- أنتهي أنك تعرف شيئاً عن كارمايكل يودون هم لو يعرفونه؟

- من هم بالقبض هؤلاء الـ "هم"؟

قالت: سأصبر لإخبارك كل شيء! إذ لا توجد أي طريقة أخرى. وإن كنت واحداً منهم فأنت تعرف ذلك أصلاً، ولذلك لا يهم.

ثم أخبرته بما حدث ليلة مثل كارمايكل، وبمقابلتها لداكين.

- كنت ابنة أخيه... ولكن اسم عائلي جونز بالفعل.

- لقد قلت لي أشياء كثيرة أخرى.

- نعم، قلت، وكانت كلها صحيحة! ولكنني رأيت أنك لم تصدقها، وقد أثار ذلك جنوني! فرغم أنني أكذب أحياناً (هل لي أغلب الأحيان في الواقع) إلا أن ما أخبرتك به لم يكن كذباً. وهكذا، ولكي أجعل نفسي مقبلة أكثر قلت لك إن اسمي هو بارنسفوت جونز... ولقد قلت ذلك من قبل لي هذا البلد وكان وقعه ممتازاً. من أين لي أن أعرف أنك كنت قادماً إلى هذا المكان؟

- لا بد أنها كانت صدفة كبيرة لك عندما صليت بذلك، ولكنك تلقيت الأمر بشكل رائع... بيروود كيروود الثلج.

- ليس من الداخل! فقد كنت أرتجف تماماً. ولكنني رأيت أن أنتظر لأشرح الأمر... ففي كل الأحوال سأكون في مأمن هنا.

- في مأمن؟

فكر في الكلمة لحظة ثم قال: اسمعيني يا فكتوريا، أكانت صحيحة تلك القصة الخرافية السخيفة التي رويتها حول تخديرك بالكولوروفورم؟

- بالطبع كانت صحيحة! ألا يمكنك أن ترى، لو أردت تليفن قصة للمثقت قصة أكثر إغناء بكثير، ولقمتها بشكل أفضل أيضاً!

- بعد ازدياد معرفتي بك قليلاً الآن يمكنك أن أصدق ذلك

ورحلتها إلى البصرة، وتوظيفها في «غصن الزيتون»، والدكتور
دانيون وتحذيره لها، والخاتمة التي جرت لها، بما في ذلك لغز
شعرها المصيرغ. الأمران الوحيدان اللذان استبقتهما لنفسهما هما
الوشاح الأحمر ودمام دوفارج.

توقف ريتشارد عند نقطة الدكتور دانيون قائلاً: الدكتور دانيون؟
أظنن أنه متورط في هذا الأمر أو يقف خلفه؟ ولكن يا عزيزي، إنه
رجل مرموق بالغ الأهمية. إنه معروف في كل أنحاء العالم وتنصّب
عليه التبرعات من كل مكان لدعم مشروعاته.

سأنته فكتوريا: أليس بحاجة ليكون كل ذلك الذي ذكرته حتى
ينجح في أمر كهذا؟

قال ريتشارد متأملاً: لقد كنتُ أعتبره دوماً حماراً متبجحاً.

- وهذا - أيضاً - غطاء وتمويه ممتاز.

- نعم... نعم، أظنه كذلك. ومن هذا لوفارج الذي سألتني
عنه؟

- مجرد اسم آخر... ويوجد اسم آخر أيضاً: أنا شيل.

- أنا شيل؟ لا، لم أسمع بها أبداً.

- إنها مهمة، ولكنني لا أعلم بالضبط كيف ولماذا؟ الأمر كله
مختلط محقد.

- أخبريني فقط مرة أخرى، من هو الرجل الذي وضعتك على
هذا الطريق كله؟

- إدوا... آه، تعني السيد داكين. أظنه يعمل في قطاع النفط.

- أهو رجل متمب محتي القهر يبدو غارغاً؟

- نعم. ولكنه ليس حقاً كذلك... أعني ليس غارغاً

استند ريتشارد إلى الخلف في جلسته ونظر إليها وقال: هل
ما أراه حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ وهل أنت البطلة والملاحقة أم
المغامرة الشريرة؟

قالت فكتوريا بأسلوب عملي: النقطة الأساسية هي: ماذا
سنقول للدكتور باونسفوت جوائز عني؟

- لا شيء؟ لن يكون ذلك ضرورياً.



فكتوريا، وربما كان إدوارد قد امتنع عن إبلاغ الشرطة بناء على نصيحة من السيد داكين. سألت فكتوريا: أتعرف إن كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟

- السيد داكين؟ آه، نعم، شخص لطيف جداً... وهو صديق لك بالطبع. كان هنا بالأمس... لا، أول أمس. والكاشين كروسي أيضاً. أتعرفينه؟ إنه صديق السيد داكين. سيصل اليوم من كرمشاه.

- أتعرف أين مكتب السيد داكين؟

- أعرف بالتأكيد. الجميع يعرفون شركة النفط العراقية الإيرانية.

- أريد الذهاب إلى هناك الآن بسيارة أجرة، ولكنني أريد التأكد من معرفة السائق للمكان.

قال ماركوس متلعطاً: "سأدله بنفسي"، ثم صحبها إلى رأس الزقاق وصاح بكل قوة على عادته، فهرع إليه خادم أجفنته الصبحة، وطلب منه ماركوس إحضار سيارة أجرة. ثم رافقها ماركوس إلى السيارة فتكلم مع السائق، ثم عاد خطوة إلى الوراء ملوحي يده فقالت له فكتوريا: كما أنني أريد غرفة، فهل هذا ممكن؟

- نعم، نعم؟ سأعطيك غرفة رائعة، وسأطلب لك الليلة قطعة اللحم الضخمة، وحندي بعض الكافيار الخاص جداً.

- ممتاز. آه يا ماركوس، هل لك أن تقرضني بعض المال؟

- بالطبع يا عزيزتي. ها هو المال، اخذي كل ما تريد.

الفصل الحادي والعشرون

انطلقوا إلى بغداد مبكرين. وكانت معنويات فكتوريا منخفضة على نحو غريب، بل إنها أحست بغصة في حلقها وهي تلقت إلى مقر البعثة، ولكن ما سببه الارتجاج العنيف المجهول للشاحنة من عدم ارتياح وألم ساعد في صرف ذهنها عن كل ما عدا هذا الألم الممغن. بدا لها غريباً أن تستقل سيارة على هذا الطريق مرة أخرى، وهي تمر بقوافل الحمير وبالشاحنات التي يعلوها التراب، وقد انقضى ما يقرب من ثلاث ساعات قبل أن يصلوا إلى ضواحي بغداد. أنزلتهم الشاحنة في فندق ثيو، وذهبت ومعها الطباخ والسائق للقيام بشراء الحاجات الضرورية، ووجد الدكتور بارتسفوت جونز وبرنشاود بيكر وزمة ضخمة من الرسائل بانتظارهما في الفندق.

ثم ظهر ماركوس ببنته الفوية ووجهه المستبشر لحيا فكتوريا بكل مرحه ووده المعبود قائلاً: آه، لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة، فأنت لا تأتيين إلى فندقي. لماذا لا تأتيين لأسبوع أو أسبوعين؟ سوف تتفدين هنا اليوم. وسيكون لك كل ما تريد من لحوم ودجاج.

بدا واضحاً أن أحداً في فندق ثيو لم يلاحظ مسألة اختطاف

انطلقت السيارة بعد أن أطلقت يوقاً عالي الصوت، واستندت فكتوريا إلى ظهر مقعدها وهي تمسك برزمة من الأوراق النقدية والعملة المعدنية. وبعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية الإيرانية وطلب السيد داكين. وعندما أدخلوها إليه رفع بصره عن المكتب الذي كان يكتب عليه، ثم نهض وصافحها بأسلوبه رسمي قائلاً: الأتة... الأتة جونز، اليس كذلك؟ أحضر لنا قهوة يا عبد الله.

وعندما أُلحِق الباب الكاتم للصوت خلف الموظف قال داكين بهدوء: ما كان ينبغي لك القدوم إلى هنا.

- لقد اضطررت إلى ذلك هذه المرة بسبب شيء لا بد لي من إبلاغك به على الفور... قبل أن يحدث لي المزيد.

- يحدث لك المزيد؟ هل حدث لك شيء؟

- ألا تعرف؟ ألم يخبرك إدوارد؟

- ما أعرفه هو أنك ما زلت تعملين في الغصن الزيتون. لم يخبرني أحد بشيء.

هتفت فكتوريا: كاثربن!

- عفواً، ماذا تعنين؟

- تلك اللثيمة كاثربن! أراهن على أنها لففت قصة أقنعت بها إدوارد، وصدقها المفضل.

قال: "حسنًا، دعينا نسمع القصة"، ثم مضت عبثاً إلى شعر

فكتوريا وقال: اهذرنني إن قلت ذلك، ولكنني أفضلك بشعره الأحمر المعادي.

- هذا ليس إلا جزءاً من المشكلة.

طرق الخادم الباب، ثم دخل بفتجانين صغيرين من القهوة الحلوة. وعندما ذهب قال داكين: والآن خذي كل وقتك وأخبريني بكل شيء! لا يمكن التنصت على كلامنا هنا.

انطلقت فكتوريا تروي قصة مغامراتها، وكعادتها عندما كانت تتحدث مع داكين، استطاعت الكلام بطريقة متماسكة وموجزة. ثم أنهت قصتها بذكر الوشاح الأحمر الذي أسقطه كارمايكل ورابطها بينه وبين السيدة دوفارج. بعد ذلك نظرت بلهفة إلى داكين.

كان داكين قد بدا لها - عندما دخلت - أكثر انحناء وتعباً من المعتاد، أما الآن فقد رأت التماعة جديدة تشرق في عينيه. قال: ينبغي عليّ قراءة مجموعة روايات ديكنز من جديد.

- إذن فأنت تروى أنني على حق؟ أنتظن أن الكلمة التي قالها هي دوفارج بالفعل... وأن رسالة ما قد حيكت على الوشاح؟

- أظن أن هذا هو أول إنجاز حقيقي نحققه... وأنت من يجب أن نشكره على ذلك، ولكن المهم هو الوشاح، أين هو؟

- مع أمتعتي. دسسته في أحد الأدراج في تلك الليلة... وأذكر أنني وضعت كل شيء في الحقائب دون ترتيب عندما خرجت أمتعتي.

- ألم يحدث أن ذكرت لأحد، لأي أحد كائناً من كان، أن
الوشاح يعود لكأومايكل؟

- لم أفعل لأنني نسيت أمره تماماً، وقد حشرته مع بعض
التياب الأخرى في حفية عندما ذهبت إلى البصرة، حتى إنني لم
أفتح الحقيبة منذ ذلك الحين.

- إذن لا بد أن يكون هناك. حتى لو فلتشوا أمتعتك فلن يولوا
اهتماماً لوشاح فذر قديم... إلا إن كانت لديهم معلومات عنه، وهو
أمر مستحيل فيما أرى. كل ما علينا فعله الآن هو جمع كل أمتعتك
وإرسالها لك في الد... هل لديك مكان تفيدني فيه بالمناسبة؟

- لقد حجزت غرفة في فندق تيو.

أوماً داكين برأيه وقال: هذا أفضل مكان لك.

- هل عليّ أن... هل تريدني أن أعود إلى «غصن الزيتون»؟

نظر إليها داكين بإعجاب ثم قال: أنت خائفة؟

برز ذفن فكتوريا للأمام وقالت متحدية: كلا، سأذهب إن
رغبت بذلك.

- لا أظن ذلك ضرورياً... ولا حكماً. وكائناتاً ما كانت الطريقة
التي عرفوا بها بالأمر فإني افترض أن أحدهم انتبه لأنشطتك، ولن
تستطعي -والحالة هذه- أن تحصلي على المزيد من المعلومات،
ولذلك من الأفضل أن تبقي بعيدة.

ثم ابتسم وأضاف: وإلا فلربما وجدت صفة شعرك حمراء.
قائمة في المرة القادمة.

صاحت فكتوريا: هذا ما أريد معرفته أكثر من أي شيء آخر!
لماذا صيغوا شعري؟ لقد فكرت وفكرت ولم أجِد تفسيراً لذلك،
فهل تستطيع تفسيره؟

- لا أجِد إلا تفسيراً بشعاً واحداً، وهو أن جثتك سيصعب
التعرف عليها.

- ولكن لو أرادوني جثة هامدة لماذا لم يقتلوني مباشرة؟

- هذا سؤال مهم جداً يا فكتوريا، وهو السؤال الذي أريد إجابة
أكثر من أي سؤال آخر.

- اليس لديك أية فكرة عن السبب؟

قال داكين وهو يشتم ابتسامة باهنة: ليس لديّ أيّ مؤشر يدل
على السبب.

- على ذكر المؤشرات؛ هل تذكر قولتي إنني رأيت في السير
كروفتن في شيناً بدا لي غير طبيعي في ذلك الصباح في فندق نيو؟

- نعم؟

- أنت لم تعرفه شخصياً، أليس كذلك؟

- بلى؛ لم أكن قد قابلته من قبل.

- هذا ما عشتته؛ ذلك أنه لم يكن السير روبرت كروفتن لي.

السهرات التي يقيمها في ناديه ، وسيكون من السهل علي أن أدرس ملاحظة تسكرتيره إدوارد. أما أنت فأذهبي للفندق وابقى هناك. واسمحي يا فكتوريا...

- نعم؟

- إذا ما وجدت نفسك في ورطة... مهما كان نوعها، فافعلي كل ما في وسعك لإنقاذ نفسك إن أعداءك شديدي المراس، وأنت تعرفين الكثير مع الأسف. وبمجرد أن يصبح متاعك في فندق نيو تكون التزاماتك نجاها قد انتهت. أرجو أن تفهمي ذلك.

WWW.LILAS.COM
CHASSEY

ثم انطلقت -من جديد- في سرد حي ابتداءً بالدقلة التي كانت على رقة السير ووبرت، وعندما أكملت قال داكين: هكذا تمت العملية إذن. لم أفهم أبداً كيف أمكن لكاريماكل أن يكون مطمئناً إلى الحد الذي يقتل فيه في تلك الليلة. لقد وصل سالماً إلى كروفتن لي... وكروفتن لي هو الذي طعنه، ولكنه تمكن من الفرار، واتدفع إلى غرفتك قبل أن ينهار، وظل متمسكاً بالشاح... تسكاً يائساً بالمعنى الحرفي للكلمة.

- أنظن أنهم اختطفوني لأنني كنت قادمة للإبلاغك بذلك؟ ولكن أحداً لم يكن يعرف... باستثناء إدوارد.

- أظنهم شعروا بضرورة التخلص منك بسرعة. لقد بدأت تفهمين -بسرعة- الكثير مما يبدو في غصن الزينون؟.

- لقد حفرني الدكتور رايبون، بل كان تحذيره أقرب إلى التهديد، وأظنه أدرك أنني لست كما أذعي.

قال داكين ببرود: ليس رايبون بالأحمق.

- أنا سعيدة لعدم اضطراري للعودة إلى هناك. لقد تظاهرت بالشجاعة قبل قليل... ولكنني مرعوبة جداً في الواقع. ولكن كيف يعني الاتصال بإدوارد إن لم أذهب إلى هناك؟

انهمس داكين وقال: إن لم يكن بمقدورك الذهاب إلى الجبل فسجمل الجبل يأتي إليك. اكتبي له ملاحظة الآن، قولي له -فقط- إنك في فندق نيو، واطلبي منه أن يجمع أمتعتك ويأتيك بها هناك أنا ذاهب لاستشارة الدكتور رايبون هذا الصباح بخصوص إحدى

- أحمقاً قلقت؟ أين نظنتني كنت؟

- لقد أوصَلت لي كاترين رسالتك... قالت إنك أوصيتها أن
تبلغني بأنك ساقرتني إلى الموصل فجأة لأمر مهم جداً، وأنتي سائلتي
مثل رسالة فيها بعد.

قالت فكتوريا بصوت بكاء هوسي بالشفقة: وأنت حدثت
ذلك؟

- ظننت أنك وجدت رأس غيط للفرع ما، ومن الطبيعي - في
هذه الحالة - أن لا تستطيعي قول الكثير لكاترين.

- ولم يخطر لك أن كاترين تكذب، وأنهم قد خدروني؟

- حديق إدوارد وقال: ماذا؟!

- خدروني... بالكوروفورم، وأجاعوني.

نظر إدوارد حوله نظرة حادة وقال: يا إلهي! لم أحلم أبداً...
اسمعي، إنني لا أحب الكلام هنا، مع كل هذه النوافذ. ألا نستطيع
الصعود إلى غرفتك؟

- حسناً. هل أحضرت امتعتي؟

- نعم، أودعناها لدى المحال.

- لأن المرأة عندما لا يملك أن يشير ملازمه لمدة أسبوعين...

- فكتوريا ما الذي كان يحدث؟ اسمعي... معي سيارة. دعيني
تذهب إلى مكان ما معاً فنحن لم نجلس بمفردنا منذ قرون.

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن صغّفت شعرها بكل عناية ووضعت الصابون على
وجهها، جلست فكتوريا على شرفة لندن تيو للعب مرة أخرى
دور جوليت المعاصرة التي تنتظر روميو... وقد جاء روميو في نهاية
الأمر، حيث ظهر على العشب أسفل منها بنظر هنا وهناك. نادته فرغ
بصره وقال: آه، ها أنت يا فكتوريا!

قالت: "اصعد إلى هنا". وبعد دقيقة وصل إلى الشرفة التي
كانت مهجورة. قالت فكتوريا: "هنا أكثر هدوءاً"، فيما كان إدوارد
ينظر إليها حائراً، ثم قال: هل فعلت شيئاً لشعرك يا فكتوريا؟

أطلقت فكتوريا زفرة غبطة وقالت: إن ذكر لي أحد الشعر فلنني
أظن أنني سأضربه على راسه حقاً.

- لقد كنت أحب شعرك كما كان من قبل.

- قل ذلك لكاترين!

- كاترين؟ وما علاقتها بذلك؟ ثم أين كنت طوال هذه الفترة
يا لكتوريا؟ لقد قلقتُ عليك كثيراً.

- منذ أن كنا في بابل!

عند هذه النقطة صاح إدوارد ضاحكاً: أنت راضية يا فكتوريا!
بكل هذه الأمور التي تفكرين بها وتختبرينها
- أعرف ما تعنيه... أعمامي، الدكتور بارنسفوت جوتز، وقبله
الأسقف.

وعند هذه النقطة تذكرت - فجأة - ما هو ذلك الشيء الذي
أرادت سؤال إدوارد عنه في البصرة عندما فاطمتها السيدة كلاتيون
ودعهما لتناول الشاي. قالت: لقد أردت أن أسألك من قبل... كيف
عرفت بأمر الأسقف؟

سهرت باليد التي تمسك بها لتصلب فجأة، ثم قال بسرعة...
بل بسرعة كبيرة: أنت أخبرتني، أليس كذلك؟

نظرت إليه فكتوريا، وقد فكرت - فيما بعد - كم كان غريباً أن
تحقق تلك الهوة الطفولية السخيفة ما حققته؛ ذلك أنه فوجئ تماماً.
لم يكن لديه تفسير جاهز. - وغدا وجهه - فجأة - عاجزاً دون قناع.

وفيما هي تنظر إليه تغيرت الأشياء كلها وأخذت مواقعها لتتظم
في نمط متجانس، وراث الحقيقة. ربما لم يكن الأمر مفاجئاً فعلاً.
ربما كان ذلك السؤال القاتل: كيف عرف إدوارد بأمر الأسقف؟
يُلمح ويتفاعل في عقلها الباطن، وربما كانت تقرب ببطء من الجواب
الوحيد والحتمي: إن إدوارد لم يعلم بأمر أسقف لانغر منها.
والشخص الوحيد الآخر الذي كان يمكن لإدوارد أن يعرف ذلك
منه هو السيد أو السيدة كليب. ولكن لم يكن من الممكن أن يكون
أي منهما قد شاهد إدوارد بعد وصولها إلى بغداد؛ لأن إدوارد كان

نزل الاثنان الدراج وكفصاً وخرجا إلى حيث سيارة إدوارد.
وقاد إدوارد السيارة في شارع عريض من شوارع بغداد متجهاً
جنوباً، وراحت السيارة تهتز وتتمايل وهي تسير عبر جنان نخيل
وفوق جسور صغرى بنيت فوق قنوات الري. وأخيراً وصلوا إلى أيكمة
أشجار صغيرة تحيط بها الجداول، وكانت أشجار الأيكمة (ومعظمها
أشجار لوز ومشمش) قد أزهرت لتوها. كانت بقعة في غاية الجمال
والهدوء، وعلى بعد قليل خلفها كان ينساب نهر دجلة.

خرجوا من السيارة وسارا معاً بين الأشجار المزهرة. وقالت
فكتوريا وهي تشهد بعين: مكان رائع؛ كان المرء في إنكلترا في
الربيع!

كان الهواء رقيقاً دافئاً، وما لبث الاثنان أن جلسا على جذع
شجرة ساقطة وفوق رأسيهما تتدلى البراعم الوردية. وقال إدوارد:
والآن، أخبريني بما حدث معك؛ لقد كنت في غاية اليأس
والثماسة.

أخبرته بما جرى معها أخبرته بأمر مصفقة الشعر المزهومة،
والكلوروفورم. وأخبرته عن استيقاظها مخدرة تعاني من الغثاس،
وكيف هربت، وعن لغائها العرضي بريتشارد بيكر، وكيف أذغت
أنها ابنة ألخ الدكتور بارنسفوت جوتز وهي في طريقها إلى موقع
الحفريات، وكيف استطاعت - بمحض - المحافظة على دورها
كطالبة في علم الآثار وصلت من إنكلترا.

في البصرة في ذلك الحين، ولذلك لا بد أنه عرف ذلك منهما قبل مغادرته هو شخصياً إنكلترا. لا بد - إذن - أنه عرف طوال الوقت بأن فكتوريا قادمة معهم... وهذا يعني أن الصدقة الرائعة كلها لم تكن صدقة في نهاية الأمر، بل كانت مسخطة ومقصودة.

وفيما هي تتحدث إلى وجه إدوارد الذي سقط عنه القناع عرفت - نجاة - ما الذي هناك كارمايكل بكلمة «الشیطان». عرفت ما الذي رآه في ذلك اليوم عندما نظر عبر السمور إلى حديقة القنصلية... لقد رأى ذلك الوجه الشاب الجميل الذي تنظر هي إليه الآن!

ثم يكن الدكتور رايتون هو الشرير... بل إدوارد إدوارد، الذي يلعب دوراً ثانوياً، دور السكرتير، ولكنه يتحكم ويخطط ويوجه، ويستخدم رايتون رئيساً بالاسم فقط... ورايتون هو الذي حذرهما بأن تذهب قبل أن يفوت الأوان!

وفيما هي تنظر إلى ذلك الوجه الجميل الشرير نبخر كل ذلك الحب السخيف المراهق الصياني، وعرفت أن ما أحسست به تجاه إدوارد لم يكن حياً أبداً، بل كان ذلك انهياراً... كما أن إدوارد لم يحبها أبداً، فقد مارس سحره وألقه عن عمد. لقد التقطها في ذلك اليوم مستخدماً سحره بكل تلك السهولة والطبيعة بحيث ولعت في الخديعة دون مقاومة... لقد كانت مغفلة تماماً!

فرب كم يمكن لحقائق كثيرة أن تضيء نجاة في ذهن المرأة في لحظة خاطفة! والمرء لا يسطر إلى إمعان التفكير لاستخراجها! فهي تأتي تلقائياً على شكل معرفة كاملة وفورية. وربما كان ذلك لأن المرأة - في أعماقه - كان يعرف تلك الحقائق طوال الوقت.

وفي نفس الوقت فإن غريزة معينة من غرائز الشفاء، سريعة كسرعة كل الملكات العقلية لتكتوريا، جعلتها تُبقي على وجوها تعبير عَجَبٍ أبده غافلاً. ذلك أنها عرفت - غريزياً - أنها في خطر ماحق، وأن شيئاً واحداً فقط يمكن له أن ينقذها... ورقة واحدة تستطيع لبسها. وقد سارعت لللبسها ففأنت: لقد كنت تعرف طوال الوقت! كنت تعرف أنني قادمة إلى هنا، ولا بد أنك ربيت ذلك. آه يا إدوارد، أنت رائع!

أما وجهها، ذلك الوجه البلاستيكي الذي لا تعابير فيه، فقد أظهر عاطفة واحدة؛ عاطفة الوله الساذج. وقد رأت الاستجابة.. رأت الإشامة التي تكاد تنشي بالازدراء، ورأت الارتياح أيضاً. وكادت أن تشعر بإدوارد وهو يقول لنفسه: "يا للمغفلة الصغيرة؛ من شأنها أن تصدق كل شيء! أستطيع أن أفعل بها ما أشاء".

قالت: ولكن كيف ربيت ذلك؟ لا بد أنك واسع النفوذ، لا بد أنك مختلف تماماً عما نتظاهر به.

رأت الكبرياء الذي أضاع وجهه. رأت النفوذ والقوة والقسوة، التي كانت مخبأة كلها تحت قناع الشاب المتواضع المحبوب. ثم قالت بسرعة ولهفة، وكلمة فنية أخيرة (مع أن أحداً لن يعرف أبداً كلفة هذه العبارة على كبرياتها): ولكنك تحبني بالفعل، اليس كذلك؟

كان الاحترار في عينيه الآن لا يكاد يخفى... (هذه المغفلة الصغيرة.. كل هؤلاء النساء المغفلات! لا أسهل من جعلهن يصدقن أنك تحبهن، وهذا هو كل ما يهمهن؛ فكل ما يفعله هو التباكي طلياً

للحعب! لقد كنّ مثل الإمام وقد استخدمْتُهُنَّ للوصول إلى غايتك).
قال: طبعاً أحبك.

- ولكن ما معنى هذا كله؟ أخبرني يا إدوارد؟

- إنه عالم جديد يا فكتوريا! عالم جديد سينتس على أنفاسي
العالم القديم ورماده.

- أخبرني عنه.

أخبرها، وكادت أن تنجرف وزعماً عنها لتؤمن بالعلم:
الأشياء القديمة السيئة ينبغي أن يدمّر بعضها بعضاً الرجال العجائز
اللاهثون وراء مكاسبهم والذين يعيقون التقدم، والشيوخيون الأخيلاء
المتعصبون الذين يحاولون بناء جنتهم الماركسية... ينبغي أن تقع
حرب شاملة وأن يحدث دمار شامل، وعندها العنصر الصغيرة
المختارة من الإداريين والشباب (من أمثال إدوارد) سيتقدمون
ويتولون زمام الموقف. كان ذلك جنوناً... ولكنه كان أمراً يمكن أن
يتحقق في عالم تمزق وتفكك.

قالت فكتوريا: ولكن فكّر في كل الناس الذين سيقتلون قبل
ذلك.

- أنت لا تدركين يا فكتوريا... هذا لا يهم

لا يهم... تلك كانت عقيدة إدوارد! أما هي فرائت أن ذلك
كله يهم... كل الألوف المؤلفة من الناس البسطاء العاديين على هذه
الأرض، المنشغلين بمشاغلهم الخاصة، يُنشئون عائلات ويصحبون

ويكونون وينتصون في الصباح ويأوون إلى فرشهم في الليل. أولئك
هم الناس الذين يهمون، وليس هؤلاء الأشرار!

ويكل حذر قالت فكتوريا وهي تتلمس طرفيها (إذ كانت تعلم
أن الموت هنا قد يكون قريباً جداً): أنت رائع حقاً يا إدوارد ولكن
ماذا هي أنا؟ ما الذي أستطيع فعله؟

- أتريدن... المساعدة؟ أنؤمنين بقضيتنا؟

ولكنها كانت عاقلة. لا يليق الانقلاب المفاجئ؛ سوف يبدو
مبالغاً. ولذلك قالت: أظنني أؤمن بك أنت فقط، وكل ما نطليه أنت
مني يا إدوارد سأفعله!

- أنت فتاة عظيمة.

- لماذا خططت لقدومي إلى هنا بداية؟ لا بد من وجود
هدف.

- يوجد هدف بالطبع. هل تذكرين أنني صوّرتك يوماً؟

قالت: "نعم، أذكر" (وفكرت قائلة لنفسها: يا لك من خيبة،
لكنّ زهرت بذلك، وكيف انبسط عجباً!)

- لقد أثار انتباهي الشكل الجانبي لوجهك وشبهك بإحدى
النساء فأخذت تلك الصورة بقية التأكد.

- من التي أشبهها؟

- امرأة نسيب لنا الكثير من المناصب... أنا شابل.

شيل لكان في ذلك نهايتي" ثم قالت: من هي أنا شيل حقاً؟

- أنا شيل؟

- إنها السكرتيرة الخاصة للمصري الأمريكي والدولي أوتو مورغانثال، ولكن ليست هكذا فحسب. إن لديها عقلاً مالياً شديداً التميز والذكاء، ولديها من الأسباب ما يدعوها للاعتقاد بأنها استطاعت تتبع الكثير من حساباتها المالية. لقد كان يوجد ثلاثة أشخاص لطيفين عليهما: كروفتن لي، وكارمايكل... وكلاهما نشت إزاحتهما. وبقيت أنا شيل. وسوف تصل إلى بغداد في غضون ثلاثة أيام، ولكنها -هي هذه الأبناء- اخضعت تماماً.

- اخضعت؟ أين؟

- في لندن، والواضح أنها نبخرت عن وجه الأرض.

- ألا يعرف أحد أين هي؟

- ربما كان داكين يعرف.

ولكن داكين لم يكن يعرف كانت فكتوريا تعلم ذلك، مع أن إدوارد لا يعلم... أين كانت أنا شيل إذن؟ سأتك: أليست لديكم حقاً أية فكرة؟

قال إدوارد ببطء: لدينا فكرة.

- وما هي؟

- من بالغ الأهمية أن تكون أنا شيل هنا في بلدنا لحضور المؤتمر، وهو سيعقد -كما تعلمين- بعد خمسة أيام.

نظرت فكتوريا إليه بدهشة وعدم استيعاب؛ فقد توقعته كل شيء إلا هذا. قالت: أتمنى... أنها تشبهني أنا؟

- تشبهك شيئاً بالغا من الجانب؛ فملا محكما من تلك الجهة تكاد تكون واحدة تماماً، وأنما متشابهتان في الطول والبنية، وإن تكن تكبريك بخمس سنوات تقريباً. الفارق الحقيقي في الشعر؛ فأنت ذات شعر أسود ضارب للحمرة، وهي شفاء، وطريقة تصفيف شعرك مختلفة تماماً. كما أن عيناك أشد زرقة، ولكن ذلك لا يهم عند استعمال النظارات الملونة.

- ولهذا أردت إحصاري إلى بغداد؟ لأنني أشبهها.

- نعم؛ فقد رأيت أن الشبه يمكن أن... يفيدنا.

- وهكذا رتب الأمر كله. والزوجان كليب... من هما؟

- ليسا مهمين؛ إنهما يعلنان ما يطلب منهما وحسب.

شيء ما في نيرة إدوارد جعل فكتوريا ترتعد من أعماقها، ولكنها قالت متظاهرة بالهدوء: لقد قلت لي إن أنا شيل كانت هي المسؤولة، هي ملكة التحل في مشروعاتكم، أليس كذلك؟

- اضطررت لأن أقول لك شيئاً ما لتضليلك هما كنت تسمين إليه؛ إذ كنت قد عرفت أكثر مما ينبغي.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "ولو صادف أنني لم أكن أشبه أنا

- بهذه السرعة؟ لم أعرف ذلك.

- لقد خبرينا طوعاً حول كل مدخل من مداخل هذا البلد. من المؤكد أنها لن تأتي إلى هنا باسمها الحقيقي، ولن تأتي على متن طائرة حكومية عادية، فلدنيا وسائلنا في التحقق من تلك الرحلات. ولذلك دققنا في كل الحجوزات الخاصة. يوجد مقعد محجوز على متن إحدى خطوط الطيران باسم غريت هاردن، وقد تتبعنا أمر هذه المرأة فلم نجد أهدأ بهذا الاسم، فهو اسم مستعار إذن... كما أن العنوان الذي تم تقديمه وهمي لا وجود له. إننا نرى أن غريت هاردن هي آنا شيل.

ثم أضاف قائلًا: ستتهبط طائرتها في دمشق بعد غد.

- وعندها؟

نظر إدوارد إليها فجأة وقال: هنا يأتي دورك يا فكتوريا.

- دوري؟

- سوف تأخذين مكانها.

قالت فكتوريا ببطء: كما حدث للسير روبرت كروفتس لي؟

كانت جعلتها تلك أقرب إلى الهمس، فبعد عملية الاستبدال تلك حانت السير روبرت. وعندما تأخذ فكتوريا مكان آنا شيل أو غريت هاردن... فإن الأخيرة ستموت.

وكان إدوارد ينتظر. لو شك للمحطة واحدة في صدقها وولائها

فإنها هي التي ستموت... وستموت دون إمكانية تحذير أحد. لا، ينبغي أن نوافق ثم نغتنم فرصة لتبلغ السيد داكين بذلك.

سحبت نفساً عميقاً وقالت: إنني... إنني... آه، لا أستطيع القيام بذلك يا إدوارد. سوف يكتشفون أمرني؟ فليس بوسعي تقليد اللهجة الأمريكية.

- ليس لأننا شيل لهجة محددة تميزها. وعلى كل حال سوف نكون مصابة بالتهاب الحنجرة، وسيشهد على ذلك واحد من أفضل الأطباء في هذا الجزء من العالم.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: إن لديهم أتباعاً في كل مكان!

- تطيرين من دمشق إلى بغداد باعتبارك غريت هاردن، ثم تؤخذين فوراً إلى فراشك ولا يسمح لك طبيبتنا الشهيرة بمغادرة الفراش إلا عندما يحين وقت حضور المؤتمر. وهناك ستسبطين أمامهم الوثائق التي أحضرتها معك.

سألت فكتوريا: الوثائق الحقيقية؟

- كلا بالطبع! سنستبدل بها نسخة من عندنا.

- وماذا ستظهر الوثائق؟

ابتسم إدوارد وقال: تفصيلات مفصلة عن أكبر وأخطر مؤامرة شيوعية في أمريكا.

قالت فكتوريا لنفسها: "يا لدقة تخطيطهم للأمر!"، ثم قالت لإدوارد: أنتظن أن بوسعي أن أتجو بقلعتي هذه يا إدوارد؟

كان من السهل تماماً عليها الآن -وهي تمثل دوراً- أن تطرح ذلك السؤال بكل مظهر من مظاهر الإخلاص المتلف. قال إدوارد: أنا واثق أنك قادرة على ذلك! لقد لاحظت أن تمثيلك للأدوار يبعث فيك متعة كبيرة بحيث يغدو من المستحيل تقريباً الشك فيك.

قالت فكتوريا متأملة: ما زلت أشعر بأنني مغفلة كبرى عندما أفكر بمعالجة كليب.

صاحت بأسلوب قوي. وفكرت فكتوريا قافلة لنفسها ووجهها ما يزال قناعاً للولع والتعلق: "ولكنك أنت أيضاً كنت مغفلاً تماماً إذ وقعت بمثل تلك الهفوة الخاصة بأسقف لانغو، ولو لم تقع بها لما أمكنتي كشفك أبداً". قالت فجأة بصوت عالٍ: ماذا عن الدكتور واثبون؟

- ماذا تعنين بقولك؟

- هل هو مجرد رئيس صوري؟

انحنفت شفتا إدوارد بشكل يوحي بالتسلي المنهني القاسي وقال: واثبون مضطرب للإذعان لما نريد. أتعلمين ما الذي كان يفعله طوال هذه السنين؟ كان يستغل -بذكاء- ثلاثة أرباع التبرعات التي تنصب على مؤسسة من جميع أنحاء العالم ويحولها لمصلحته الخاصة. نعم، إن واثبون لم يبتعنا تماماً... نستطيع كشفه في أي وقت، وهو يعرف ذلك جيداً.

شعرت فكتوريا بامتنان مفاجئ للرجل العجوز ذي الرأس المتعيب والنفسية المادية. ربما كان محتالاً، ولكن الشفقة عرفت

طريقها إلى قلبه... وقد حاول أن يدفعها للنجاة بنفسها في الوقت المناسب.

قال إدوارد: كل الأمور تجري باتجاه عالمنا الجديد.

فكرت قافلة لنفسها: إن إدوارد (الذي يبدو عاقلاً جداً) مجنون في الواقع! فالمرء يصاب بالمجنون عندما يحاول وضع نفسه موضع الإله! لقد قبل دوماً إن التواضع فضيلة، وإنني أدرك الآن لماذا هي كذلك! فهو ما يقي المرء عاقلاً وإنساناً.

نهض إدوارد وقال: آه لنا أن نذهب. يجب أن نوصلك إلى دمشق ونفذ خططنا هناك بعد غد.

نهضت فكتوريا محترسة، فبمجرد أن تعود إلى بغداد وإلى فندق ثيو سيزول الخطر القريب الداهم الذي يمثله إدوارد الآن. كان دورها يقضي بأن تلعب دوراً مزدوجاً تستمر فيه بخداع إدوارد بتمثيل دور الوثولهاة الخافضة، في نفس الوقت الذي تقاوم فيه خطته بالسوء. قالت: أظن أن السيد داكين يعرف مكان آنا شيل؟ ربما استطعت معرفة ذلك منه. ربما صدرت عنه إشارة ما.

-- هذا غير محتمل، وعلى كل حال فأنت لن تري داكين.

قالت فكتوريا كاذبة وقد دامها شيء من الرعب: لقد أوصاني بأن أذهب لرؤيته هذا المساء، وسيبري الأمر غريباً إن لم أذهب.

- لا يهم ما يراه في هذه المرحلة. لقد وضعت خططنا، ولن يراك أحد في بغداد ثانية.

- ولكن كل أمتعتي في الفندق يا إدوارد! وقد حجزت غرفة.

(الوشاح... الوشاح الثمين).

- لن نحتاجي أمتعتك في المستشفى الغريب، لقد جهزت لك ملابس تنتظرك، هيا.

صعدا إلى السيارة ثانية، وقالت فيكتوريا لنفسها: "كان علي أن أعرف أن إدوارد ليس على تلك الدرجة من الغباء التي يسمح لي معها بأن أتصل بذاكين بعد أن كشفت أمره. صحيح أنه يظنني مغرمة به، وأظنه واثقاً من ذلك، ولكنه - رغم ذلك كله - ليس مستعداً للمجازفة". قالت له: أكن يتم البحث عني إن أنا... لم أظهر؟

- سنعني نحن بذلك. من الناحية الرسمية الظاهرية سنودعيه في على الجسر وسافرين لرؤية بعض الأصدقاء في الضفة الغربية.

- ومن الناحية الفعلية؟

- انتظري وسترين.

جلست فيكتوريا صامتة فيما كانت السيارة نهتز فوق الطريق الوعر وتلطف حول هساتين تخيل وتجتاز جسور وي صغيرة. وتتم إدوارد قالاً: لوفارج... ليننا نعرف ما الذي فهدد كارمايكل بهذه الكلمة.

دق قلب فيكتوريا انفعالاً وقالت: آه، لقد نسيت إبلاغك.

لا أدري إن كانت هذه المعلومة تعني شيئاً، ولكن أ.م. لوفارج جاء يوماً إلى موقع الحفريات في تل أسود.

- ماذا؟

كاد إدوارد أن يوقف السيارة في حماة انفعاله، ثم سألها: متى كان ذلك؟

- آه، منذ نحو أسبوع. قال إنه جاء من موقع حفريات ما في سوريا، أترأه أتى من موقع حفريات المميو بارو؟

- هل جاء إليكم أيضاً رجالان باسم أندريه وجوفيت عندما كنت هناك؟

- نعم، وكان أحدهما يعاني من معدته.

- لقد كانا اثنين من رجالنا.

- ولماذا ذهبوا هناك؟ للبحث عني؟

- لا، فلم تكن عندي أي فكرة عن مكان وجودك. ولكن ريتشارد بيكر كان في البصرة في نفس الوقت الذي كان كارمايكل فيها، وراودتنا فكرة بأن من الممكن أن يكون كارمايكل قد مرّر له شيئاً.

- لقد قال إن أمتعتي فُتشت. هل وجد صاحبكم شيئاً؟

- لا... ولكن فكري ملياً يا فيكتوريا: هل جاء ذلك الرجل لوفارج قبل الرجلين الآخرين أم بعدهما؟

ثم تمنم وهو يعود لأسلوبه المعتاد: "لا تخذليني يا حبيبتي؛ أنت وحدك من تستطيع القيام بذلك". ثم أضاف قائلاً: "لا تخافي. أودّ أنك على أفضل ما يكون ولن نجدني صعوبة عند الحدود السورية. اسمك الآن... بالمسماة". هو الأخت ماري ديز أنغيز، ولدى الأخت تيريزا التي ترافقت كل الوثائق، وهي المسؤولة الأولى والأخيرة هناك. أطعمي الأوامر بالله عليك... والأخوتي أحذرك بصراحة، ستجملين كل العواقب". ثم تراجع قليلاً ولوح لها بابتهاج، وانطلقت سيارة الرحلات.

أستندت فكتوريا ظهرها إلى ظهر المقعد المتجذد واستقرت في تأملات للبدائل الممكنة أمامها. إن بإمكانها -لدى مرورهم في بغداد، أو عند الوصول إلى الحدود- أن تفتعل إشكالاً ما وتصبح طلباً للنجدة وتشرح للناس أنها قد اقتيدت رغماً عنها... وبإمكانها اختيار أكثر من طريقة للقيام باحتجاج مباشر. ولكن ماذا سيحقق ذلك؟ ربما نهاية فكتوريا جونز؟ فقد لاحظت أن الأخت تيريزا قد دست في كمها سدساً صغيراً ألياً بقي بالغرض.

إن أفضل خيار هو المعضي فدماً في الأمور والإذعان للخطئة... أن تأتي إلى بغداد باعتبارها آنا شيل وتلبس دورها، لأنها إن فعلت ذلك فلن تكون لإدوارد سيطرة على لسانها أو تصرفاتها من بعد. إن استطاعت الاستمرار في إقناع إدوارد بأنها ستفعل كل ما يطلبه، فعندها ستأتي لحظة تلف فيها مع وثائقها المزورة أمام المؤتمر... ولن يكون إدوارد هناك، ولن يستطيع أحد -وقتها- أن يمنعها من القول: أنا لست آنا شيل، وهذه الوثائق مزورة وكاذبة.

تعمّبت من أن إدوارد لم يخشَ قيامها بذلك تماماً، ولكنها رأت أن الخبلاء ميزة تعمي العقل على نحو غريب، كما توجد حقيقة يجب أخذها في الاعتبار وهي أن إدوارد وزمرته مضطرون لاختراع آنا شيل إن أرادوا لمخلفاتهم النجاح، وإن لمن المستحيل أن يتمكنوا من العثور على فتاة تشبه آنا شيل مثلاً. نعم، لقد كانوا بحاجة إليها... وبهذا المعنى فإن فكتوريا جونز هي التي تسيطر عليهم وليس العكس.

زادت السيارة سرعتها عبر الجسر، وراقبت فكتوريا نهر دجلة بشوق إلى الماضي القريب.



www.tilas.com
Chassey

وقد وضعت مساحيق بشكل أشبه بالبيع على وجهها، وكانت ترتدي ثياباً مرثبة قديمة. وكانت فرنسيته مرتبكة وكبكة... وقد تمين من وقت لآخر إعادة السؤال عليها لتفهمه.

قبل للمسافرين الأربعة إن طائرة بغداد ستقلع عصراً، وإنهم سيؤخذون الآن إلى فندق العباسيين للغداء ونهل قسط من الراحة. وقد كانت غريت هاردن تجلس على سريرها عندما سمعت طرقات على الباب. فتحت فوجدت شابة سمراء طويلة ترتدي الزي الرسمي لشركة الطيران. قالت: أنا أسفة جداً لإزعاجك يا آنسة هاردن. هل لك أن تأتي معي إلى مكتب شركة الطيران؟ لقد برزت مشكلة صغيرة حول بطاقتك. من هنا رجاء.

تبعث غريت هاردن مرشدتها في الممر، وعلى أحد الأبواب كانت لافتة تكتب ببخط ذهبي: «مكتب الطيران». وفتحت المضيق الباب وأشادت لغريت هاردن بالدخول، وعندما دخلت أغلقت المضيق الباب من الخارج ونزعت اللافتة منه بسرعة.

وعندما تجاوزت غريت هاردن الباب قام رجلان (كانا يفتان خلفه) برمي قطعة قماش على رأسها. ثم دسا كمامة في فمها، وقام أحدهما برفع كمها وحققا بإبرة. وخلال دقائق قليلة ارتضى جسدها.

قال الطبيب الشاب بمرح: هذه الحقنة ستؤلى أمرها نعوأ من مست مساعدات في كل الأحوال. هيا أنثما الإنتين، أكملنا عملكم.

أوما برأسه بانتباه من مشاطرته الغرقة، وهما راهيتان كانتا

الفصل الثالث والعشرون

هبطت طائرة «سكاي ماستر» الضخمة من السماء، وكانت عملية الهبوط ممتازة. ثم سارت يهدوء على طول المدرج. ثم ما لبثت أن توقف في مكانها المحدد. وقد دُعي الركاب للنزول، وتم فصل أولئك الذاهبين إلى البصرة عن أولئك الذين سيستقلون طائرة نقلهم إلى بغداد. ومن بين هذه المجموعة الأخيرة كان أربعة أشخاص: رجل أعمال عراقي تبدو عليه مظاهر الثروة، وطبيب إنكليزي شاب، وامرأتان. وقد عبروا جميعاً نقاط التحقيق المختلفة.

جاءت -في البداية- امرأة سمراء ذات شعر أشعث لم يستطع وشاحها أن يلمه كله. ومضى التحقيق معها: السيدة ياونسفوت جونز؟ بريطانية؟ نعم... تريدان الالتحاق بزوجك؟ عنوانك في بغداد رجاء؟ ماذا تحملين من مال؟

بعد ذلك أخذت المرأة الأخرى مكان زميلتها: غريت هاردن؟ نعم... جنسيتك؟ دانمركية... جئت من لندن، سبب الزيارة؟ بذلك في مستشفى؟ عنوانك في بغداد؟ ماذا لديك من مال؟

كانت غريت هاردن شابة نحيلة شقراء تلبس نظارات سوداء،

تجلسان دون حراك عند النافذة. خرج الرجلان من الغرفة، وذعبت الكبرى من الراهبتين إلى غريت هاردن وبدأت تنزع الملابس عن جسدها المرتنحي، أما الراهبة الشابة فقد بدأت تنزع زي الراهبانية وهي ترتعد قليلاً، وسرعان ما كانت غريت هاردن تمتددهم بهدوء ووقار على السرير وقد ألبست ثياب الراهبات، فيما كانت الراهبة الصغرى ترتدي الآن ثياب غريت هاردن.

حوّلت الراهبة الكبرى انتباهها الآن إلى شعر رفيقتها الكتاني. أخرجت من جيبتها صورة ونظرت إليها أمام المرأة ثم أخذت تمسح شعر رفيقتها وتصفه إلى الخلف ثم جعله خصصات ملتفة نزولاً على العنق. ثم تراجعت خطوة وقالت بالفرنسية: مدحش كيف تغيرت. ضمي النظارات السوداء؛ فينبالك غامقنا الزرقاء كثيراً. نعم؛ هذا رائع.

طُرق الباب طرقةً غفياً، ثم دخل الرجلان ثانية وهما يتسلمان. قال أحدهما: إن غريت هاردن هي أنا شيل دون شك؛ فالأوراق بين أمتعتها، وهي مخبأة بكل عناية بين أوراق كتاب دانمركي حول التشليك الطبي. والآن يا آنسة هاردن...

ثم انحنى باحتفاء كاذب لفكتوريا وأكمل قائلاً: سوف تمنحيني شرف تناول الغذاء معك.

تبعته فكتوريا إلى خارج الغرفة، ثم عبر الصالة. كانت المرأة المسافرة الأخرى تحاول إرسال بركة عند مكتب الاستقبال. كانت تقول: لا، الاسم هو باونسفوت... الدكتور باونسفوت جونز. سأصل اليوم إلى فندق تيو. الرحلة جيدة.

نظرت إليها فكتوريا باهتمام مفاجئ. لا بد أن هنه هي زوجة الدكتور باونسفوت جونز وقد جاءت للالتحاق به. وكرتها جاءت قبل أسبوع من موعدها لم يكن أمراً مفاجئاً أبداً لفكتوريا؛ إذ أن الدكتور باونسفوت قد شكها مراراً من تفسيره لرسالتها التي تعدد وقت وصولها قائلاً إنه شبه متأكد من أن ذلك الموعد كان السادس والعشرين من الشهر!

لو أنها استطاعت فقط - بطريقة أو بأخرى - إرسال رسالة ما إلى ريتشارد بيكر عن طريق السيدة جونز...

قام الرجل الذي يرافها - وكأنه يقرأ أفكارها - بافتيادها من مرقها بعيداً عن مكتب الاستقبال قائلاً: لا أحادث مع رفاق سفرنا يا آنسة هاردن. لا نريد أن تلاحظ تلك المرأة الطيبة أنك تختلفين عن المرأة التي جاءت معها من لندن.

أخذها لتناول الغذاء في مطعم خارج الفندق، وعند عودتهما كانت السيدة باونسفوت جونز تتول درج الفندق. وقد أومأت لفكتوريا دون أي ارتباك ونابتة قائلة: أكنسنا تتزهران؟ أنا خارجة الآن إلى السوق.

قالت فكتوريا لنفسها: "لو أستطيع دس شيء في أمتعتها..."، ولكنها لم تترك بمفردها لحظة واحدة.

خادرت طائرة بغداد في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكان مقعد السيدة باونسفوت جونز في مقدمة الطائرة تماماً، أما مقعد فكتوريا فكان في الخلف قرب الباب، ومقابلها - عبر الممر - جلس

الشباب الأسفر الذي كان سيجانها، ولذلك لم تكن لديها فرصة للوصول إلى المرأة الأخرى أو دس أي شيء في أمعتها. ولم تكن الرحلة طويلة. وللمرة الثانية نظرت فكتوريا من الجو لترى الخطوط العامة لمدينة بغداد تحتها ودجلة يقسمها كأنه عرق من الذهب في إحدى الصفوف.

هكذا رأته منذ أقل من شهر مضى... ولَكُم جرت أحداث كثيرة منذ ذلك الحين!

في غضون يومين اثنين سيلتقي هنا الرجلان اللذان يمثلان الأيديولوجيتين السائدتين في العالم لمناقشة المستقبل. وسيكون لها هي، فكتوريا جونز، دور تلعبه في ذلك.

* * *

قال ريتشارد بيكر: إنني قلق بشأن تلك الفتاة.

قال الدكتور باونسفوت جونز بإبهام: أية فتاة؟

- فكتوريا.

نظر الدكتور حول له وقال: فكتوريا؟ أين... آه، يا إلهي، لقد عدنا من دونها بالأمس.

- كنت أَسْأَلُ إن كنت قد انتهيت لذلك.

- إنه إسهال بالغ من طرفي. لقد كنتُ شديد الاهتمام بذلك

التقرير عن الحفريات في تل بعمار... ألم تعرف فكتوريا أين تجد الشاحنة؟

- لم تكن عودتها إلى هنا واردة أبداً... والحقيقة أنها ليست فينبسيا سافيل.

- ليست فينبسيا سافيل؟ يا له من أمر غريب! ولكن أحسبك قلت إن اسمها الأول هو فكتوريا.

- وهو كذلك بالفعل. ولكنها ليست عالمة أجناس، وهي لا تعرف إيميرسن. والحقيقة أن الأمر كله كان... سوء فهم.

قال الدكتور باونسفوت: يا إلهي! يبدو ذلك غريباً جداً. ثم فكر قليلاً وقال: غريب جداً. إنني أرجو... هل أنا الملام في ذلك؟ أعلم أنني شارد الذهن بعض الشيء. أترأتنا استلمنا رسالة بالخطأ؟

قال ريتشارد بيكر وهو عابس لا يلتقي بالآفتاملات الدكتور: لا أستطيع فهم الأمر. يبدو أنها ذهبت في سيارة مع شاب ولم تعد. وفوق ذلك لأن أمعتها كانت هناك ولم تكلف نفسها عناء فتحها. يبدو لي ذلك أمراً شديداً الغرابة... إذا ما أخذنا في الحسبان ورطة نقص الملابس التي كانت تعاني منها. كنت أحسبها ستحرص كل الحرص على ارتداء أفضل ما لديها. وقد انفقنا على اللقاء هنا لتناول الغداء معاً... نعم، إنني لا أفهم الأمر أبداً. أرجو أن لا يكون قد أصابها مكرره.

قال الدكتور باونسفوت باوتياح: آه، ما كنتُ لأظن ذلك اللحظة واحدة. سأبدأ غداً بالحفر في المرحلة ج. أظن أن تلك هي أفضل

فرصة لنا للعثور على مكتب السجلات. إن قطعة الطاولة تلك التي عثرنا عليها تبدو بالكثير.

- لقد حفظوها مرة قبل ذلك، فما الذي يمتهم من خطفها ثانية؟

- هذا مستبعد جداً... مستبعد جداً. إن البلد مستقر جداً في هذه الأيام. وأنت نفسك قلت ذلك.

- لو استطعتُ فقط تذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة نفطية. أكان اسمه ديكورن؟ داكين؟ شيء من هذا القبيل.

- لم اسمع باسم كهذا أبداً. أظن أنني سأبدل مصطفى ومجموعته وأرسلهم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، وعندها يمكننا تمديد الخندق ط....

- هل تمنع كثيراً يا سيدي- إن أنا عدتُ إلى بغداد غداً؟
منع الدكتور باونسفورت كامل انتباهه لزميله فجأة، وحدث إليه وقال: غداً؟ ولكننا كنا هناك بالأمس.

- إنني قلق على تلك الفتاة... قلق حقاً.
- يا عزيزي ريتشارد، لم يخطر لي وجود شيء من هذا النوع.

- أي نوع؟

- أنك قد تعلقت بها. هذه أسوأ نتائج وجود نساء في مواقع

الحفر... وخاصة الجميلات منهن! وهذه الفتاة (فكتوريا أو فينيسيا أو كائناً ما كان اسمها) جميلة تماماً بالطبع. أعتزُّ - يا ريتشارد - بأن لك ذوقاً رائعاً. أمر غريب، فهي أول فتاة أعرف أنك تهتم بها.

قال ريتشارد وقد احمر وجهه وهذا أكثر تمالياً من عادته: لا يوجد شيء من هذا القبيل. إنني فقط... قلق عليها. ينبغي أن أعود إلى بغداد.

- حسناً، إن كنت ذاهباً غداً فهناك أن تحضر معك تلك الحفارات! فقد نسبها ذلك السائق الأحمق

* * *

انطلق ريتشارد باتجاه بغداد في وقت مبكر من فجر اليوم التالي، ثم ذهب مباشرة إلى فندق نيو، وهناك علم أن فكتوريا لم تعد للفندق. قال له ماركوس: لقد كان الترتيب أن نتناول عشاء خاصاً معي، وقد حجزتُ لها غرفة رائعة. الأمر غريب. أليس كذلك؟

- هل ذهبت إلى الشرطة؟

- آه، لا يا عزيزي! لن يكون ذلك لطيفاً. ربما لا نرغب هي بذلك... وأنا لا أرغب به بالتأكيد.

بعد قليل من التحري هت ريتشارد على عنوان داكين وزاره في مكتبه. ثم نخته ذاكرته فيما يخص الرجل. نظر إلى الجسد المنحني والوجه المتردد والعرشة الخفيفة في اليدين لم يكن هذا رجلاً جيداً! اعتنوا له من إزعاجه وسأله إن كان قد رأى الأنسة فكتوريا جونز.

- لقد زارتني أول أمس.

- إنه يخلط بين التواريخ دوماً. ماذا عن فكتوريا جونز؟

- أيمكنك أن تعطيني عنوانها الحالي؟

عاد وجه ماركوس ليعبس وقال: لا، لم أسمع شيئاً عنها، وأنا غير مراقب لذلك يا سيد بيكر. إنه أمر غير مريح. إنها فتاة شابة وجديدة، وهي شديدة المرح والابتهاج.

- أمتعتها هناك، أما هي فليست هناك.

قال: نعم، نعم. أظن أن من المقصود أن أنتظر لتحية السيدة بانسفوت جونز. وتبادل -في سزة- ما الذي يمكن أن يكون قد حصل لفكتوريا.

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً، فقال ريتشارد: لقد كانت تعمل معنا في التقيب في تلي أسود.

- آه، لمعت. أعشى أنني لا أعلم شيئاً قد يفيدك. أظن أن لها عدة أصدقاء في بغداد... ولكنني لا أعرفها جيداً بحيث أعرف من هم أصدقائها.

قالت فكتوريا بعداية لا نخفيها: أنت؟... فبعد أن وافقوها لغرفتها في فندق قصر بابل كان أول شخص تراه هو كاثرين. أرمأت كاثرين برأسها بحقد مماثل وقالت: نعم، أنا. والأنا إلى فراشك رجاء. سيصل الغليب في الحال.

- أيمكن أن تكون في تلك المنظمة، ضمن الزيتون؟

- لا أظن ذلك، ولكن يوسعك أن تسأل.

قال ريتشارد: "اسمعي... أنا لن أعادر بغداد حتى أجدها"،

ثم عسي في وجه السيد داكين وخرج من الغرفة. أما السيد داكين فما أن أغلق الباب حتى ابتسم وهز رأسه وتمتم بلمحة نائب: آه يا فكتوريا!

كانت كاثرين ترتدي زي ممرضة مستشفى وتأخذ واجباتها بجدية، ومن الواضح أنها مصممة على عدم ترك فكتوريا لحظة واحدة. تمنعت فكتوريا وهي تتمدد بالنساء على السرير: لو استطعت الإمساك بإدوارد...

ولدى دخول ريتشارد إلى فندق تير استقبله ماركوس ببشاشته المتشادة لصاح ريتشارد: أولد هات؟

قالت كاثرين بازدراء: إدوارد... إدوارد! إن إدوارد لم يهتم بك أبداً أبنا الغيبة؟ غانا هي التي يحبها!

- لا، لا، إنها السيدة بانسفوت جونز. سمعت لتوي أنها وصلت بالطائرة اليوم، وقد قال لي الدكتور بانسفوت جونز إنها قادمة في الأسبوع القادم.

نظرت فكتوريا دون حياء إلى وجه كاثرين العنيد المتمصب، فيما مضت الأخيرة تقول: لقد كرهتكم دوماً، منذ ذلك الصباح الأول

الذي دخلت فيه وطلبت رؤية الدكتور راتبون بكل تلك الوقاحة.

قالت فكتوريا (وهي تبحث عن نقطة تثير بها غريمتها): أنا -على أية حال- أكثر منك أهمية بحيث لا يمكن الاستغناء عني. إن يوسع أية فتاة أن تقوم عندك بدور صرغفة المستشفى، أما أنا فلا أمر كله يعتمد على أدائي لدوري.

قالت كاترين برضا عن الذات: ما من أحد لا يمكن الاستغناء عنه... هنا ما تعلمناه.

ولكن أنا لا يمكن الاستغناء عني. بالله عليك اطلبي لي وجبة دسمة؟ فكيف تتوقعون مني -إن لم أأكل- أن أمثل دور سكرتيرة المصري الأمريكي بشكل جيد عندما يهين الوقت؟

قالت كاترين متذمرة: أحسب أن من الأفضل أن تأكلي طالعما أن ذلك باستطاعتك الآن.

ولم تنتبه فكتوريا للمغزى الشرير لذلك.

قال الكاتب كروسبي: فهمتُ أن لديكم زويلة وصلت لثوفا اسمها غريت هاردن.

أوما الرجل الهادئ خلف مكتب الاستقبال في فندق قصر بايل وقال: نعم يا سيدي. لقد وصلت من إنكلترا.

- إنها صديقة أختي. هل لك أن ترسل لها بطاقتي الشخصية؟

ثم كتب بضع كلمات على بطافته وأرسلها في مغلف إلى الطابق العلوي، وسرعان ما عاد الصبي الذي أخذها وقال: إن السيدة ليست على ما يرام يا سيدي. التهاب حاد في حنجرتها، والطبيب قادم حالاً. إن معها ممرضة مستشفى.

استدار كروسبي وعاد إلى فندق تيو حيث استقبله ماركوس قائلاً: أهلاً يا عزيزي. إن فندقي ممتلئ تماماً الليلة، وذلك بسبب المؤتمر. ولكن يا للأسف! لقد عاد الدكتور باونسفوت جونز إلى موقع تفتياته يوم أمس الأول، وها هي زوجته قد وصلت وكانت تتوقع وجوده في استقبلها، وهي متزعجة جداً لذلك! نقول إنها أخبرته بأنها ستأتي على هذه الطائرة. ولكنك تعرف طبيعت... إنه يخلط كل التواريخ والأزمنة.

ثم أنهى ماركوس سرده بسفاه المعتقد قائلاً: ولكنه رجل لطيف جداً، وقد اضطررت لفشور على غرفة لها بشق النسي... ورفضت استقبال رجل مهم من الأمم المتحدة.

- تبدو بغداد وقد تجنث تماماً.

- لقد نشرنا كل الشرطة وهم يأخذون احتياطات كبيرة. هل سمعت ما يقال؟ مؤامرة شيوعية لاغتيال الرئيس. وقد اعتقلوا خمسة وستين طالباً! هل رأيت رجال الشرطة الروس؟ إنهم يُبدون لثريباً بالجميع. ولكن هذا جيد جداً لأعمالنا... نعم، جيد جداً في الواقع.

ردّ جرس الهاتف وجاء الجواب سريعاً: السفارة الأمريكية.

- معكم فندق قصر بابل، إن الأنسة أنا شيل نفيم هنا.

قال الصوت من السفارة: "أنا شيل؟" ... وسرعان ما جاء إلى الهاتف أحد الملمحين في السفارة وقال للمتلحد: أيمكن أن تتكلم مع الأنسة شيل؟

- إن الأنسة شيل مريضة في فراشها تعاني من التهاب الحنجرة. يحكم الدكتور سموليروك، وأنا أشرف على حالة الأنسة شيل. إن لديها بعض الأوراق المهمة وتريد أن يأتي شخص مسؤول من السفارة لتعطها له. الآن فوراً؟ شكرًا لك، سأكون بانتظاركم.



التفت فكتوريا عن المرأة. كانت ترتدي بدلة جيدة التفصيل، وكل شعرة شقراء من شعرها صُففت بعناية في مكانها. كانت تشعر بالمصيبة والأرتباك، ولكن معوياتها كانت عالية. وعندما التفت رأته وميض فرح وانتصار في عيني كاثرين فاحتست فجأة لذلك. لماذا نرح كاثرين على هذا النحو؟ ما الذي يجري؟

سألت: ما الذي يفرحك إلى هذا الحد؟

- سترين في الحال.

كان الحقد واضحاً جلياً الآن. وقالت كاثرين بازدياد: إنك تحسبن نفسك ذكية جداً وتظنين أن كل شيء يعتمد عليك. ها! لسبب سوى مغفلة.

وبقصة كانت فكتوريا فونها! أمسكت بها من كتفها وضغطت بأصابعها في لحمها قائلة: أخبريني ماذا تفصدين أيتها الفتاة البتيضة.

- آخ... إنك تولمينني.

- أخبريني...

جاءت طرفة على الباب. طرفة تكررت مرتين، ثم طرفة أخرى مفردة بعد قليل. وصاحت كاثرين: الآن سترين!

فُتح الباب ودخل الغرفة رجل طويل يرتدي زي الشوطة الدولية. أقفل الباب خلفه وأخذ المفتاح. ثم تقدم من كاثرين قائلاً: بسرعة.

أخرج حلاً رفيعاً من جيبه وويط به كاثرين على الكرسي بكل تجاوب منها، ثم أخرج وشاحاً ويوطه على فمها. ثم تراجع قليلاً وهز رأسه باستحسان وقال: نعم... سيكون هذا جيداً.

ثم التفت إلى فكتوريا، وراة الهواة الثقيلة التي كان يلوح بها، وبلحظة التمتعت في ذهنها أبعاد الخطة الحقيقية. إنهم لم يتنوا أبداً تركها لتمثل دور آنا شيل في المؤامرة! إذ كيف لهم أن يخوضوا مثل هذه المجازفة؟ لقد كانت فكتوريا معروفة بشكل جيد في بغداد. نعم، لقد كانت الخطة -من البداية- تقضي بأن تتم مهاجمة آنا شيل وقتلها في اللحظة الأخيرة... فتلها بطريقة لا يمكن معها تمييز ملامحها. ولن يبقى -بعدها- إلا الأوراق التي أحضرتها معها... تلك الأوراق الحزوة بكل عناية.

استدارت فكتوريا باتجاه النافذة وصراحت بصوت خفقه الرشح الملتصق على وجهها، وتقدم الرجل منها وهو يتنسم. ثم حدثت عدة أمور... كان هناك صوت زجاج ينهدس... وجاءتها يد ثقيلة طرحتها أرضاً... ورائت تجرماً... ثم عتمة... ثم تكلم من قلب العتمة صوت صوت إنكليزي مُطمئن.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

نعمت فكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: ماذا قالت؟

حك الرجل الأول رأسه وقال بارتائب: قالت إن الخدمة في الجنة أفضل من الحكم في النار.

قال الآخر: هذا قول مُقتطف... ولكنها أخطأت فيه.

قالت فكتوريا: 'لا، لم أخطئ'، ثم أغمي عليها.

رَن جرس الهاتف فرفع داكين السماعة، وجاءه صوت يقول: تحت «العملية لكتوريا» بنجاح.

قال داكين: جيد.

- وقد قبضنا على كاترين مركيس والطبيب، أما الرجل الآخر فقد رمى نفسه من الشرفة وهو مصاب بإصابات بالغة.

- ألم تُصب الفتاة؟

- لقد أغمي عليها... ولكنها بخير.

- ألم تأت أخبار بعد عن أ. ش. الحقيقية؟

- لا أخبار أبداً.

أعاد داكين السماعة، وفكر في أن فكتوريا بخير على أية حال. أما أنا نفسها فلا بد أنها نُتلت. كانت قد أصرت على التصرف بمفردها وأكدت أنها ستكون في بغداد في التاسع عشر من الشهر واليوم هو التاسع عشر، وما من أنا شيل. ربما كانت محقة في عدم الثقة بالمؤسسة الرسمية... ثم يكن يدرى. كانت توجد -بالتأكيد- نقاط تسرب للمعلومات... وخيانات. ولكن الواضح أن ملكاتها انعطلة الطبيعية لم تساعدها بشكل أفضل... ومن دون أنا شيل سيكون الدليل ناقصاً.

دخل عليه مراسل يحمل ورقة كُتب عليها: السيد ريتشارد بيكر والسيدة ياونسفوت جونز، فقال للمراسل: لا أستطيع رؤية أحد الآن. قل لهما إنني آسف جداً، ولكنني مشغول.

انسحب المراسل، ثم ما لبث أن عاد وسلم داكين رسالة. مزق داكين الغلاف وغراً: 'أريد رؤيتك بشأن كارمايكل'.

قال داكين: أدخله.

دخل ريتشارد بيكر والسيدة ياونسفوت جونز، وقال ريتشارد: لا أريد شغل وقتك، ولكني كنت في المدرسة مع رجل يُدعى هنري كارمايكل. وقد اختلفنا ولم يُزَ أُلَي منا صاحبه مستويات طويلة، ولكن عندما كنُ في البصرة منذ بضعة أسابيع قابلته في غرفة انتظار

القصيلة. كان منكرًا بشباب عربية، « قد استطاع -دون أن يُدري أية إشارة لمعرفته لي- أن يفهم معي. هل بهمك هذا الموضوع؟
- يهمني جداً.

- تكونت لدي فكرة بأن كارمايكل كان يرى أنه في خطر. وسرعان ما تأكد ذلك! فقد هاجمه رجل بمسدس واستطعت أنا أن أضربه وأسقطه من يده. وقد سارع كارمايكل بالهرب، ولكنه دس في جيبه -قبل هربه- شيئاً وجدته فيما بعد. لم تدب فيه أية أهمية... بدا مجرد «ملاحقة»... مجرد إشارة إلى رجل يُدعى أحمد محمد. ولكنني تصرفت بناءً على افتراض يقول إن هذه الورقة كانت مهمة فعلاً بالنسبة لكارمايكل.

وبما أنه لم يعطيني أي تعليقات فقد احتفظت بها بكل حرص وعناية معتقداً أنه سيطلبها ذات يوم، وقد علمتُ قبل أيام من فكتوريا جونز بأنه قد مات، ووصلت -من أشياء أخرى قائلتها لي- إلى نتيجة مفادها أن الشخص المناسب الذي يمكنني تسليمه هذه الرسالة هو أنت.

نهض ووضعت ورقة فدره عليها كتابة على مكتب داكين وقال:
هل يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟

سحب داكين نفساً عميقاً وقال: «نعم... إنه يعني أكثر مما يمكنك تصوره». ثم نهض وقال: أنا شديد الامتنان لك يا سيد بيكر، وأرجو أن تعذراني على قطع لقائنا هذا بمثل هذه السرعة، ولكن أمانتي الكثير مما ينبغي علي متابعتها مما لا أستطيع معه توضيح دقيقة واحدة.

ثم صافح السيدة باونسفوت قائلاً: أحب أنك مستلحقين بزوجك في موقع تنقيباته. آمل أن تتمتعوا بموسم جيد.

قال ويشاود: إنه لأمر جيد أن الدكتور باونسفوت جونز لم يأت معي إلى بغداد هذا الصباح. صحيح أن الدكتور الحبور لا يلاحظ الكثير مما يجري، ولكنه ربما لاحظ الفارق بين زوجته وبين أخت زوجته!

نظر داكين -بخليل من الدهشة- إلى السيدة باونسفوت جونز، فقالت بصوت منخفض عذب: إن أختي إلسي ما زالت في إنكلترا. فقد صيغت شعري باللون الأسود وسافرت بجواز سفرها. وقد كان اسم أختي قبل زواجها إلسي شيل، أما اسمي أنا -يا سيد داكين- فهو أنا شيل.

* * *

الدكتور بريك تقنية تماماً في مفرداتها: فلزات معدنية تحوي على نسبة عالية من البرانيوم، ومصدر خزين اليورانيوم غير معروف بالضبط، إذ أن أوراق السير روبرت ومذكراته قد دُمرت خلال الحرب نتيجة عمليات التدمير.

الفصل الرابع والعشرون

ثم نولى السيد دايكين إكمال الفصة، حيث نُصِف -بصوت ناعم متعجب- ملحمة هنري كارمايكل، متحدثاً عن إيمانه ببعض الشائعات والقصص الممنهجة عن منشآت ضخمة ومختبرات تحت الأرض تصل في راد بعيد لم تصله المادية. تحدثت عن بحث كارمايكل... وعن نجاحه في ذلك البحث. وتحدثت كيف وافق ذلك الرحالة العظيم، السير روبرت كروفتن لي، الرجل الذي صدق كارمايكل بسبب ما يعرفه هو شخصياً عن تلك المناطق... كيف وافق على التقدم إلى بغداد، وكيف مات. ثم كيف لاقى كارمايكل حتفه هو الأخير على يد من انتحل شخصية السير روبرت.

ثم نُصِف السيد دايكين قائلاً: لقد مات السير روبرت، ومات هنري كارمايكل. ولكن شاهداً ثلثاً ما يزال حياً، وهو هنا اليوم. وإنني أدعو الأتية أنا شيل لتقديم لنا شهادتها.

قامت آنا شيل حادثة رابطة الجاش لأكما لوكانت في مكتب السيد مورغانثال، فأعطت المحصور قوائم من الأسماء والأرقام، ومن أعصاق عقلها المالي المبدع حدود للمحضور الخطوط العامة للشبكة العالمية الضخمة التي كانت تُمسك الأموال من التداول وتُدفعها على تمرير أنشطة من شأنها أن تقسم العالم المتحضر إلى طائفتين متنازعتين. لم يكن ذلك مجرد دعوى؛ فقد أبرزت حقائق

لقد تحولت بغداد ألياً تحول، فقد ملأ الشرطة كل الشوارع، وكانت الشائعات تنتشر طوال الوقت. قيل إن آباء من زعمبي الكثرين العظميين لن يأتي، وقيل إن الطائرة الروسية هبطت مرتين مخوفة بالمرافقة الرسمية، ثم ثبت أنها لا تحتوي إلا على طيار روسي شاب! ثم انتشر -أخيراً- خبر يقول إن كل الأمور على ما يرام؛ فترسباً الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا موجودان هنا، في بغداد، وفي أحد قصور ما تحديداً.

وأخيراً لهذا المؤرخ التاريخي، لقي غرفه الداخلية صغيرة كانت تجري أحداثاً معينة ربما كان من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وككل للأحداث ذات الأهمية البالغة، لم تكن مجريات ما يحدث في الغرفة دراسة مؤثرة أبداً.

قدم الدكتور ألان بريك (من معهد هارويل الذري) نصيبه من المعلومات بصوت منخفض دقيق: كان الراحل السير روبرت كروفتن لي قد ترك معه بعض العينات لأغراض التحليل، وكان السير روبرت قد حصل على تلك العينات خلال إحدى رحلاته في الصين، ثم تركستان، ثم كردستان وصولاً إلى العراق. بعد ذلك أصبحت شهادة

وأرفأماً لتدعم طرحها. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يصغون إليها فإنها كانت تملك من الإقناع ما لم تستطع قصة كارمايكل المستهجنة أن تثيره فيهم.

ثم تحدث داكين ثانية فقال: لقد مات هنري كارمايكل، ولكنه أحضر معه من رحلته الخطيرة أدلة ملموسة وأكيدة. وهو لم يجرؤ على الاحتفاظ بتلك الأدلة معه؛ فقد كان أهداه يلاحقونه عن كثب، ولكنه كان رجلاً ذا صداقات عديدة. وعن طريق اثنين من هؤلاء الأصدقاء أرسل الأدلة إلى جيمز أمين لدى صديق ثالث له... وهو رجل يحترمه العراق كله ويقدره. وقد تطلب هذا الصديق ووافق على الحضور إلى هنا اليوم. ولاني أشير بذلك إلى الشيخ حسين الزيارة، من مدينة كربلاء.

كان الشيخ حسين الزيارة مشهوراً - كما قال داكين - في كل أنحاء العراق كمثال كبير، وقد وقف الآن بقامته المهيبة ولحيته الممحنة باللون البني الغامق، وكانت مترته الرمادية مطرزة الحواف بلون ذهبي تغليها عباءة بنية رقيقة مفهافة مما يعطيه مظهراً مهيباً. وتكلم بصوت عميق رثان فقال: لقد كان هنري كارمايكل صديقاً لي، وقد عرفته طفلاً ودرس معي شعر شعرائنا العظام. وقد جاء رجلاً إلى كربلاء ممن يسافرون ومعهم صندوق المجانب يعرضون به الصور. وهما رجلاً بسيطان، ولكنهما صادقان متدينان. وقد أحضرا لي رزمة قالوا إن صديقاً لي اسمه كارمايكل الإنكليزي قد طلب منهما تسليمها إلي شخصياً، وقد أوصى أن أحفظ بها سرّاً في مكان آمن وأن لا أسلمها إلا له نفسه، أو لأي رسول يقوم بترديد كلمات معينة. فإن كنت أنت حقاً الرسول فتكلم يا بني.

قال داكين: أيها السيد، إن الشاعر العربي المتنبي، الذي عاش قبل ألف سنة، كتب قصيدة للأمير سيف الدولة في حلب. وقد وردت في القصيدة الكلمات التالية: «زُدْ، عُشْ، بُشْ، تَفْضُلْ، أَدْنْ، سُوءْ، حَبْلْ».

وبإضافة منه مد الشيخ حسين الزيارة يده برزمة إلى داكين وقال: وإنني أقول كما قال الأمير سيف الدولة: «لُك ما أُرِدْتُ».

قال داكين: أيها السادة، هذه أفلام جلبها هنري كارمايكل معه تأييداً لقصته.

ساد الصمت للمحطات، ثم انبرى صوت رفيع رسمي يحمل كل حيادية البيروقراطية وبرودها فقال: سوف توضع هذه الحقائق أمام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والسكرتير الأول لجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية.

- نعم! حيلة بسيطة... ولكنها فعالة. وقد اعتمدتها آنا شيل بناء على افتراض يقول إن الناس الوحيديين الذين يمكن أن يكونوا موضع ثقة في أوقات الأزمات هم أفراد عائلة المرأة. إنها شابة بالغة الذكاء.

- لقد ظننت أنني انتهيت. هل كان رجالكم يحرسونني عن بعد حقاً؟

- طوال الوقت. إن صاحبك إدوارد لم يكن أبداً على ذلك القدر من الذكاء كما كان يعتقد، وقد كنا نتحري عن أنشطته منذ بعض الوقت، وعندما قلت لي قصتك في الليلة التي قُتل بها كارمايكل كنتُ -بصراحة- قلقاً جداً عليك، ولذلك كان أفضل تصرف يمكنني التفكير فيه هو إرسالك عمداً إلى تلك المنظمة كجاسوسة. فإن عرف صاحبك إدوارد أنك على اتصال معي فذلك يعني أنك ستكونين بأمان إلى حد بعيد، لأنه سيعرف عن طريقك ما تفكر فيه ونعزمه، وستكونين آمنة بالنسبة له من أن يعمد لقتلك، كما أن يوسع أن يمرر لنا معلومات مزورة عن طريقك. لقد كنت صلة وصل، ولكن عندما اكتشفت مسألة انتحال شخصية السير روبرت كروفتن لي، قرر إدوارد أن من الأفضل إبعادك حتى موعد الحاجة إليك للقيام بدور آنا شيل (هذا إن وجدوا حاجة لذلك). نعم يا فكتوريا، أنت -حقاً- محظوظة جداً جداً لجلوسك هنا معي الآن لتتبعين كل هذا الكرم من المستق.

- أعرف بأنني محظوظة.

قال داكين: إلى أي مدى أنت مهتمة... بإدوارد؟

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا: إن ما يزعجني هو تلك الدنامركية المسكينة التي قُتلت خطأ في دمشق.

أجابها السيد داكين بمرح: أه! إنها بخير، فبمجرد أن أقلعت طائرتك قمنا باعتقال المرأة الفرنسية، وأخذنا غريت هاردن إلى المستشفى، وقد استعادت وعيها تماماً. كانوا ينوون تركها مخدرة لبعض الوقت ريثما يتأكدون من أن قضية بغداد قد سارت على ما يرام... وقد كانت -بالطبع- واحدة ممن يعملون معنا.

- حقاً؟

- نعم، فعندما اختفت آنا شيل رأينا أن من الأفضل أن نشغل الطرف الآخر عنها بمهيدة. وهكذا حجبنا تذكرة لغريت هاردن وحرصنا على عدم وجود أصل لاسمها وعنوانها، وقد تُدعوا بذلك وفقدوا إلى نتيجة مفادها أن غريت هاردن هي آنا شيل دون شك. وقد أعطيناها مجموعة رائعة من الأوراق المزورة لإثبات ذلك.

- بينما بقيت آنا شيل الحفيلية في المصححة حتى جاء الوقت الذي ينبغي فيه على السيدة باوسفوت جونز أن تلتحق بزوجها.

الجوالان بعرضهما المحمول؟ نفس الرجلين اللذين التقيناها؟

- نعم؛ شخصان بسيطان ليس في عملهما ما يستلزم البصيرة بصفة. مجرد أنهما كانا أصدقاء لكارمايكل... لقد كان لديه العديد من الأصدقاء.

- لا بد أنه كان رجلاً رائعاً جداً. إنني أسفة لموته.

- سمعته جميعاً يوماً ما. وقد كان من شأن كارمايكل أن يحسن بالرضا وهو يعلم أن إيمانه وشجاعته قد ساهما مساهمة لا أعرف أحداً ساهم بمثلها لإنقاذ هذا العالم المجهز الحزين من هجمة جديدة للفيروس وازدحام الدماء.

قالت فكتوريا وهي غارقة في التأمل: من الغريب أن يكون ريتشارد محتفظاً بنصف السر وأكون أنا محتفظة بالنصف الآخر. يكاد الأمر يبدو كما لو أن...

أكمل دافين عبارةها وهو يرمش بعينه: كما لو أن ذلك كان بتقدير مقصود. وهل لي أن أسأل عما نؤمن فعله الآن؟

- سأعطر للعثور على وظيفة... علي أن أبدأ البحث.

قال: "لا تبحثي عنها كثيراً؛ إذ أنني أحسب أن وظيفة ستأتي إليك". ثم ابتعد قليلاً بلطف ليرتك المجال لريتشارد ببيكر.

قال ريتشارد: اسمعيني يا فكتوريا... لن تستطيع فينيسيا ساجبل الحضور في نهاية المطاف؛ إذ يبدو أنها قد أصيبت بالكاف. وقد كنت مفيدة جداً في موقع التنقيب. هل تحبين العودة إليه؟ ولكن

نظرت إليه فكتوريا بيبات وقالت: لست مهتمة به على الإطلاق. لقد كنت مجرد مغفلة سخيفة، وكان ما أحسنه تجاهه مجردة افتتاناً مُرافقةً ببطل أعلى لها... تصورت نفسي جوليت وغير ذلك من السخافات التافهة. عندما أُجِيب في المرة القادمة لن يكون الشكل هو ما يجذبني. سأحب رجلاً حقيقياً... وليس ذلك الذي يشب أذان المرأة بالكلام المصقول. لن أهتم إذا كان أصبع أو كان يضع نظارات. أريده أن يكون مثيراً للاهتمام...

سألها دافين: في نحو الخامسة والثلاثين أم الخامسة والخمسين؟

نظرت فكتوريا إليه وقالت: آه، الخامسة والثلاثين.

- لقد أرحمتني؟ فقد ظننت -للحظة- أنك تخطينيني!

ضحكت فكتوريا وقالت: أعرف أن عليّ عدم طرح أسئلة... ولكن هل كانت توجد رسالة على ذلك الوشاح بالفعل؟

- كان عليه اسم. إن الحائكات (اللاتي كانت السيدة دوفارج واحدة منهن) كنّ يحرّكن أسماء علي منسوجاتهن. كان الوشاح -من جهة- وملاحظة التوصية التي احتفظ بها ريتشارد -من جهة أخرى- نصين متكاملين كلٍّ للآخر، يعطيان مؤشراً على ما يريد كارمايكل عندما يجتمعان معاً. وقد أعطانا أحدهما اسم الشيخ حسين الزيارة، وأعطانا الآخر -بعد أن حاملناه بخيار الود- الكلمات المطلوبة لإقناع الشيخ بتقديم كنزنا.

- وقد حمل السر في طول البلد وعرضه ذاك الرجلان

أخشى أن العمل هناك لن يكون إلا مقابل مأكلك وعشريك (وربما عودتك إلى إنكلترا فيما بعد... ولكننا ستحدث في ذلك لاحقاً). إن السيدة باونسفوت جونز ستأتي في الأسبوع القادم. ماذا نقولين؟

صاحبت فكتوريا، أه، هل تريدونني حقاً؟

لسبب ما أحمر وجه ريشارد كثيراً، فدارى ذلك بأن سعل ومسح نظارته ثم قال: أظن أننا قد نجدك... مفيدة جداً.

- إنني أحب ذلك.

- في هذه الحالة، من الأفضل أن نجتمع امتعتك ونعودي إلى المرقع الآن. لا أظنك تريدان البقاء دون سبب في بغداد، أليس كذلك؟

- مطلقاً.

* * *

قال الدكتور باونسفوت جونز: ها أنت ذي - إذن - يا عزيزتي فيرونিকা، لقد انتشغل إدوارد بك انتشغلاً أذهله عن نفسه. حسناً، حسناً... أرجو أن تجدوا غاية السعادة أنما الاثنين.

قالت فكتوريا منمجة عندما ابتعد الدكتور باونسفوت جونز: ما الذي عناء بقوله؟

أجابها ريشارد: لا شيء. إنك تعرفين طبيعته. إنه... إنه يستبق الأمور قليلاً... ولكن قليلاً جداً.

Chassey